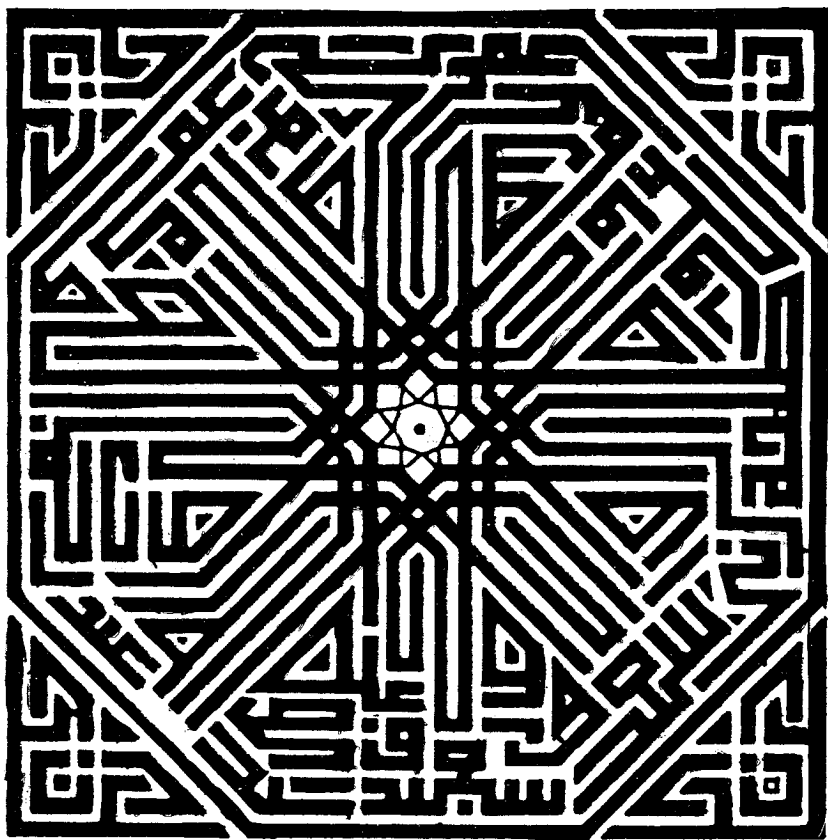


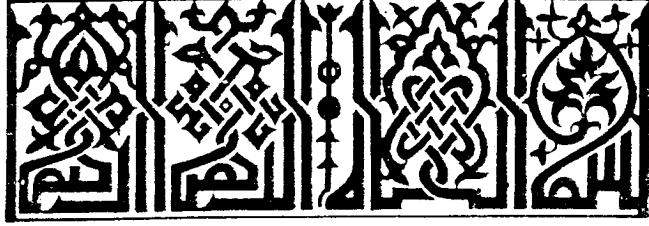
## أنوار الرفاعي

Mngool.com

النظم الإسلامية

دارالفکر





## بين يدي الكتاب

هل للإسلام ، وهو دين ، نظم ادارية وقضائية وعسكرية ومالية واجتماعية منفرد بها ؟ وإذا كان له ذلك فما علاقة الدين ، بالنظم التي يتبعها المؤمنون به ، في اختيار شكل الحكم الذي يرتضونه ، والقانون الذي يتخذونه ، واسلوب التعامل التجاري والعلاقات الاجتماعية التي تصح لمعاشهم ... ؟

الواقع ، ان الاسلام ، جاء بنظام متكامل ، يشمل الدين وما فيه من ايمان وعبادات ، والدولة وما فيها من أنظمة ومعاملات وقوانين وسياسة عامة ، والحضارة وما يسعد الانسانية ويعمل على تقدمها وازدهارها .  
والاسلام ، مع تحديده شكل الايمان وأنواع العبادات ، وضع الاطار العام للمعاملات المالية والاجتماعية والفكرية بين اتباعه ؛ ودعاً ، ضمن هذا الاطار ، إلى استخدام العقل السليم ، وما ينتهي إليه من معرفة وكشف فكري وعلمي وتقني ... والعقل السليم ، لا يمكن الا أن يؤدي إلى الخير والحقيقة .. وترك الاسلام لاتباعه التصرف حسب مقتضيات الأحوال في أمورهم الدنيوية ، فيما لا يخالف الاسس التي نص عليها والتوجيهات العامة التي أوحى بها ... فالرسول العربي حين قال : « إنما بعثت لمكارم الاخلاق » .. قصد جميع الاخلاق الحميدة ، التي يتصف فيها جميع العاقلين

من بني البشر على اختلاف لونهم وعقيدتهم وموطنهم . والقرآن الكريم حين نزلت آيته : « ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب » ، ضمنها قوانين العقوبات جميعها ، التي يتخذها المشرعون . والاسلام حين دعا أتباعه إلى « الصدقات » جعلها شاملة لكل عمل برّ وخير واحسان وتعاون وتعاطف ، وان فرض « الزكاة » وحدد قيمتها وبين أوجه صرفها ، وكان بهذا الفرض وضع « قاعدة » الضرائب ، التي توسع المسلمون فيها فيما بعد ، حسب حاجات دولهم واماراتهم وشعوبهم ... وحين فرض « الجهاد » جعل الخدمة العسكرية وخدمة العلم ، واجبا قوميا ودينيا ... والاسلام نفسه حين سمح ببعض الأمور ، التي تصلح لعصر ولا تصلح لآخر ، وتفيد في عصر ، ولا تفيد في آخر ، وضع بجانب هذا السماح ، تحذيرا ، وجعل التهيب إلى جانب الترغيب ، فسمح « بالرق » وشجع على تحريره حتى لتكاد أوجه تحريره التي دعا اليها ، لو نفذت ، كافية لالغائه ، وسمح « بالطلاق » لكنه حدّده ووضع له أصوله وقواعده ، وأمر الناس أن يتقوا الله به ، « فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وقال عليه السلام : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وسمح بتعدد الزوجات لكنه تعالى قال : « وان خفتم الا تعدلوا فواحدة ، ولن تعدلوا » ، ونظم العلاقات الزوجية والاسرية والاجتماعية ، وحدّد انصبة الإرث ، والوصية وما إلى ذلك من أمور مالية ... وهكذا رسم الخطوط العامة للنظم الاسلامية .

وبعد ، فهل وجب على المسلمين « الجمود » واتباع ما جاء نصا في القرآن والحديث ، وما حدث عمليا من أمور تصرف بها الرسول عليه السلام . وان يقف المسلمون دون ذلك من أمور مستحدثة ، لم يرد فيها نص ، ولم يجر لها ذكر في حياة الرسول ؟ ام سمح الدين لاتباعه بالقياس والاجتهاد ؟

وهل الاجتهاد مقصوراً على الصحابة والتابعين الأولين ، اغلق بابه بعدهم ، أم باب الاجتهاد مفتوح للمسلمين على مر الزمان وتتابع العصور ؟ وهل ندرس النظم الاسلامية التي وردت نصاً في القرآن والحديث والسنة أم ندرسها كما اتبعها المسلمون في مختلف حالاتهم ؟

لوضيقنا على أنفسنا بدراسة النظم التي نص عليها الاسلام لاقتصر بحثنا على دراسة الفقه الاسلامي ، وتفسير القرآن والحديث ، ولكن المسلمين ، لم يحمّدوا ، بعد أن انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى وانقطع الوحي ، وأعملوا عقولهم ، واقتبسوا ، وناقشوا ، وقاسوا واجتهدوا وابتدعوا وعدلوا واتبعوا نظماً مختلفة حسب مقتضيات الحال ، ضمن اطار تعاليم الدين الحنيف التي تدعو إلى العمل للمصلحة العامة .

الم يتغلب الصحابة على أول مشكلة واجهتهم يوم وفاة الرسول عليه السلام ، حين اجتمعوا في السقيفة واختاروا نظاماً للحكم لم يرد فيه نص مباشر ، ولكنه لا يخالف تعاليم الدين ؟ ألم يتصرف الخلفاء فيما عرضت لهم من أمور ، لم يسبق لها مثال يحتذى ؟ ألم يتناقش الخليفة عمر وصحابته في كثير من أحداث الفتوح ، وتوزيع الغنائم والقي ، ألم يمتنع الخليفة عمر ابن الخطاب عن إعطاء « المؤلفة قلوبهم » نصيباً من الصدقات مع ورود نص في القرآن يعطيهم حقهم في هذا النصيب ، ذلك لأن الدين الجديد الذي أصبحت له دولة قوية تحميه لم يعد بحاجة إلى مؤلفة قلوبهم بأثقلهم .. ولم يقل أحد أن عمر بن الخطاب خالف أوامر الدين ونواهيه فيما ذهب إليه من تصرفات .. ألم يختلف أهل السنة والجماعة وشيعة الامام علي ، والحوارج والمرجئة والعباسيون والتابعون ... في امر الخلافة ؟ ألم تلغ الخلافة في الربع الأول من هذا القرن ولا نسمع مسلماً واحداً يقول إن المسلمين اليوم

مخالفون للشرع فيما يتبعون من أنظمة ، ويسكتون عن إحياء الخلافة ؟  
ألم يحارب أبو بكر المرتدين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة للحكومة  
الاسلامية ، فيأتي خليفة بعده يترك الزكاة إلى الناس يؤدونها على ذمتهم ،  
لا تتدخل السلطة في محاسبهم ؟ ألم يقتبس الراشدون والأمويون والعباسيون  
وغيرهم الدواوين وأنظمة الحكم المختلفة ، ممن أسلم من غير العرب أو ممن  
جاورهم أو جاوروه ، أو اتصلوا به ؟ ألم تعرب الدواوين ، وينقط  
المصحف ، وتمتزج الأفكار والثقافة والعادات وأساليب الحياة في المجتمع  
الاسلامي جميعه ، حتى غدا مجتمعا جديداً ، لا هو عربي أصيل ، ولا هو  
اعجمي كامل العجمة ، ولا هو اسلامي بحت كالسلام عهد النبوة ، ولا هو  
خارج عن روح الاسلام ، فيه المسلم التقي الورع المجتهد ، وفيه المسلم  
التابع ، وفيه اتباع الديانات الاخرى ، كما فيه اجناس من شعوب شتى  
مختلفة التقاليد والمفاهيم ، متنوعة أساليب الحياة والتفكير ، تعيش جميعها  
في دولة الاسلام ... ولم يقل أحد أن هذا الاختلاف مخالف للدين .

فالنظم الاسلامية اذيت ، هي النظم التي اتبعها المسلمون في مختلف  
اشكال حكوماتهم ومجتمعاتهم ، سواء ما ورد بها نص ، أو اقتبس ،  
أو وصل إليه الناس باجتياز ورأي أو تجربة وصدقة ، وإن كانت في  
بلاد اسلامية ، ولجتمعات يدين اكثريتها بالاسلام ، وتخضع في اطارها  
العام لتعاليم الاسلام .

وحين نؤرخ لهذه النظم ، انما نستعرض ، في الواقع ، جانباً من  
حضارة المسلمين ، عرباً وعجماً ، ونصور حياتهم ، منذ جاء الاسلام ،  
بلوحة تبعث الروح في هذه الحياة ، في الادارة السياسية والجيش والتعامل  
الاقتصادي والاجتماع ، تزدان بكثير من الزخارف التي تأتي على ذكر

صانعي هذه اللوحة الحقيقين دون التفصيل في سير حياتهم وأعمالهم ، فتضفي عليها مسحة الجمال ودقق الحياة .

وإذ أقدم هذه الدراسة المنقضة . . أرجو الله العلي القدير أن يجعل منها خيراً للدارسين ، ومتعة مفيدة للقارئ ، وقوة لي ولغيري على متابعة العمل والبحث والتنقيب وإحياء تراثنا القومي الذي يجب أن يبقى نبواً لنا نهتدي بهديه ، وغذاء يجري في أنفسنا مجرى الدم فينقيه ، ويربطه بماض خالده تليده ، ويجيي حاضراً قلقاً ، وينبت مستقبلاً مزهراً ، كما كان ... ان لم يفضل .

والله ولي التوفيق

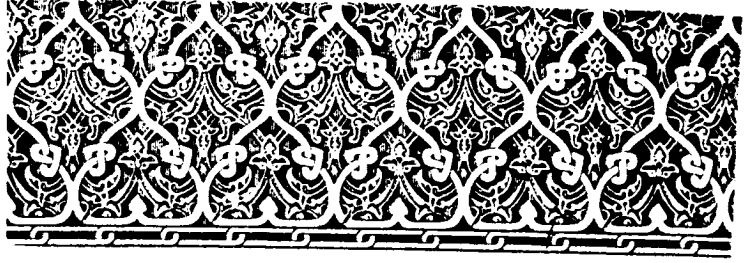
دمشق ١٩٧٣/١/٢٥ م الموافق ١٣٩٢/١٢/٢١

أنور الرفاعي

\* \* \*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ  
الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ  
مِنْ قَبْلِهِ رُسُلًا





# الفصل الأول

## أنظمة الحكم في الاسلام

**الجاهلية والاسلام :** تعتبر البعثة النبوية الحد الفاصل في تاريخ العرب من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية ... ويسمى العهد الذي سبق البعثة بالعصر الجاهلي ، كما ذكرنا ، والذي تلاه بالعصر الاسلامي . وليست كلمة الجاهلية مأخوذة من الجهل بمعناه المعروف وهو ضد العلم ، وإنما المقصود منها جهل العرب السبيل الحقيقي لمعرفة الله وعبادته ، واتصافهم بكنثير من العادات التي يجب أن لا توجد في مجتمع راقٍ متمدن ، وقد أبطلها الاسلام بتعاليمه ، كالفقه والأنفة والغضب والحية ، والمفاخرة بالنسب لا بالعمل الطيب ، وقد أطلقت كلمة الجاهلية على جميع ما يمت بصلة إلى الفترة التي سبقت العهد الاسلامي .

وكلمة الاسلام جاءت من السلم وهي تؤدي معنى السلام والأمن والمسالمة وعدم الخصام ، ثم أدت إلى معنى الخضوع والانقياد لأوامر الله ورسوله ، وأطلقت أخيراً كلمة مسلم ، على كل من اتبع ديانة محمد عليه السلام ، وأصبحت كلمة اسلام تدل مع الزمن على معانٍ ثلاثة هي :

**دين - دولة - ثقافة :** إذ يقصد بالاسلام الدين الاسلامي بجميع تعاليمه وعقائده ، ويقصد به الدولة الاسلامية التي أنشأها العرب بعد إيمانهم بالدين الجديد ، إذ بقي كثير من سكان البلاد التي فتحت في الشام والعراقين ومصر على دينه الاصلي ، مع خضوعه للدولة العربية الجديدة التي اتخذت الاسلام دينها الرسمي ، وكثير منهم دخل الدين الاسلامي لغاية سياسية بحتة وهي تخلصه من دفع الجزية التي تفرض على الذميين ، وليتقرب من الطبقة العربية الحاكمة . كما يقصد بكلمة اسلام ، الثقافة الاسلامية التي تطورت مع الزمن وأصبحت تمثل مزاجاً من ثقافات الأمم القديمة كالفرس واليونان والهند والسرمان والآراميين ، فقد أحييت الثقافة الاسلامية بحق ثقافات الشرق الأدنى المندثرة وخلقت من تمازجها ثقافة جديدة ، ساهم بها العرب والعجم على السواء ، وكان انتصار العرب فيها من ناحيتي اللغة والدين ، وانتصار العجم فيها من النواحي العلمية والفنية التي اتخذت الطابع العربي - الاسلامي.

والواقع كان الاسلام عامل وحدة عربية بين العرب في الجزيرة والاطراف ، وعامل وحدة روحية بين اتباعه على اختلاف الوانهم ولغاتهم وتباعد ديارهم ، وعامل وحدة قومية لجميع الذين اصبحوا يتكلمون العربية مسلمهم ومسيحيهم ، ففضل القرآن حفظت اللغة العربية الفصحى ، وبفضل القرآن والحديث نشأت علوم دينية ولغوية وأدبية ونتاج فكري عام ، وصار الاسلام فيما بعد ، منذ بعث محمد ، حتى اليوم ، لا ينفصل عن الثقافة العربية ، وصارت الحضارة العربية ، حضارة الاسلام ، سواء ساهم فيها المسلمون او غير المسلمين ، عرب او عجم ، واصبح الاسلام بنظر المسلمين عقيدة وشرعية وحضارة ومثلاً عالية ، وبنظر العرب المسلمين والمسيحيين معا ثقافة وحضارة وراثاً روحياً وإبداعاً مشتركة<sup>(١)</sup>.

---

(١) نكتفي هنا أن نورد قولاً واحداً لكاتب مسلم ، وأقوال بعض كتاب النصراني في القومية العربية أو في الحضارة العربية يؤيدون هذا الرأي :

**تعاليم الاسلام :** تقسم تعاليم الاسلام إلى قسمين : عقائد وأعمال :

**العقائد :** ويقصد بها الإيمان القلبي ومنها قوله تعالى : « آمن

قال طه حسين في مؤتمر الادباء الثالث عام ١٩٥٨ م : « اذا أردنا أن نعرف متى تكونت القومية العربية ، فينبغي أن نردها الى ظهور الاسلام . فالكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها - الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضا - انما هو النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي جاء بالقرآن ودعا الى الحق ، حتى كانت الهجرة ، وحتى أسست اولى مدينة اسلامية ، أو بعبارة أدق ، اولى مدينة عربية منظمة عرفها التاريخ ، تكونت فيها النواة الاسلامية للقومية العربية ، وهي مدينة يثرب ، ولم ينتقل النبي الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها هو القرآن ، ولها نظامها السياسي الذي يقوم على ما دعا اليه القرآن في العدل والانصاف والمساواة بين الناس . ولها حكماها المنظمون والمنظومون أيضا .

وبعد ان اتم النبي توحيد الامة العربية ونهض خلفاؤه من بعده ، جمعت هذه القومية العربية تتجاوز الجزيرة العربية الى الاقطار الاخرى . . ولم يكد القرن الثاني ينتهي حتى نظر الى القومية العربية فنجدها ليست في الجزيرة وحدها ، وانما هي قبل كل شيء في هذه البلاد التي فتحت والتي امتزج فيها العرب بغيرهم من سكان البلاد الاصليين .

اذن هناك قومية عربية جديدة انشأها ، لم تتألف من عنصر عربي خالص ، وانما تتألف من جميع العناصر التي كانت تسكن هذه البلاد ، فانشأ الاسلام اذن امة جديدة ، وجعل هذه الامة عربية ، عربية اللغة وعربية التفكير والشعور ، وعربية الحضارة وعربية الادب . . » .

وأعلن أمين نخلة ان للاسلام اعتبارين : أحدهما العقيدة وهي خاصة بالمسلمين ، وثانيهما الثقافة واللغة والتاريخ ، حتى لكان العرب جميعا مسلمون بهذا الاعتبار فقال : « ان ملّة القرآن والانجيل تتلاقيان ، حتى كان الاسلام اسلامان ، واحد بالديانة ، وواحد بالقومية واللغة ، او كان العرب جميعا مسلمون حين يكون الاسلام اهتداء بمحمد وتمسكا بقوميته وكافا بلفته . . » وأكد « ان محمدا صاحب رسالة عامة للبشر جميعا وهو في الوقت نفسه مفخرة للعرب كلهم » ، وأيده فيما ذهب اليه الياس خليل بقوله : « محمد هو لنصارى العرب كما هو لمسلميهم . أيها المسلمون ليس محمد لكم وحدكم ، ولكنه لنا ولكم ، هو نبي دينكم وهو شهادة حق مقدسة في ديننا ودينكم . ومحمد للقومي منا عربي عظيم من قريش . . مولد ابن عبد الله القرشي مولد للقوة ، وتحرر للجهاد لاخوة عربية مقدسة هي انقى اخوة عرفها بشري في عين بشري . . » .

الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته ،  
وكتبه ورسله .. ،

فالاعتقاد بالله ، أول ركن من العقائد الاسلامية ، وإذا كان الاعتقاد  
بوجود إله للعالم يكاد يكون عاماً بين الشعوب المتقدمة بعد اضمحلال  
عبادة الأوثان ، ونبذ فكرة تعدد الآلهة ، فان مفهوم الاله يختلف من  
اتباع ديانة إلى أخرى ، ويدعو الاسلام لعبادة إله واحد لا شريك له ،  
لم يلد ولم يولد ، رب السماوات والارض ورب العالمين خالق العالم ومدير  
أمره ، أحاط بكل شيء علماً . ومن العقائد الايمان بوجود ملائكته ،  
وكتبه المرسلة ، ورسول يخترهم الله من البشر فيبعثهم لهداية الناس ،  
وخاتم هؤلاء الأنبياء هو محمد عبده ورسوله أي هو بشير ، بعثه الله ،  
وبلغه أوامره كما بلغ من سبقه من الأنبياء بواسطة الوحي الذي لم يكن  
أبداً عبارة عن تجسد الله وإنما من طريق رוחي لم نعلمه حق العلم ، وقد  
أنزل القرآن على محمد فصار كتاب المسلمين المقدس والمرجع الأساسي لهم  
في جميع أمورهم الدينية ، كما أن من العقائد أيضاً الايمان باليوم الآخر  
أي يوم القيامة ، والحساب ، وبالجنة والنار ، وبالشياطين ، وبالقدر خيره  
وشره من الله تعالى .

**الاعمال :** وتتناول شتى أنواع الاعمال التي يقوم بها المسلم وهي :

١- **عبادات :** وهي ما يقوم بها المسلم لعبادة ربه كالصلاة ، والزكاة ،  
والصوم ، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

٢- **اخلاق :** ولم يكتف الاسلام أن يؤمن اتباعه بمعتقداته ويؤدوا  
فرائضه بل وضع لهم أساساً أخلاقية ، وطلب اليهم أن يعيشوا في الحياة  
معيشة دينوية أساسها الفضائل وحسن المعاملة والتعاون على الخير ، فهدم

كثيراً من العادات الجاهلية كالوحدة القبلية والوحدة الجنسية وأهل محلها الرابطة الدينية ، وكان التفاضل بشرف القبيلة أو الجنس فأهل محلها العمل الصالح والتقوى ، ومنع شرب الخمر ، ولعب الميسر ، والربى ، والكذب والغش والخذاع ، والتجسس ، كما دعا إلى مكارم الاخلاق كالصدق ، والعفو عند المقدرة ، والوفاء بالوعد ، وما إلى ذلك من الاخلاق الحميدة وقد قال عليه السلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .

٣- اجتماع : وضع الاسلام أسس كثير من الامور الاجتماعية ، كقواعد الإرث ، والزكاة ، وغنائم الحروب ، وأصول المبيعات والمفاوضات ، وحدد نظم الأسرة وتكوينها ، والزواج والطلاق ، وبين علاقة الفرد بالمجتمع ومعاملة الأفراد ، وما يتعلق بالقصاص وحدوده ، كما هدى إلى الآداب العامة كبداء التحية والسلام واحترام المسنين والنساء ..

٤- سياسة : وحتم على أتباعه إطاعة الله ورسوله ، وأولي الأمر في الأمة ما أطاع أولو الأمر أوامر الله . وأمر بالجهاد ، والاستعداد للحروب ضد الأعداء والدعوة للدين .

٥- انسانية حضارية : صحيح ان دعوة الاسلام انصبت فيما انصبت فيه إلى محاربة الوثنية والتأكيد على عبادة الله ، الاحد ، الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولكنها في نفس الوقت نقلت مثالية العرب من صعيد الصحراء ، إلى صعيد البشرية جمعاء ، ومن إطار القبيلة إلى إطار الانسانية فوحدت بين القبائل في العمل وفي الهدف ، وألقت في روع العربي انه إنسان في هذه الحياة ينضم إلى الاسرة الانسانية ، يسهم معها في رفاه الانسان وتقدمه ، وتنظيم حياته واستثماراته لقوى الطبيعة ، وحولت غريزته وحيويته من الغزو والصراع القبلي المحلي في سبيل بغير يغنمه ، أو متاع يسلبه ، أو ارض يرعى فيها سوائمه ومورد مائه يقيم حوله ، أو

من قتال في سبيل انفة جاهلية او تفاخر في النسب ، إلى الجهاد في سبيل تحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، وتحريرهم من مختلف انواع العبوديات : تحرير الرقيق من عبودية الرق ، وتحرير المرأة من الظلم الاجتماعي الذي سلبها حقوقها ، وتحرير الطبقات الكادحة من عبث الحكام ، ومنع الغش والفساد والخيانة والغدر والاستئثار ، وأكل الاموال بالباطل وما إلى ذلك من أمور ، كما حثت دعوة الاسلام على استخدام العقل البشري في البحث والتجربة وتتبع العلم ودراسة آلاء الله ، ومخلوقاته ، وما في الطبيعة من اسرار ، واستجلاء غوامضها والافادة من طاقاتها .

ومرجع تعاليم الاسلام الاسامي هو القرآن ، ثم ما أثر عن الرسول من حديث ، ثم أخذ المسلمون فيما بعد يقيسون على ما ورد في هذين المصدرين او يجمع علماؤهم على صحة أمر أو بطلانه . وهو ما عرف بالاجماع .

**القرآن :** وهو كما ذكر في بعض آياته « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وقد نزل على رسول الله منجماً في نحو عشرين سنة ، حسب مقتضى الحال ، وتطور الحوادث وتبعاً للمناسبات ، وكان رسول الله ﷺ ينقل لأصحابه ما يتول عليه من سورة وآياته ، فيحفظونها عن ظهر قلب ، ويكتبونها على عصب النخل ( جريدة النخل ) أو ألواح اللخاف ( الحجارة البيضاء الرقيقة ) أو قطع العظم ، وهو بلغة عربية جذلة ، ومن السهل الممتنع ، حتى ان بلاغته سحرت العرب وآمنوا به لعجزهم عن مجاراته ، وكان بلغة قریش ، واستعمل بعض كلمات من لغات القبائل الاخرى ، كما عربت فيه بعض الكلمات الاعجمية ، وأوجدت فيه كلمات جديدة ذات معان جديدة . وتقسم سورة إلى مكية

وهي التي نزلت بمكة من البعث حتى الهجرة ، وتشمل معظم القرآن ، وتمتاز بقصرها وبمجازها ، وأسلوبها المتين ، وهي تدعو إلى وحدانية الله ورفض عبادة الأوثان ، وتبين صفات الله تعالى ، وتثبت اليوم الآخر والحساب والجنة والنار ، وتبين ما يستطيع الانسان أن يتقرب به إلى الله تعالى من اخلاق فاضلة ومعاملة حسنة ، كما ذكر فيها بعض العبادات العملية التي تربط الانسان بالله وتوجهه نحو الخير كالصلاة ، وفيها أمر الرسول بالجهاد في سبيل نشر دعوته . أما السور المدنية وهي التي نزلت بعد الهجرة فتمتاز بقلّة عددها وطولها وتبلغ ثلث القرآن ، وتمتاز بما فيها من قصص تاريخية للأقوام الغابرة لتكون عبرة للمعتبرين ، وكثير من هذه القصص موجود في الكتب المقدسة للدبانتين الموسوية والمسيحية ، وقد تناولت الشرائع الاجتماعية والمدنية التي تكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض والقيام بالأعمال الدينية فذكرت فيها احكام الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وفيها تحريم الخمر والميسر ولحم الخنزير ، وذكر الاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمهر والميراث ، وذكرت ايضاً كثيراً من القوانين المدنية والجزائية كالقصاص ، والقتل ، والثأر ، والسرقّة ، والقذف والزنا ، وعقوبة الرقبة ، وكانت آخر آياته تلك التي نزلت على الرسول عليه السلام في حجة الوداع قبل وفاته بثلاثة اشهر : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وبعد وفاة الرسول ﷺ رأى أبو بكر ان كثيراً من الحفاظ قد قتلوا في حروب الردة فخاف على القرآن من الضياع ، وأشار عليه عمر بجمعه في كتاب واحد ، فجمع القرآن وسجل في نسخة واحدة بقيت عند أبي بكر ثم عند عمر من بعده ، ثم عند ابنته حفصة إحدى زوجات الرسول عليه السلام ، ولما كان عهد عثمان نقلت منه ست نسخ ، وارسلت اربع

منها إلى مكة والبصرة والكوفة والشام وابتقيت واحدة لأهل المدينة ، واحتفظ عثمان بالنسخة السادسة ، ومن هذه النسخ الاصلية نقلت النسخ التي وصلت إلى ابدينا ، والقرآن هو الكتاب الوحيد في العالم الذي لا يوجد فيه اختلاف في نصه أو تشكيكه أو روايته منها تعددت طبعاته وتنوعت وقد قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

لا جدال في أن القرآن الكريم معجزة النبوة وآية رسالة محمد ﷺ وقد تحدى القرآن العرب حين نزوله على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ففعلوا .

والتحدي بالبيان والبلاغة والاسلوب والايجاز وبالأخبار الصادقة عن الامور المستقبلية .. ولهذا قال بعض الباحثين المعاصرين ان القرآن ليس شعراً ولا يوصف بأنه نثر . فقسم الكلام إلى ثلاثة اقسام : شعر ونثر وقرآن ...

وقد عدّ القرطبي في القرن السابع الهجري ( المتوفي ٦٧١ هـ ) اوجه اعجاز القرآن في عشرة اوجه ، ومنها تشريعاته ... وشرح الامام محمد عبده ( المتوفي سنة ١٩٠٥ م ) هذه الواجه العشرة ... ان تشريعات الكتاب الكريم منها ما هو تنظيم اجتماعي ومنها ما هو خاص بالسياسة والحكم ، ومنها ما هو خاص بالنظام المالي والانظمة المدنية ، ومنها ما هو خاص بأمن الجماعة وسلامتها ، ومنها ما هو خاص بنظام الحرب والسلام ، وعلاقة غير المسلمين بالدولة الاسلامية ، ومنها ما هو خاص بمقاومة الرق والقضاء عليه تدريجياً ..

إذا ادركنا هذا بدقة ووعيناه وفهمناه ، يتبين لنا ان تشريعات القرآن الكريم هي باب عظيم من ابواب اعجازه للبشر وتحديهم<sup>(١)</sup> .

---

(١) من مقال للدكتور أحمد عبد المنعم البهي الاستاذ بجامعة الكويت العربي عدد ١٢٨ .



**الحديث :** والحديث أو السنة هو ما ورد عن الرسول عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير ، فلقد روي عن الرسول كثير من الاقوال التي قالها في مناسبات كثيرة ، وأجاب عن كثير من أسئلة صحابته بفسر لهم ما غرض عليهم من آي الذكر الحكيم ، أو يشرح لهم المجل منها أو المطلق أو العام كأوقات الصلاة وعددها وكيفيتها ، وما يبطلها . ( إذ فرض القرآن الصلاة ولم يبين تفاصيلها ) ، كما قام الرسول بكثير من الاعمال الدنيوية الثانوية التي لم يرد ذكرها في القرآن . فجميع ما أثر عن الرسول ، وما نقله صحابته عنه من بعده يعرف بالحديث ، وللحديث قيمة كبرى في الدين الاسلامي تلي رتبة القرآن مباشرة ويعتبر متمماً لتعاليم القرآن وسنتعرض في كلامنا عن الحياة الفكرية إلى القرآن وتفسيره وأصول الفقه المستنبطة منه ، وإلى الحديث وجمعه وتدوينه وتفسيره .

**اثر الاسلام في حياة العرب :** كان طبعياً أن يؤثر الاسلام بتعاليمه ومعتقداته الجديدة بالعرب تأثيراً واضحاً ، حتى لقد خلقهم خلقاً جديداً ، وجعلهم في مدة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان يوحدون شملهم في الجزيرة العربية ويخرجون منها ليرثوا ملك دولتي الأكسرة والقيصرة ، وليؤسسوا دولة قوية متأسكة تصل حدودها إلى المحيطين الاطلسي والهندي ، وتتاخم في الشمال الدولة البيزنطية وتقف في الجنوب عند الصحراء ، ولا يذكر التاريخ عاملاً دينياً واقتصادياً وسياسياً أثر في أمة ما ، تأثير الاسلام بالعرب ، فاذا استطاع موسى أن يخرج بني اسرائيل من مصر ويرفع عنهم نير العبودية ، وإذا دفع الجذب والجفاف الأقوام الآسيوية إلى الهجرة نحو الغرب ، وإذا نقل بطرس الاكبر الروس من شعب شرقي إلى أمة أوربية ، فان جميع هؤلاء لم يستطيعوا

أن يتركوا الأثر الذي تركه الاسلام في العرب ، وكان تأثير التعاليم الاسلامية متدرجاً ولكن سريعاً ، وكان أول ما فعل بالعربي أن رفع مستواه العقلي وجعله يفكر بوجوده وبالله وبآلاء الله ، فنقله من عبادة نصب وأوثان لاتضر ولاتنفع إلى عبادة رب العالمين ، ووضع له مثلاً أعلى يختلف عن مثله الأعلى في الجاهلية الذي كان يتمثل في التمتع بملذات الحياة ولذائدها والانغماس في اللهو والشراب ومعاقرة بنت الحان ولعب القمار وعدم التفكير سوى بالحياة الدنيا ، وأصبح مثله الأعلى الخلق الفاضل ، وعبادة الله والتقوى والصالح والعمل للسعادة في الحياتين : الدنيا والآخرة ، والتمسك بكثير من العادات الاجتماعية والاخلاقية .

« ويروى أن جعفر بن أبي طالب الذي هاجر إلى الحبشة بعداً عن اضطهاد المشركين أجاب النجاشي عندما سأله عن حال المسلمين وتعليقات الدين الجديد بقوله: « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار وبأكل القوي منا الضعيف ، فكانا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده فخرنا وآباؤنا من دونه من الأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ... » ( ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ) وفي هذا القول مقارنة لطيفة لحال العرب في جاهليتهم وأثر الاسلام في أتباعه منهم .

ولم تؤثر تعاليم الاسلام بتأثيراً وبدرجة واحدة على جميع أتباعه العرب

وغيرهم ، إذ نلاحظ نزاعاً محتدماً بين النزعات الجاهلية والنزعات الإسلامية ، بين العادات والتقاليد القديمة ، وبين التعاليم والديانة الجديدة . وظهر هذا النزاع في كثير من الحوادث سواء في عهد الرسول أو الخلفاء الراشدين أو العصر الأموي . وكان الدين الجديد ينتصر بالتدريج على مايت بصلة إلى الجاهلية ، وكان هنالك أناس لازالوا ينزعون إلى شيء من التسامح أو عدم التقيد بأوامر الدين ونواهيه ، كشرب الخمر ، والانغماس في الترف ، وترك الصلاة ، أو عدم دفع الزكاة ؛ كما كان هناك أناس آخرون ، دخل الإسلام إلى قلبهم فلا عليهم جوانحهم وصرفهم عن كل شيء إلا عن اتباع تعاليمه والتقيد بها ... وإذا لم يستطع الإسلام أن يجعل من العرب أفراداً متساوين في إيمانهم وعقيدتهم وأعمالهم الفردية ، فإنه استطاع أن يجعل من العرب كمجموع ، أمة جديدة ، ذات خلق جديد وأهداف جديدة ، فانسأوا مدفوعين بعامل نشر الدين الجديد ورفع راية الإسلام ، آملين بالفوز في الحياة الدنيا ، أو بمجنات النعيم في الآخرة ، إلى البلاد المجاورة لجزيرتهم وترعموا الحضارة العالمية في عصور كانت فيها بقية انحاء العالم تتخبط في دياجير الجهل والتعصب والانحطاط .

## الجاهلية المأخوذة

## تطور نظام الحكم في الاسلام

**نظام الحكم في عهد الرسول :** أخذ الرسول عليه السلام بعد البعثة في الدعوة لدينه الجديد ، وما لبث أصحابه ان ازدادوا ، ولما كانت بيعة « العقبة الثانية » التي اجتمع فيها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من أهل يثرب وبايعوا الرسول عليه السلام فيها « على أن يمنعوه بما يمنعون منه نساءهم وبناتهم » ، انتخب الرسول منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وقال لهم « انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم وانا كفيل على قومي » فكان ذلك أول تنظيم حكومي للرسول ؛ وعندما هاجر الرسول من مكة الى يثرب واستقبله أهلها وأحلوه المحل الأول في مدينتهم ، واستغنوا عن تنويع عبد الله بن أبيّ ، أصبح الرسول الرئيس الأعلى لحكومة يثرب ، وقد نزلت عليه سور التشريع المختلفة وهو في يثرب ، وكانت هذه الآيات تساعد على إيجاد دستور حكومي عام منظم ، وأخذ المسلمون يرجعون الى الرسول لحل جميع مشاكلهم ، وهكذا جمع الرسول السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وكان يحكم بوحى من الله ، أو باجتهاد يراه مناسباً ، وكان حكمه في كلا الحالين قاطعاً غير قابل للتمييز . واخذت صورة الجهاز الحكومي بالظهور ، إذا كان الرسول يجلس في مسجد المدينة المنورة ويقبل عليه الناس بسألونه حل قضاياهم ، أو يتعلمون منه تعاليم الدين الجديد ، أو يقدمون طاعتهم وإيمانهم به وبدينه ، وكثيراً ما كان الرسول يستشير أصحابه وخاصة أبي بكر قبل أن يقطع بأمر لم ينزل فيه نص شرعي ، حتى ان بعض الاعاجم

اعتبروا أبا بكر وزيراً للرسول تشبهاً له بوزراء أكابرهم أو قاداتهم . ولم يكن الرسول يصر على رأيه الخاص ، فيما اذا اقتنع بوجود رأي أحسن منه كما روي مرة انه « نزل منزلاً للحرب فقبل له : إن كان بوحي فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأي فليس منزل مكيدة ، فقال : باجتهاد ورأي ، ورحل » ولكن من المتفق أن الرسول لا يقر على خطأ .

وكانت آيات التشريع تنزل حسب تطور جماعة المسلمين ، وانتقلت بهم بالتدريج من العادات والتقاليد الجاهلية الى التعاليم الاسلامية الجديدة ، وهذا هو سبب وجود آيات النسخ والمنسوخ في القرآن ، إذ لا بد للقوانين الالهية من مراعاة الحال التي تطبق عليها الاحكام ، ومن قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . وقد تعرض التشريع الجديد الذي أصبح أساساً لنظام الحكم الاسلامي الى جميع ما يصدر عن الانسان من أعمال ، سواء من عبادات كما ذكرنا ، أو من أمور مدنية كالبيع والشراء ، والقروض والايجار ، أو أمور جنائية كالقتل والسرقة وقطع الطرق ، أو تنظيم للأسرة ، كالزواج والميراث . أو أمور سياسية دولية كالقتال ، ومعاملة أهل البلاد المفتوحة ، والذمين ، وتقسيم الغنائم . وكانت أعمال الرسول ﷺ هي المفسر لكثير من هذه الآيات التي جاءت بجملة عامة ، كما أنه قام بوظيفة رئيس الحكومة المدني بتعيين كتاب الوحي وإرسال الصحابة في تفقيه القبائل في الدين ، وأئمة المسلمين في الصلاة ، وجباية الزكاة ، وإرسال الكتب الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، وقاد بنفسه كثيراً من الحروب ، وعين القواد ، ورسم لهم خطط القتال الى غير ذلك من الأمور الدنيوية ، الى جانب قيامه برسائله الأساسية وهي الدعوة الدينية .

**نظام الحكم بعد الرسول :** ترك الرسول ( ﷺ ) من بعده مصدرين أساسيين للتشريع ولأنظمة الحكم هما : القرآن وما فيه من آيات للتشريع ، وأعماله التي قام بها وأحاديثه التي فاه بها وهو ما عرف بالحديث والسنة ، وقد واجه المسلمون من بعده كثيراً من المشكلات أخذوا يحلونها بالقياس بما حدث في عهد الرسول ، كما أخذوا بالتدرج يقتبسون أنظمة الحكم التي كانت سائدة عند غيرهم من الممالك كالفرس والبيزنطيين والاعريق . وقد وضع عمر بن الخطاب أسس نظام الدولة الإسلامية ، إذ قسم دولته إلى أقسام إدارية كبيرة ، وولى عليها الولاة ، وعيّن القضاة وعمال الخراج ، وبين لهم وظائفهم وأعمالهم ، وأمر قاداته باتخاذ مدن جديدة ليقم فيها الجند حتى لا يختلطوا مع السكان ويميلوا إلى الحياة الزراعية والاستقرار ، فتضعف فيهم روح الجندية والجهاد ، وكثيراً ما غادر عاصمته المدينة إلى الولايات ليتفقد حال رعيته وسيرة ولاته ، وليشرف على أمور دولته ، كما أوجد ديوان الجند لترتيب إعطيات المحاربين . وزاد معاوية وعبد الملك بن مروان في أقسام الجهاز الحكومي ، فأوجد الأول نظام البريد والعسس ، وعرب الثاني الدواوين وسلك نقوداً عربية . وتطورت أنظمة الحكم من بعدهما وخاصة في العصر العباسي حيث أوجدت الوزارة واستحدثت كثير من الدواوين الجديدة . ويمكن القول بأن نظام الحكم كان في عهد الخلفاء الراشدين نظاماً دستورياً أساسه الآية الكريمة « وشاورهم في الأمر » ، كالنظام الجمهوري الدستوري ، وانقلب إلى نظام ملكي في العهد الأموي وصارت تؤخذ البيعة لابن الخليفة قبل وفاة أبيه ، كما أدخلت فكرة حق الملوك الإلهي المقدس التي يؤمن بها الفرس على الخلافة في العصر العباسي ، وسلاحظ تطور نظام الحكم الإسلامي في كثير من الظواهر التي سندكرها فيما يأتي من أبحاث في عهد الخلافة الإسلامية ، من نظام شورى إلى نظام ولاية العهد والبيعة

إلى تطوير الدواوين وتنظيمات الشرطة والقضاء وبيت المال ووسائل الدفاع وغيرها .

✕ **الشورى والبيعة** : آمن المسلمون بالرسول ﷺ ) واتبعوا أوامره وانتهوا عن نواهيه ، واعتبروه مصدر جميع السلطات ، ولم يكن لهم الجأح فى ذلك لأن الله قد اختاره هادياً وبشيراً ، وبعثه بالرسالة ، وأوحى إليه ، وقد قال تعالى : « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ( سورة النجم ) .

ولما انتقل الرسول عليه السلام إلى جوار ربه ، شدة الناس لهذه المفاجعة وانجهموا فى آرائهم وجهات مختلفة ، فبعضهم رأى أن الرسول الذى بلغهم أوامر الله ونواهيه قد فارقهم إلى ربه ، ولا يوجد انسان آخر من البشر يخلفه ويتصف بصفاته ، فأخذوا يفكرون فى من يلى أمورهم من زعمائهم حتى لا يخضعوا لشخص آخر غريب عن قبائلهم أو بطونهم ، وتداعوا للاجتماع فى سقفة بنى ساعدة للتشاور فى أمر خلفه ، وقد اقضى اجتماعهم إلى انتخاب أبى بكر الصديق ، خلفاً للرسول ، وكان انتخابه بطريقة شورى ، إذ رشح الأنصار للأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعد نقاش طويل بين الأنصار والمهاجرين ، وجمي أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ، وإدلاء كل فريق بحججه بأنه هو الأحق بخلافة الرسول ﷺ ، وبعد خطبة أبى بكر فى هذا الصدد ، تقدم عمر وبايع أبى بكر وتبعه أبو عبيدة ثم زعماء المجتمعين ، ودعيت بيعة أبى بكر هذه بالبيعة الخاصة ، إذا لم يبايعه سوى الحاضرون فى السقفة . ثم أقرت عامة مسلمى المدينة هذه البيعة فى مجلس عام عقد بمسجد الرسول ﷺ فى المدينة ، وعرفت بينهم بالبيعة العامة ، ووافق مسلمو الجزيرة بعد ذلك على هذه البيعة . ولما شعر أبو بكر

بدنو أجله أوصى لعمر من بعده ، بعد أن استعمل فكره في اختيار أليق شخص لهذا المنصب الجليل ، وبعد أن استشار أصحابه ووافقوا على ذلك . أما عمر فانتخب ستة من الصحابة فوض لهم اختيار خلفه ، ووضع لهم نظاماً يتبعونه في المشاورة والاختيار ، وحدد لهم المدة الكافية لذلك ؛ وأمر بضرب عتق من يخالف رأي الجماعة والأغلبية . ولما قتل عثمان انتخب أهل المدينة علياً وبايعوه .. وإذا نظرنا إلى انتخاب هؤلاء الراشدين الأربعة رأينا أن انتخابهم كان شورياً ، فليدوا من قبيلة واحدة ، وكان المسلمون يوافقون على هذا الاختيار ، وكانوا لا يجيرون أحداً بالقوة على مبايعتهم ، وإذا كان بعض الناس يظن أن في انتخاب أبي بكر شيئاً من المفاجأة أو عدم الإجماع لأن عدد المجتمعين في سقيفة بني ساعدة كان قليلاً ، فإن ذلك ليس من الحقيقة في شيء ، لأن انتخابه كان فيه نقاش طويل ، وكان المجتمعون هم وجوه الصحابة من المهاجرين والانصار .

هذا ما كان من انتخاب خلفاء الرسول عن طريق شوري ، أما في العهد الذي تلا عهد الراشدين فلم تكن هناك شورى في اختيار أمراء المسلمين ؛ وهناك نوع آخر من الشورى ، ويقصد به المشاورة في الأمر . وشاورهم في الأمر ، ، وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ نفسه كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ، كما أن خلفاءه كانوا يجمعون مجلساً من وجوه الصحابة لا يختارهم في ما يعرض لهم من الأمور .

أما البيعة ، فيقصد بها مبايعة الخليفة على أنه رئيس المسلمين ينظر في أمورهم الدينية ويتولى إدارة زمامهم ، وكانت بيعة أبي بكر أن تقدم منه الناس وجعلوا أيديهم في يده وصافحوه وبايعوه على أن يسير بهم على سنة رسول الله ﷺ ، وصارت مصافحة الدين بعد ذلك عامة في المبايعة ، وبايع الناس عمر على أن يسير على سنة الرسول وأبي بكر ،



ويقال إنه عندما اتفق الستة الذين انتخبهم عمر للنشاور فيما بينهم لانتخاب خليفة ، كلفوا عبد الرحمن بن عوف أن يشار في الامر ، ويختار من بينهم ؛ واحداً فلما كان بالمسجد ، وكان يفكر في أحد شخصين هما : عثمان وعلي ، قال لعلي : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده ، قال علي : أرجو أن أفعل وأعمل ببلغ علمي وطاقتي ، وسيرة الخليفين من بعده ، ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قاله لعلي ، فقال عثمان نعم وكرر جملة عبد الرحمن ، وكان ذلك وحده كافياً لترجيحه على علي ومبايعته ، أي أنه فضل عثمان على علي لأن الأخير لم يرض أن يعد بالعمل بسنة الرسول ومن خلفه ، بل وعد بأن يعمل بحسب علمه ومقدرته ..

وكانت البيعة تؤخذ في مسجد المدينة المنورة من وجوه أهلها ، ثم يرسل الخبر إلى الأمصار فيوافقون على ذلك ويبايعون ولائهم باسم الخليفة . ولما اختلف الناس في عهد علي ومعاوية ، صاروا يبايعون من شاؤوا ، وبعد أن استقر الامر لمعاوية وأوجد فكرة ولاية العهد ، بايع الناس يزيداً في حياة معاوية ، ثم جددوا له البيعة بعد وفاته ، وهكذا أصبحت البيعة تعطى للخليفة قبل توليته ، ثم تجدد ثانية عند توليته منصبه ، وتطورت فيما بعد عندما صار الخليفة يختار ولين لعهد ، كما تطور شكل البيعة ، فترى قادة بني أمية مثلاً لا يكتفون من أهل الحجاز بمبايعة الخليفة كما جرى في بقية الاقطار الاسلامية ، بل أصروا على أن يعترف كل منهم أثناء بيعته على أنه خول للخليفة يزيد ، كما صارت هناك نصوص خاصة تقال عند البيعة وخاصة في العصر العباسي ، وأصبحت في بدء القرن التاسع الهجري في عصر ابن خلدون كما يصفها هو تشبه : « نحية الملوك الكسروية من تقيل الارض أو اليد أو الرجل أو الذيل .. واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل ، لما في المصافحة لكل أحد من التزل والابتذال المنافين للرياسة وصون المنصب الملوكي ... »



## الفصل الثاني

### الخلافة الاسلامية

« الخليفة موظف سياسي قبل أن يكون  
موظفاً دينياً ، وإن الواجبات الدينية الملغاة  
على عاتقه ، لا تعطيه حقوقاً دينية أو روحية  
تجعله يمتاز عن غيره من المسلمين » .  
« أرنولد »

**الخلافة :** ما كاد مسلمو المدينة المنورة يستفيقون من الصدمة التي  
فاجأتهم بوفاة الرسول ﷺ حتى فكروا فيمن يخلفه ، واجتمع بعضهم  
- كما ذكرنا - في سقيفة بني ساعدة ، وبعد نقاش حاد ، التفت عمر إلى  
أبي بكر وقال : « ألم يأمر النبي ﷺ بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟  
فانت خليفته ونحن نبايعك فنباع خير من أحب رسول الله منا جميعاً »  
( ابن هشام ) ثم قال : « ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعه ، وبايعه  
المهاجرون والأنصار » .

وقد لقب أبو بكر بلقب خليفة رسول الله ، ومعنى ذلك أنه إذا  
انقطعت النبوة بموت الرسول ، فلقد خلفه أحد أتباعه في رئاسة أمور  
المسلمين الدنيوية ، فمنزله من المسلمين من الناحية الدنيوية كمنزلة الرسول

منهم ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق تنفيذ شرائع الدين بإقامة الحدود ومعاقبة المرتدين ، وهو يجمع بين السلطين الدينية والروحية ...

**معنى كلمة خلافة :** الخلافة لغة مصدر خلف . يقال : خلفه خلافة ، كان خلفته وبقي بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ؛ والجمع خلائف وخلفاء

وقد سمي من خلف رسول الله ﷺ في اجراء الاحكام الشرعية خليفة . أما الخلافة في الاصطلاح : فهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي . يقول ابن خلدون في ذلك : والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخرية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

**القرآن والسنة ونظام الحكم :** يحاول الفقهاء أن يلتزموا للخلافة سنداً من القرآن والسنة ؛ ويدللون على صحة دعواهم بما نزل في القرآن الكريم من الآيات التي وردت فيها كلمة خلافة : « وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم ... » (س. النور) . « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم » (س. الانعام) « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتتحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين » (س. الاعراف) نلاحظ من هذه الآيات ان الكلمة هنا ذات معنى عام وليست خاصة بشخص واحد له السلطة والزعامة . ولكن ورد في القرآن آيتان فيها معنى فرديا لشخص يميز وهما : « ياد اود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين

الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ( س . ص ) « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ( س . البقرة ) .

ويقول بعض الفقهاء معلقين انه عندما أعلن الله عن نيته في خلق آدم دعاه خليفة ، لان آدم كان خليفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الأرض قبل خلق الانسان . ويفسر بعضهم الآخر كلمة خليفة بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف بمعنى الذي يفوز بمنصب سام وهكذا فانهم يشرحون أن آدم وداود سمي باسم خليفة اذ كان كل منهما على الأرض نائباً عن الله في هداية الناس وانذارهم بما أمر الله . وهذا التفسير يزيد في هبة وسلطة الخليفة . انما الملاحظ ان كلمة خليفة في هاتين الآيتين لا يقصد منها معنى الحكم والنفوذ السياسي .

فالتقرآن كما رأينا لم يشر الى نظام الحكم الذي يجب أن يتبعه المسلمون بعد النبي ﷺ ولكن آياته تخص على طاعة أولي الأمر : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

واذا ما لجأنا الى الحديث النبوي لمعرفة ما لم نعتبر عليه في القرآن عن وضع المسلمين السياسي ، نجد بعض الاحاديث تذكر كلمتي الخلافة والامامة مثل ما روي عنه عليه السلام قوله : ( الخلافة في قريش والحكم في الانصار والدعوة في الحبشة ) . ( الخلافة بعدي أربعون سنة ثم تصير ملكاً عضواً . ) ( الائمة من قريش ) . ( بأهلها الناس اتقوا الله وان أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا ) . الا أنها أحاديث يشك في صحتها بعض المؤرخين ، لان المسلمين لم يسمعوا بها الا بعد وفاة النبي ﷺ . ولو كانت معروفة أو سمعها الناس لما اختلفوا فيما بينهم حين اختيار من يخلف النبي ﷺ .

ويعتقد بعض المؤرخين ان معظم الاحاديث التي تبحث في شؤون الحكم قد دست على النبي من قبل بعض الجماعات والفرق الدينية ذات النزعات السياسية لتأييد وجهة نظرها فيما يتعلق بالحكم . ونحن نعلم أن الخلافة كانت أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين ، وتشعبت آراؤهم ، وتكون حولها أمم الفرق الاسلامية كالحوارج والشيعة والمرجئة .

### آراء الفرق الاسلامية والمؤرخين حول اختيار الخليفة :

لم ير المسلمون بدأ من إقامة خليفة للنبي بعد وفاته يقوم بنشر الدين ويدبر شؤون المسلمين ؛ وبما أنه لم يوص بالزعامة لاحد من أصحابه أو أهله الا ماروي عن لسانه فيما بعد أثناء بيعة أبي بكر ، فقد اتجهت كل فئة منهم تريد أن يكون الخليفة منها ، وبذلك قام النزاع واشتد الخلاف بينهم خوفاً من أن يحكم من محل محل الرسول هواء وعشيرته في رقاب الناس ومصالحهم ، كما لا يبعد أن يعلي هذا المركز من شأن القبيلة التي ينتمي اليها الخليفة . وكانت أمم الآراء التي ظهرت حول اختيار الخليفة هي :

١ - رأي المهاجرين : وحجتهم أنهم أول من آمن بالنبي ﷺ وصبروا على الاذى ولم يستوحشوا لقله عددهم ، وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش ، والعرب لا تدب إلا لهم . ولو انتخب الخليفة من قبيلة أخرى لقامت القبائل بنافس بعضها بعضا وانتشرت الفتن الداخلية .

٢ - رأي الانصار : وحجتهم أن النبي ﷺ لبث في قومه في مكة ثلاث عشرة سنة بدعواهم الى الاسلام فما آمن الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الاذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الانصار وآمنوا به وأعزوا دينه ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ، ونوفي ﷺ وهو عنهم راض وبهم قريير عين فهم أولى الناس أن يخلفوه .

٣ - رأي الشيعة : وم أنصار أهل البيت، لا يجذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة ، ويرون أن تكون الخلافة في بيت النبي ( يشبههم البعض بأصحاب النظرية الإلهية ) وأقرب الناس إليه عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه علي بن أبي طالب . ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين . فأولى الناس من قرابة النبي علي . فهو أول الناس اسلاماً ، وزوج فاطمة بنت النبي ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر .

ويقول انشهرستاني ان الإمامية وهي إحدى فرق الشيعة يعتقد أصحابها أن النبي عين علياً خلفاً له تصریحاً وتعريضاً. أما تصریحاً فقولهم : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . . . . أما تعريضاً فهي أن النبي ﷺ مثلاً أمر في كثير من البعث أناساً على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ، ولكنه ما أمر على علي أحداً قط .

٤ - رأي الخوارج : وهو أن الخلافة يجب أن تكون باختيار عربي حر من المسلمين ، وإذا اختير مسلم ، فلا يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً . وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب ان يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله وإلا وجب عزله . وقد أدخلوا بعض التعديل على رأيهم فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية . لهذا دعاهم فارتفعت بالجمهوريين لمبادئ الديمقراطية المتطرفة . وقد خالفوا نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة في بيت النبي ونظرية أهل السنة القائلة بان الخلافة في قريش . وهذا ما دعاهم الى الخروج على خلفاء بني أمية ثم على العباسيين لاعتقادهم أنهم جائرون غير عادلين ، لم تنطبق عليهم شروط الخلافة في نظرهم.

٥ - راي المرجئة : ومحايدين ، لا ضد الدولة ولا معها ، نظرهم واحدة نحو جميع الذين أدلوا بنظرياتهم في الخلافة . فكلهم مصدق بالله ورسله وكلهم مؤمن . فهم لا يكفرون أحداً من الذين تقاتلوا في سبيل الحكم كالأمويين والشيعة والحوارج وغيرهم . وهم يرون مهادنة بني أمية صحيحة ، وأن خلفاءهم مؤمنون لا يصح الخروج عليهم وقالوا لسنأ نستطيع أن نعين المصيب فلتترك أمورهم جميعاً الى الله . من هذا نلاحظ ان موقفهم ازاء حكم الامويين موقف تأييد ولكنه تأييد سلبى لا ايجابى .

٦ - راي المعتزلة : يقولون بحرية ارادة الانسان ، وان الامة تختار

إمامها ، إذ ان القرآن لم ينص على الصفات التي يجب أن تتوفر في حاكم المسلمين . إلا أنهم لم يتفقوا فيما بينهم في اشتراط ان يكون الامام من قريش . وقالوا : ان حديث ( الائمة من قريش ) لم يكن متواتراً ، إذ لو تواتر لما ادعت الانصار مشاركة المهاجرين في الخلافة ، بل ان عمر بن الخطاب كان يجوز إمامة المولى فقد قال : لو كان سالم (مولى حذيفة) حياً لولته .

كما قالوا بصحة خلافة الراشدين . وقد اختلفوا في أيهم أفضل ، إلا أن معظمهم يجعلون ترتيب الاربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة . اما في الحرب بين علي ومعاوية فانهم يؤيدون وجهة نظر علي . وبغضه على ذلك تكون نظرهم الى خلافة بني أمية على انها غير صحيحة ، وكان موقفهم منهم موقف كراهية وان لم يشعروا ثورة الحوارج . ويجب ألا يغرب عن بالنا أنهم أبدوا بعض الخلفاء : من أمويين (يزيد بن عبد الملك) وعاصمين (المأمون) والمعتصم والواثق (لما اعتنق هؤلاء مبادئ المعتزلة الدينية .

٧ - راي ابن خلدون : رأى في السياسة الدينية الخير للبشر . لأن هذه السياسة تؤدي إلى إسعاد المجتمع في جميع أحوالهم من عبادة أو معاملة

حتى في الملك الذي هو طيعي للاجتماع الانساني ، أي أن الحكومة الدينية هي خير أنواع الحكومات . والخلافة في نظره وكالة عن النبي ، والخليفة يمثل النبي في السلطة السياسية والدينية ولا يمتاز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين . ولم ير بأساً من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أباً كانت جنسيتهم : « وليس الملك لكل عصبية ، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعد الرعية ويحيي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، فمن قصرت به عصبته غن بعضها فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته ... واشترونا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية . غالبية على من معها لعصرها ليستبوعوا من سوام وتجتمع الكلمة على حسن الحماية » .

ويرى ابن خلدون ضرورة وجود الخلافة في قريش بعد وفاة النبي للأسباب التي ذكرناها سابقاً كما يقول أيضاً : ( ان قريشاً كانوا عصب مضر وأصلهم ، وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ) . فهو يرى أن اختيار الخليفة من قريش كان لأنها أكثر القبائل كفاية لها ، وليس للنسب وعراقة الأصل سبباً في هذا الاختيار . ويرى المؤرخ أنولد أنه روعي في اختيار الخلفاء الراشدين طريقة اختيار شيخ القبيلة ، مع مراعاة الحال والجاه والاحترام بسبب السن أو المكانة والنفوذ ، أو بالنسبة للعلم والتفقه ، أو ما أدى من خدمة للمصلحة العامة . وهذا ما يؤيد رأي ابن خلدون .

**نشأة الخلافة وتطورها في زمن الراشدين والامويين والعباسيين**

**الخلافة زمن الراشدين :**

مات النبي ﷺ ولم يخلف ذكرأ ولا أوصى بالخلافة لأحد ( إذا استثنينا



رأي الشيعة في ذلك ، فاختلف المسلمون عند موته من مهاجرين وأنصار وغيرهم فيمن يخلفه كما مر معنا . وكان الأنصار أول من فكر في ضرورة الاسراع لانتخاب خلف للرسول كي لا تدب الفوضى وتتشعب الآراء . إذا ظل المسلمون بدون رئيس . لهذا تداعوا للاجتماع في سقيفة بني ساعدة ليتشاوروا في الأمر ويختاروا من بينهم خليفة . فاتفقت كلمتهم على ترشيح سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج . فسمع بذلك المهاجرون فعجل إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . وقام بين الطرفين نقاش طويل وأدلى كل فريق منهم بالحجة على أن هذا الأمر له دون غيره . وقال أحد الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » ، فرد عليه عمر مبيناً أن هذا الأمر لقريش وقال : « هيات أن يجتمع اثنان في قرن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ... »

وقد انحازت الأوس إلى صف المهاجرين إذ كرهت أن يكون للخزرج السلطان . وخاف عمر من انقسام المسلمين وأراد أن ينهي الأمر في ذلك الاجتماع فبادر إلى أبي بكر وبايعه وقال له : « ألم يأمر النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين فانت خليفته ونحن نبايعك فنباع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . ثم تبعه أبو عبيدة وباقي الناس . وتعرف هذه البيعة بالبيعة الخاصة . ثم أقر عامة مسلمي المدينة في اليوم التالي هذه البيعة في مسجد الرسول ﷺ وعرفت ببيعة العامة .

والأسباب التي سهلت انتخاب أبي بكر دون سائر المهاجرين من بيت النبي وغيرهم هي :

١ - تكليف النبي له أثناء مرضه أن يؤم المسلمين في الصلاة .

٢- كي لا يجمع النبوة والخلافة في بني هاشم ، وكان هؤلاء قد اعتبروا بأن النبي منهم . وقد روي عن الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية قوله : « أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا » .

٣- السبق في الاسلام .

٤- كان رفيق النبي الوحيد في هجرته إلى المدينة وساعده الأيمن ، ونزول الآية الكريمة مشيرة إليه « الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار » .

انتخاب عمر : لما مرض أبو بكر واحس بدنو أجله خشي أن يتقسم المسلمون على أنفسهم من أجل الخلافة ، كما كاد أن يحصل من قبل . فرأى بعد نظره أن يحتاط لذلك بتعيين خلف له . ولكنه رغب أن لا ينفرد برأيه ، فاستدعى إليه أصحاب الرأي في الأمة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان وأسد بن حضير وسعيد بن زيد وغيرهم من المهاجرين والأنصار فاثنوا كلهم على عمر وبذلك عينه أبو بكر خلفاً له .<sup>(١)</sup>

انتخاب عثمان : ألح بعض الصحابة على عمر لما طعن وأشرف على الموت أن يعين خلفاً له . وبعد نقاش بينه وبينهم عين سبعة أشخاص هم : علي وعثمان وسعد بن عوف والزبير وطلحة بن عبيد الله وابنه عبد الله ابن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء . وأوصى أن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار . وقد اجمعت الآراء على تعيين عثمان أو علي . فانتخب آخر الامر عثمان .

(١) راجع : انور الرفاعي : الانسان العربي والتاريخ ص ١٦٧ وما بعدها عن كيفية اختيار الخلفاء الراشدين ومبايعتهم .

انتخاب علي : قامت فتنة أدت إلى قتل عثمان وانتخب علي بعده ، إلا أن انتخابه لم يكن عاماً ، إذ امتنع عن ذلك بنو أمية وطلحة والزبير والمغيرة وغيرهم . وازداد عدد المستأين منه لما عزل ولاية عثمان ومنهم معاوية ، ونقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة بما حدا بالاستاذ نيكلسون إلى القول بأنه كان ينقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحكمة السياسية .

انتخاب الخلفاء الراشدين : جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : وأمرهم شورى بينهم ، ويمكننا مع بعض التحفظ أن نقول أن في انتخاب الخلفاء الراشدين الأربعة فكرة الشورى إذ بيعتهم تبعد عن النظام الوراثي . إذ حصل في انتخابهم جمعاً ترشيع ومشاورة وقبول أكثر الزعماء المسلمين ثم موافقة سائر الأمة . فلم يكن هناك اكراه أو ضغط أو استعمال للسلاح في تعيينهم ، إنما جرى الانتخاب باتفاق وتأييد الأكتريّة . وإذا وجد معارضون ومخالفون ومستكفون فهو أمر طبيعي إذ نلاحظ في عصرنا هذا مثل ذلك أو أشد منه لما يجري انتخاب رؤساء الجمهوريات . وتذكر المصادر انتخابات تمت بأكتريّة ضئيلة جداً . ورب معترض يقول إن هذه الأكتريّة لم تحصل في بعض الأحيان كما جرى لعلي بن أبي طالب إذ لم يبايعه سوى أهل المدينة ولم يؤخذ في انتخابه رأي غيرهم من المسلمين . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك يرمته مبني على رأي أهل المدينة .

الخلافة زمن الأمويين : لما انتقلت السلطة إلى الأمويين أصبحت الخلافة ملكاً استبدادياً آل إلى أصحابه بقوة السيف والسياسة والمكيد . وبذلك تبدل نظام الخلافة ، فبعد أن كان يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين ، أصبح يقوم على أساس التوريث ، ويستند إلى السياسة أولاً والدين ثانياً . وادخلت كل مظاهر الإبهة التي تمتع بها الملوك والقيصرة .

الخلافة - ١٩٩٩

الخلافة - ١٩٩٩

إلا أنه ينبغي ألا يغرب عن أذهاننا أثر البيئة في تطور شكل الحكم . كانت المدينة حاضرة الدولة العربية زمن الراشدين وسكانها من العرب وكانت الخلافة تتلاءم مع العادات والتقاليد العربية ، ولكن عندما أصبحت دمشق عاصمة الدولة واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة المتأثرين بالنظم والعادات البيزنطية والفارسية ، كان على الأمويين أن ينسجموا والبيئة الجديدة ، فتبدل نظام الخلافة وأصبح أشبه شيء بالنظام الملكي أو القيصري . ومن ثم زادت السلطة الزمنية للخليفة . على أن الطبيعة العربية والنفوذ العربي ظلّا سائدين . وقد قال سيد أمير علي في ذلك : « كانت الحكومة في العهد الأموي حكومة مطلقة مشبعة بحرية القول التي فطر عليها عرب الصحراء والعلماء ورجال الدين ، تلك الحرية التي مكنتهم من تغيير نزعة الخليفة معتمدين في ذلك على آية من القرآن أو بيت من الشعر » .

**الخلافة زمن العباسيين :** هذا العباسيون حذو الأمويين في التوريث . وبما أن دولتهم قامت على اكتاف الفرس تأثرت الخلافة بنظم الحكم لدى ملوك الفرس الذين كانوا موضع قداسة الشعب . والذين كانوا يعتقدون أن يحقهم في الملك مستمد من الله ، لذلك ازدادت الصفة الروحية في الخليفة لاعتقاد الفرس بنظرية الحق الملائكي المقدس وغدا البلاط العباسي أشبه شيء بـ بلاط الإكاسرة ، فصار الخليفة شخصاً مقدساً وأصبح ظل الله في الأرض كما يبدو ذلك في قول المنصور « إنما أنا سلطان الله في أرضه » . وهذا يخالف تماماً حال الخلافة في العهود الماضية ، ويتجلى ذلك في قول أبي بكر « ان احسنت فشجعوني وان اسأت فقوموني بحمد سيفكم » وقول عمر ابن عبد العزيز « لست بخير من أحدكم ولكني أتلسم حملاً » .

**سلطة الخليفة ومقارنتها بنظم الحكم الأخرى التي عرفت في القرون الوسطى :**

تشمل سلطة الخليفة جميع النواحي المدنية والدينية والحربية ؛ إذ له على الأمة الولاية التامة والطاعة التامة وله حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه . وله بالأولى حق القيام على شؤون دينهم أيضاً . بيده وحده زمام الأمة فكل ولاية مستمدة منه وكل خطة دينية أو دنيوية متفرقة عن منصبه فهو الحاكم الزمني والحاكم الديني .

وجمع كل هذه السلطات بيد الخليفة كان سبباً رئيسياً في قوة العرب وازدياد نفوذهم واتساع سلطانهم كما قال غوستاف لوبون : « وقد كانت تلك النظم السياسية سبب عظمة العرب ... ولا شيء أصوب من جمع محمد ، لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة ألام كانت العرب مجزأة ، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد » .

إنما يجب أن لا يغرب عن بالنا أن الخليفة مهما اتسعت سلطته لا يستطيع مخالفة القانون الذي يتألف من القرآن والسنة . مع العلم أن سلطة الخليفة واسلوب الحكم وتطبيق الشرع يختلف زمن الراشدين عنه زمن الأمويين والعباسيين . ففي زمن الراشدين كانت الخليفة يستعين في تصريف مهام الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف عادة من الصحابة الأولين يجتمعون في مسجد النبي يساعدهم جمع من الأشراف والرؤساء .

أما بعد ذلك فالخليفة كان الحاكم المطلق يستشير إن أراد أو يتفرد بحكمه كما كان يفعل في غالب الأحيان . إلا أن اعتماد الخلفاء على العناصر الأجنبية زمن العباسيين أضعف من سلطتهم وجعلهم آلة بيد الأتراك والسلاجقة والبيهيين وغيرهم حتى قال أبو الریحان البيروني ( ٤٤٠ هـ ) « أنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته » .

وكان العثمانيون حريصين جداً على إبراز هذه السلطة الدينية حتى على غير رعاياهم . ففي معاهدة كوتشوك كينارجي بين العثمانيين والروس سنة ١٧٧٤م انتهز العثمانيون فرصة مطالبة الروس بحماية مسيحيي الارثوذكس في الدولة ليطالبوا بحق مماثل للسلطان العثماني على مسلمي الامبراطورية الروسية . كما أن السلطان عبد الحميد الثاني جعل السلطة الدينية رسمية وقد نص عليها في الدستور الذي أصدره سنة ١٨٧٦م .

① وإذا تخن قارنا الخلافة بغيرها من نظم الحكم عند الامم الاخرى في القرون الوسطى ، كما فعل توماس ارنولد ، نجد في الغرب حاكمين أحدهما زميني وهو الامبراطور والآخر روجي وهو البابا . أما في الشرق فالخليفة يجمع بين السلطين الزمنية والدينية .

② فالامبراطورية الغربية لم تكن مستحدثة الوجود بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة حتى أن شارلمان تلقب بالقباب الاباطرة الوثنيين . أما الخلافة فإنها لم تقم على نظام سيامي سابق بل هي نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت على أثر ظهور الاسلام .

③ والخلافة تختلف عن الباباوية وقد وقع بعض الكتاب والمؤرخين في خطأ تشبيه سلطتها أمثال : ماركو بولو عندما كتب عن بغداد بأنها مدينة عظيمة اعتادت أن تكون كرسي خليفة كل المسلمين في العالم كما هي في روما كرسي البابا لجميع المسيحيين . وياقوت الحموي ( ١٢٢٩ ) م الذي قال عن روما أنها المدينة التي يسكن فيها البابا الذي يطيعه الفرنجة وهو لهم بمنزلة الامام متى خالفه أحد منهم كان عاصياً عندهم ومخطئاً يستحق النفي والطرود والقتل ، وابن الجوزي ( ١٢٥٧ ) م الذي يدعو البابا خليفة الفرنجة .

فالبابا هو قيس أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وأن يغير ويلغي القوانين التي وضعها أسلافه . أما الخليفة فلا يستطيع أن يشرع مبدأ دينياً جديداً ولا يعفو عن الخطايا ولا يمارس وظيفة كهنوتية ما . فسلطة الخليفة إذن دينية ولكن ليست روحية ، أي أنه يستطيع باعتباره حامي الدين أن يعلن الحرب ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة .

وبقيت الخلافة قائمة بالرغم من كثير الظروف التي لا يستها سواء بشكلها العائلي الملكي في العهد الأموي ، أو بشكلها المقدس في العصر العباسي أو بانقسامها عندما وجد أكثر من خليفة واحد في العالم الإسلامي ، أو بضعفها وانقراضها ثم إحيائها كما حدث عقب غارات التتر على بغداد ، وإعادتها في عهد المماليك في مصر ، وانتقالها إلى غير العرب وهم الأتراك العثمانيون ، حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، وانتهزام تركيا ، وقيام مصطفى كمال باشا ، والغاؤه الخلافة رسماً في آذار سنة ١٩٢٤ م .

وإذا كان الخلفاء الراشدون أشبه برؤساء الجمهورية من حيث طريقة انتخائهم الشورية ، فإن سلطتهم كانت تتعدى سلطة رؤساء الجمهورية بعناها الحديث ، إذ كانوا خلفاء النبي يجمعون كلتي السلطتين الدينية والمدنية ، ويدهم جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والإدارية ، يعينون مساعديهم والموظفين ، ولهم الحق في قبول رأي مجلس الشورى أو عدم التقيد به ، أما الأمويون فقد حولوا الخلافة إلى ملكية وراثية ، وبالرغم من سيرهم على سياسة معينة وهي اعتمادهم على العنصر العربي وعلى الاحتفاظ بعروشهم بجميع الوسائل ، واستخدام بيت المال والوظائف الإدارية ، والقتل والتهديد والحروب والضرب على كل من تحدّثه نفسه في منازعتهم السلطات ، فلمنهم

قد تركوا لبعض ولايتهم صلاحيات واسعة في إدارة ولاياتهم ، كما فعل معاوية إذ أعطى ولاية مصر لعمر بن العاص ، و هب خراجها طيلة حياته ، كما أعطي زياد بن أبيه وابنه عبيد الله الحجاج سلطات واسعة أيضاً ، وما انتقلت الخلافة إلى العصر العباسي حتى أصبح الخليفة يحكم بحق مقدس ، وعاد إلى جمع السلطات كلها بيده ، وانتقم لذلك العباسيون الأوائل من كل من أوجسوا منه خيفة كأبي سلمة الخلال ، وأبي مسلم الخراساني ، والبرامكة ولما ضعف أمر الخلفاء العباسيين في الدور العباسي الثاني والأخير ، واستقلت كثير من الدويلات بإدارة شؤونها ، بقي أمراء هذه الدويلات يعترفون بسلطان الخليفة الديني ، ويرسلون إليه الهدايا والأموال مقابل اعتراف الخليفة الشرعي لهم بأماره ما استحوذوا عليه ، ونجد أن بعض المتنفذين وخاصة أمراء الأمراء ، والسلاجقة والبويهيين والأتراك من قبلهم ، قد كانوا يضغطون على كثير من الخلفاء ، بل يسومونهم سوء العذاب ، بسمل أعينهم أو تقطيع ألسنتهم ، أو وضعهم في قيط الشمس دون طعام أو شراب حتى يموتون ، دون أن يجسروا على إلغاء الخلافة أو تحويلها إليهم وهم من غير العرب ؛ بما يدلنا على تطور سلطة الخليفة وكيف أصبحت دينية مجتة وليست سياسية ، أي أن الخليفة أصبح يتولى هذا المنصب ، ولا يشرف أبداً على أمور الدولة السياسية وإنما يوافق على تعيين أكبر رجال الدولة ، ويرسل الخلع وسارات الأماره ، كما أن قيام الخلافة الفاطمية بمصر وجنوبي الشام ، والخلافة الأموية بالاندلس إلى جانب خلافة بغداد ، وكل خلافة تدعي أنها الشرعية في العالم الاسلامي ، وما عداها متعده عليها ؛ يدلنا على ذلك كثير من الوثائق التي تبودلت بين الخلفاء العباسية والفاطمية في ادعاء أحقيته بالخلافة ، وكل يدعي نسه برسول الله ، وإنه يجب أن يرث ولاية المسلمين وخلافتهم



كما بدلنا على ذلك الحروب التي نشأت بين الفاطميين والأمويين ، في الأندلس مثلاً ، أو محاولات العباسيين للقضاء على خلافة الأندلس الأموية واتفاقهم ، مع شارلمان أو غيره من ملوك الفرنجة في سبيل محاربة الخلافة الأموية في الأندلس .

أما في العصر العثماني ، فلقد فضل السلاطين أن يتلقبوا بلقب « خادم الحرمين الشريفين » ، لما في ذلك من شرف لهم وبأنهم يمثلون الزعامة الدينية في البلاد الإسلامية إلى جانب الزعامة العسكرية التي أخذوها بقوة الفتح ؛ ولقد أخذوا لقب الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين الذي كان يقيم في القاهرة ، في العصر المملوكي ، وليس له إلا وظيفة الرئيس الديني ، الذي يتزوج أو يوافق علي مركز السلاطين الممالك ، هذا وإن اختلفت الآراء في أنه هل كان السلطان سليم الأول الذي فتح سوريا ومصر هو أول من تلقب بلقب خليفة المسلمين أو أن ابنه السلطان سليمان هو أول من تلقب بهذا اللقب ، فإنه بما لا شك فيه أن سلاطين آل عثمان وقد كانوا أقوياء ، كانوا يجمعون جميع السلطات العليا بأيديهم ، وكانت إرادتهم هي القانون النافذ في جميع البلاد التي تخضع لهم ، ولما ضعف أمرهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذوا يستغلون كلمة ( خليفة المسلمين ) في غايتهم السياسية ليظهروا أمام الدول الأوروبية بأنهم زعماء البلاد الإسلامية لا التي تخضع لهم فحسب ، بل الخاضعة لغيرهم من الأمم المستقلة ، وأخص من استفاد من هذا اللقب هو السلطان عبد الحميد ، الذي دعا إلى جامعة إسلامية ليكسب عطف الشعوب الإسلامية في الهند واندونيسيا والبلقانات وليظهر أمام أوروبا بظهر القوي ، وبعد سقوط عبد الحميد ، حددت سلطة الخليفة أو السلطان العثماني بالوظيفة الدينية وسلب كل سلطة سياسية ، حتى كانت جمهورية مصطفى كمال والغاء الخلافة رسمياً ، ولا يزال بعض المسلمين

يفكرون بضرورة إحياء الخلافة ، كمرکز ديني لا سياسي ، ولكن لم يزل الخلاف حول من يتولى هذا المنصب الجليل .

**القاب الخليفة :** لقب أبو بكر بخليفة رسول الله ، ولما ولي عمر ، ارادوا تلقيه بخليفة خليفة رسول الله ، فاستقل ذلك على اللفظ ، ولقبوه بأمر المؤمنين بمعنى أنه أمير ، أي قائد المؤمنين ويجمع السلطين الحربية والادارية ، ثم أطلق عليه وعلى من أتى خلفه لقب خليفة فقط ، وأراد بعضهم أن يطلق عليه اسم الامام ، وخاصة الشيعة ، بمعنى إمامة المسلمين في الصلاة والأمور الدينية ، وفرقوا بين الامام والخليفة ، وكان للشيعة أئمة خاصون مع وجود الخلاف بين الأموية والعباسية ، حتى إذا استطاعوا تأسيس الدولة الفاطمية ، جمع خليفتهم اللقبين في شخصه .

وقد اتخذ الخلفاء المسلمون القاباً بجانب اسمائهم ، ولم يسم بذلك الامويون بقدر العباسيين ، ويروي القلقشندي نقلاً عن ابن حزم أن لقب معاوية الناصر لحق الله ، ولقب مروان بن محمد القائم بحق الله ، وتذكر مصادر أخرى أن لقب عمر بن عبد العزيز المهدي كما لقب الناس الخليفة هشاماً بالأحول ، ومروان بن محمد بالجعد والحمار ، وي زيد الثالث الاموي الناقص . . .

ولما قامت دولة بني العباس ، و ارادت ان تحكم على اساس ديني ، وتبنت فكرة (الحق الالهي المقدس) ، عمل خلفاؤها على تثبيت هذه الفكرة بالقاب غلب على اسمائهم ، واول خليفة عباسي هو ابو العباس الذي لقب بالسفاح ، ويظهر انه كان يقصد به الكرم والسخاء ، لا التقتيل والمجازر او كلا المعنيين معاً . وقد استعمله ابو العباس في خطبته لاهل الكوفة فقال : « انا السفاح الميع » ، وذلك في صدد وعدم بالعطاء الكثير والسخاء

الوفير، ولم يكن في معرض توعدهم بالقتل والتشريد وان كانت سيرته فيما بعد اثبتت انه لسفاح بمعنى قاتل أو جزار.

وانخذ الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر لقب المنصور بعد قضائه على الثورتين العلويتين في عهده: ثورة الحجاز بقيادة محمد النفس الزكية (المهدي العلوي) وثورة البصرة بقيادة ابراهيم بن عبيد الله المحض. ويرى فان فلوتن ان القصد من اتخاذ هذا اللقب يعني انه «الشخص الذي اعانه الله تعالى على احراز النصر».

وانخذ الخليفة الثالث محمد بن عبد الله لقب المهدي وقدلقبه اخوه المنصور بهذا اللقب وذلك لاعلاء شأنه في نظر الرعية. . . وهكذا تعاقبت الالقب مثل: الهادي والرشد وكلها القاب تضي على الخلفاء العباسيين الاوائل معنى القوة والسلطة الالهية. . . بينما تحولت الالقب مع ضعف الخلفاء الى: المتوكل على الله، والمعتمد بالله، المستنصر بالله، المستعين بالله وغيرها ممن يعتمدون على نصر الله وتأييده.

وفي العهود الاخرى في محاولات انقاذ العالم الاسلامي من الخطر الذي يتهده عادت الالقب الى صيغة جديدة.. الناصر لدين الله أو (خادم) او (حامي) الحرمين الشريفين.

**الشورى:** اعتمد الخلفاء الراشدون على الشورى في البت في الامور الهامة وحل المشاكل العامة، وكانت الشورى على نوعين: جماعة من كبار الصحابة يعتمدهم الخليفة ويستشيروهم فيما يعرض له من أمر، قبل البت فيه، وعامة اهل المدينة وزعماء الوافدين اليها، كما فعل عمر، حين كان يأمر المنادي ان ينادي «الصلاة جامعة»، وبعد الصلاة يخطب عمر بالمصلين ويعرض عليهم الموضوع الذي يريد ان يعرف فيه رأي سواد الناس، وبما روي عن عمر انه خطب مرة وقال: «اني لم ازعجكم الا لان تشركوا معي

فما حملت من اموركم ، فاني واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نظقت بأمر اريده . ما اريده الا الحق .

وبما يروى انه بهذه الطريقة فصل في عدة مسائل خطيرة ، كان ذلك ، حين اثبت مسألة قسمة اراضي الشام بالعراق بين الجند المحاربين ، ومانع عمر ، فقد استغرق الجدل فيها عدة ايام ، وحين عزم عمر بعد نهاوند قيادة الجيش بنفسه فعارضه عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر في مجاله هذه في المسجد قد حلّ قضايا رواتب المجاهدين وانشاء الوظائف والدواوين وتعيين العمال وبعض قادة الجيوش .. ويروى ان عمر قال : لا خلافة بدون شورى . ومع تطور الدول الاسلامية نظم امر الشورى واصبح ركناً جوهرياً يرتكز عليه نظام الحكم .

**شروط الخلافة وصفات الخليفة :** لقد أورد بعض المؤرخين كاللأوردني والبيروني وابن خلدون ضرورة توفر صفات في الخليفة والا فالمسلمون في حل من الخضوع له . لذلك نجد أنه في العهد العثماني استفاد البعض من أفراد الاسرة المالكة والسياسيين من ضعف بعض الخلفاء فاستصدروا فتوى من شيخ الاسلام بخلعهم وإقامة غيرهم .

وهذه الصفات هي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي .

**١- العلم :** أي أن يكون عالماً بشئون الدين والاحكام الشرعية . ويقول ابن خلدون « ولا يكفي من العلم الا أن يكون مجتهداً ، لان التقليد نقض ، والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف والاحوال » .

٢ - العدالة : أي أن يكون مستقيماً متجنباً للمعاصي معروفاً بحسن السيرة والأخلاق الحميدة بين الناس .

٣ - الكفاية أي قادراً على حماية الحدود بصيراً بالحروب ، كفيلاً بحمل الناس عليها قوياً على معاناة السبابة ، كفيلاً على حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح .

٤ - سلامة الحواس والأعضاء : أي أن يكون سليماً من الجنون والعمى والصمم والحرس وما يؤثر ففقه من الأعضاء على العمل كفقده اليدين والرجلين .

٥ - النسب القرشي : وقد أجمع عليه الصحابة يوم السقيفة معتمدين لحديث « الأئمة من قريش » . ولكن بعد تسلط الأعاجم على الخلفاء شك كثير من المحققين والفقهاء في هذا الشرط حتى ذهبوا إلى نفيه . وعولوا في ذلك على أحاديث أخرى كالتي تقول : « اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي »

ولابن خلدون رأي خاص هو أن يكون الخليفة من أصحاب العصية أما كانت جنسية . وبما أن الغلبة والنفوذ كانتا لقريش بعد وفاة النبي ﷺ من الضروري أن تكون الخلافة فيهم وقتئذ .

ولاية العهد : يقول ابن خلدون : وبما أن الخليفة هو الناظر في مصالح الأمة الدينية والدنيوية وهو وليها والأمين عليها وقد منحه ثقته فانه من متمات مهمته أن يؤمن مصلحة المسلمين بعد وفاته ، وأن يعين لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها . ، وقد جرى ذلك في عهد الراشدين بشكل شوري فقد عهد أبو بكر لعمر من بعده بمحض من الصحابة الذين أجازوه وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر . وكذلك عهد عمر إلى سبعة أشخاص أمر اختيار خليفة من بينهم ، على أن يستثنى ابنه عبد الله فينتخب ولا ينتخب . فتركزت

الآراء على عثمان وعلي . فعلم عثمان وبعد مقتله تولى الخلافة علي . وهذه الطريقة أبدعها كثير من المؤرخين والناقدین لأنها تجمع بين الجمهورية والملكية المطلقة والشورى . فهي جمهورية لأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لأن الانتخاب كان بالشورى ؛ وهي ملكية مطلقة لأن الخليفة كان مطلق التصرف .

ثم لما آلت الخلافة إلى الامويين والعباسيين وأصبحت إرثية كانت الخلفاء يبيعون لأولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوي قرابتهم . وقد أيد ابن خلدون ذلك التغيير الذي جرى في تعيين ولي العهد بين عهد الراشدين والعهد الاموي والعباسي إذ يقول : ان بعض الخلفاء كانوا يتعرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وتسلطان من بني أمية ، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ؛ ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك ... لأن العصية قد أشرفت على غايتها من الملك ، والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني ... .

وكان الخلفاء إذا رأوا غير واحد من أولادهم أو اخوتهم أهلاً للخلافة يبيعوا لاحدهم ، وشرطوا أن يخلفه فلان ، أو فلان كما فعل يزيد بن عبد الملك لما بايع أخاه هشاماً على أن يخلفه ابنه الوليد الذي كان صغير السن . كما كان الخلفاء يعرضون عزمهم في تعيين خلفهم على أهل الرأي كما فعل المنصور لما أراد البيعة لابنه المهدي وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقام الخطباء فتكلموا ، وقامت الشعراء فاكثر في وصف المهدي فرجحت بذلك كفته .

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ، ويختتمه بخاتمه وخواتم

اهل بيته ويحفظ في مكان أمين في خزانة او مسجد او في الكعبة كما فعل الرشيد . كما انه يدعى لولي العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة .

**البيعة :** البيعة هي العهد على الطاعة فاذا بايع الرجل اميراً كأنه عاهده وسلم اليه النظر في امر نفسه لا يخالفه في شيء ؛ وكان العرب اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري . وصارت البيعة مصافحة الايدي وهو مدلولها بعرف اللغة .

واقدم بيعة في الاسلام بيعة الانصار للنبي ﷺ بالعقبة قالوا : « يا رسول الله انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك في ذمامنا نمنعك مما تمنع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا » .

ولما يبايع الخليفة يأتون له بموكب الخلافة ، وهي افراس مسرجة ، ولكل دابة سائس ، بالابسة الفاخرة ، فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة وبشي بين يديه رجل يحمل حربة . وبضف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينها الى دار الحكومة . ثم يرد عليه وفود المهنيين وكانت العادة أن يبدأ كبار الدولة بالمبايعة ثم من يليهم من أصحاب المناصب . وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة قادة الجيش وقضاة بغداد في كثير من المرات .

وكان العرب يميلون في المبايعة الى الاختصار ، وكانت البيعة تتلى شفهاً ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت تتألف من كلمات فصارت صفحات كثيرة بما ادخل فيها من الحشو والاطناب .

**علامات الخلافة :** وهي ثلاثة أشياء : **البردة** **والخاتم** **والقضية** **توارثها** الخلفاء عن الرسول عليه السلام . وكان الخليفة الجديد يستلمها من القديم ويورثها لمن بعده .

١- **البردة :** هي بردة النبي ﷺ التي خلعها على الشاعر كعب بن

زهير لما رجع إلى النبي ثانياً مستغفراً ومدحه بقصيدته المشهورة « بانت  
سعاد فقلبي اليوم متبول » وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها  
معاوية أثناء خلافته (اربعين الف درهم) وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون<sup>(١)</sup>.

٢- **الخاتم** اتخذ الخلفاء تشبهاً بالنبي، وقد استعمل النبي الخاتم لما  
كتب إلى قيصر وكسرى يدعوهم إلى الاسلام. وخاتمه من فضة نقش  
عليه « محمد رسول الله » كل كلمة بسطر. وانتقل هذا الخاتم إلى ابي بكر  
ثم إلى عمر وعثمان. ويقول البخاري أنه سقط من يد عثمان في بئر ولم يعثر  
عليه، فاغتم عثمان وتطير من ذلك وصنع آخر على مثاله.

وكان كل من ولي الخلافة بعده يصنع له خاتماً. ولم يكن الخلفاء  
ينقشون على خواتمهم اسماءهم بل عبارات فيها مواظ وحكم مثل « على الله  
توكلت » و « اعتمادي على الله وهو حسي » الخ...

ولما نشأت السلطانات، جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة  
وسموا الطغراء، وهي نقشة فيها ألقاب الملك وسميت كذلك نسبة إلى  
الحسين ابي اسماعيل الطغراني وزير السلطان مسعود السلجوقي وكان خطه  
جيلاً ويقال أنه أول من كتبها.

٣- **القضيب**: هو ثالث علامات الخلافة. لم يشرح المؤرخون المقصود  
منه لعله قضيب النبي ﷺ توارثه الخلفاء أو قلده في حمله.

**شارات الخلافة**: وهو أيضاً: الخطبة والسكة والطرز.  
١- **الخطبة**: ويقصد بها الدعاء للخليفة على المنابر في جميع مساجد البلاد  
التابعة له. ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو  
الامراء يشاركون الخلفاء فيذكرون اسماءهم بعدهم. وكان أحياناً يستقلون  
في الدعاء لأنفسهم.

(١) يروي العباسيون قصة طويلة عن وصول البردة والخاتم والقضيب  
اليهم من الامويين، لم تؤكد هذه الرواية من جمهرة المؤرخين.



٢ - السكة : وهي أن يضرب اسم الخليفة على النقود المتعامل بها بين الناس ، وكان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالنقود الفارسية والرومية وغيرها من بانية ونبطية وتدمرية الخ . . ثم لما جاء الاسلام ضرب الخلفاء والأمراء النقود مشتوكة بينهم وبين الروم والفرس . كما فعل خالد وعمر ومعاوية وعبد الله بن الزبير . ولما آلت الخلافة الى عبد الملك اراد تغيير الطراز الذي يستورد من بلاد الروم فهدده ملكها بان ينقش على دنانيره شتم النبي . فعظم هذا الأمر على عبد الملك فأمر بضرب النقود وهدد بالقتل من يتعامل بغيرها . وكانت الآلة التي تستعمل لضرب النقود تسمى السكة .

٢ - الطراز : وهو قديم في الدول في عصر الروم والفرس . وذلك ان يرسم الملوك اسماء او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة للباسهم ، وكان ملوك العجم يجعلون ذلك الطراز بصورة الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة . وقد اعتاض الخلفاء عن ذلك بكتابة أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى القول أو الدعاء . وكان هناك طراز خاص وأشكال معينة لثياب الخليفة ولموظفي البلاط والأمراء والقواد .

تعدد الخلافة - ضعفها وزوالها : بقيت الخلافة محتفظة بسلطانها وقوتها في عهد الراشدين والامويين وأول عهد العباسيين . ثم بدأ ضعف الخلفاء لتسلط الاعاجم عليهم من ترك وسلاجقة وبويهيين وغيرهم بسوء العذاب من خلع وقتل وتمثيل . واقتصرت سلطة الخليفة في عهود الضعف على الامور الدينية فقط .

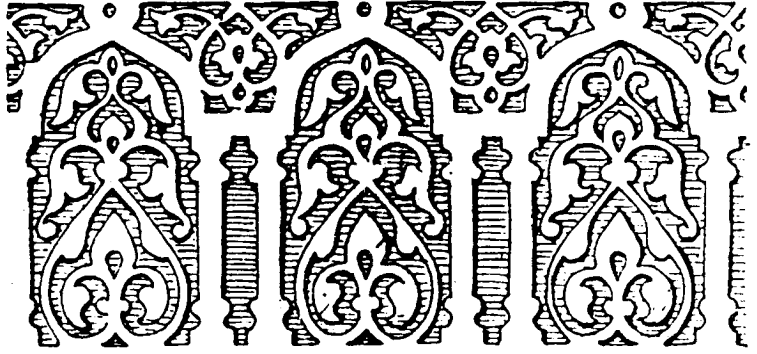
كما أن العالم الاسلامي قد تجزأ وزالت وحدته . فالاندلس استقلت وتأسست خلافة أموية فيها . وكذلك نشأت خلافة فاطمية في المغرب ومصر . هذا الى جانب الخلافة العباسية في بغداد . وبذا أصبح هنالك ثلاثة خلفاء في وقت واحد .

يضاف الى ذلك انه في منتصف القرن الرابع الهجري اتخذ حاكم سجلماسة لقب أمير المؤمنين . كما ان عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في بلاد المغرب اتخذ لقب خليفة و أمير المؤمنين . واخيراً لما سقطت الدولة العباسية ٦٥٦ هـ استقدم الظاهر بيبرس أحد افراد الاسرة العباسية الذين نجوا من المغول وهو الامام احمد بن الخليفة الظاهر . وعقد بيبرس مجلساً من كبار رجال الدولة وبايعوه بالخلافة ولقبوه « المستنصر بالله » وذلك ليقوي بيبرس مركزه في العالم الاسلامي ضد منافسيه .

وجملة القول انه بزوال الخلافة العباسية في بغداد ، اختل نظام الخلافة واصبح في مقدرة كل امير قوي ان يتخذ لنفسه لقب خليفة ، كما حصل في فارس وما وراء النهر - ومصر وتونس ومراكش . وهذا التعدد في نظام الخلافة اصبحت كلمة خليفة لاتدل على الرجل الروحي المتسلط على العالم الاسلامي ، وانما اصبحت تدل على مجرد حاكم .

ثم لما فتح السلطان سليم الشام ومصر ( ١٥١٧ م ) استولى على الخلافة كما يذكر بعض الكتاب من المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس الذي تنازل له عنها . الا ان معظم المؤرخين يميلون الى الشك بصحة هذا الخبر لاسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن . وبعد ان اعلنت الجمهورية برئاسة مصطفى كمال فصلت السلطة السياسية عن الدينية ثم الغيت الخلافة رسمياً سنة ١٩٢٤ م .





## الفصل الثالث

### الوزارة

تعريف الوزارة : يقول الماوردي في « ادب الوزير » الوزارة اسمها مشتق من معناها ، واختلف فيه على ثلاثة أوجه :

- ١ - من الوزر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله
- ٢ - من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره .
- ٣ - من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى « كلا لا وزر » أي لا ملجأ ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته .

وقد عرف لنا هارون الرشيد الوزير لما عين مجبى بن خالد وزيراً له أنه « نائب مفوض بحكم البلاد كلها باسم الخليفة » . وقد اطلقت يده في التولية والعزل والعطاء والحرمان لا يشاركه في ذلك أحد .

وقد وردت كلمة وزير في موضعين من القرآن . في سورة طه حيث يخاطب موسى ربه قائلاً : « ... رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ،

اشدد به أزرى واشركه في أمري ، وفي سورة الفرقان : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيراً . » .

**الوزارة قبل العصر العباسي :** ليست الوزارة من مستحدثات الاسلام ، فقد عرفها بنو امرائيل والساسانيون الفرس وربما غيرهم . وإذا أريد بالوزارة المساعدة والمعاونة والاستشارة فإنها عرفت لدى معظم الدول المنظمة ، فإن ملوك العرب قبل الاسلام في اليمن والحيرة والشام كانوا يسمون من يؤازرهم أعباء الملك (الراهن) لأنه مرتين بالتدبير . (والزعيم) لأنه زعيم بصواب الرأي . و (الكافي) لأنه يكفي الملك مهات الأمور . و (الكامل) لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل .

وفي صدر الاسلام كان النبي ﷺ يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهاته العامة والخاصة ، ويخص أبا بكر بمخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين خالطوا الفرس والروم والأحباش يسمون أبا بكر وزيره . ويقول بعض المؤرخين أن الوزارة ظهرت مع الخلافة فكان عمر وزيراً لأبي بكر وكذلك علي وعثمان مع عمر ومروان بن الحكم مع عثمان .

ولما انتقلت الخلافة إلى الأمويين وجعلوها إرثية تعتمد على السياسة والدهاء احتاجوا إلى من يستشيرونهم ويستعينونهم في شؤون القبائل وتدبير أمور الدولة بعد أن تطورت بالنسبة لما كانت زمن الراشدين . فاستغنموا أناساً لذلك يقومون بعمل الوزراء ولكن لم يطلق عليهم هذا اللقب . إلا أن بعض المؤرخين يقولون عن (زياد بن أبيه) وعمر بن العاص أنها وزيرا معاوية . ويذكر المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف : أن بني أمة كانت تنكر أن مخاطب كاتباً لها بالوزارة وتقول : الوزير مشتق من الوزارة . والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة .

**الوزارة زمن العباسيين :** قال ابن طباطبا أحد الذين ارخوا في الوزارة . والوزارة لم تتمد قواعدها وتتقر قوانينها إلا في دولة بني العباس . فاما

قبل ذلك فقد كان الملوك يستشيرون ذوي الحجا والآراء الصائبة من اتباعهم وحاشيتهم فكان الواحد منهم يجري مجرى الوزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً .

وعمل كثير من المؤرخين إلى القول بأن العباسيين قلدوا الفرس واخلدوا عنهم بعض نظم حكمهم ومنها الوزارة وما يترب عنها ، وقد تناقل المؤرخون هذا القول حتى أصبح كأنه حقيقة ثابتة لا جدال فيها .

ولكن إذا نظرنا إلى سنة تطور الدول ونظام رقيها نرى أن العرب كانت قد مضى على تأسيسهم دولتهم الكبرى مدة طويلة وانتشر نفوذهم وتنظمت حكوماتهم كما تنظمت غيرها من الدول بفعل الزمن وقوانين التطور . والدولة العربية كانت واسعة الأرجاء بعيدة الحدود لا يستطيع الخليفة أن يقوم وحده بأمور السياسة والإدارة كلها ، فلا بد له من الاستعانة برجال آخرين يؤازرونه ويشاركونه ويسمون باسماء مختلفة . وقد عرف العرب ذلك قبل الاسلام وبعده . (وقديماً قالوا : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعيان . فمن جرى الحوادث التاريخية نلاحظ أن العرب عرفوا منصب الوزير كما نلاحظ أيضاً أن علماء اللغة القدامى جعلوا كلمة الوزارة عربية كما مر معنا . نضيف إلى ذلك أن الكلمة وردت في القرآن . كما استعملها أبو بكر في اجتماع السقيفة لما خاطب الأنصار : نحن الأمراء وأنتم الوزراء .

كان أبو سلمة الخلال أول من دعي بالوزير في دولة بني العباس . وقد اغتاله السفاح ؛ ثم استوزر أبا الجهم ومن بعده خالد بن برمك جد البرامكة

الذين نبغوا وسما نفوذهم في الدولة حتى قضى عليهم الرشيد ، وجرى جميع الخلفاء العباسيين هذا المجرى من اتخاذ الوزراء والاعوان .

ووصف المأمون الوزير الذي يرغب أن يستوزره بقوله : « إني التمت لاموري رجلاً جامعاً لحصال الخير ، ذا عفة في خلانقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، واحكمته التجارب » ، إن أوثمن على الامرار قام بها ، وإن قلد مهبات الأمور نهض فيها ، بسكته الحلم وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللحظة ، له صولة الامراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء . إن حسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالاساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بجرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه ، وقد جمع أحد الشعراء الصفات التي يجب أن يتحلى بها الوزير بقوله :

بديته وفكرته سواء      إذا اشتبهت على الحال الأمور  
واحزم ما يكون الدهر يوماً      إذا أعيأ المشاور والمشير  
وصدر فيه لهم انشاع      إذا خافت من المم الصدر

نوعاً الوزارة : يقسم علماء التشريع الاسلامي كالماوردي وغيره الوزارة في العهد العباسي إلى نوعين :

١ - وزارة التفويض      ٢ - وزارة التنفيذ .

١ - وزارة التفويض : يرأسها شخص يفوض إليه الخليفة تدبير الأمور برأيه ، وامضاً على اجتهاده دون الرجوع إليه . ومن أشهر وزراء التفويض : جعفر البرمكي وزير الرشيد والفضل بن سهل وزير المأمون ، فسلطة التفويض إذا مطلقة شبيهة بسلطة الخليفة إلا في ثلاثة أمور :

١ - ولاية العهد : فالخليفة يولي ولياً للعهد ولا يجوز ذلك للوزير .

ب - الاستعفاء : أي ان الخليفة يستعفي الأمة من الخلافة ولا يجوز للوزير أن يستقبل .

ج - العزل : أي للخليفة أن يعزل من عينه الوزير وليس للوزير أن يعزل من عينه الخليفة .

٢ - وزارة التنفيذ : يرأسها شخص لا يحق له تدبير الأمور باجتهاده .  
وانما يكون عمله قاصراً على تنفيذ أوامر الخليفة . وهو واسطة بين الخليفة وبين الرعية . فيقوم بما يأمره الخليفة به من تعيين الولاة وتجهيز الجيوش وإدارة شؤون الدولة .

الفرق بين الوزارتين : ذكر الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية الفرق بين الوزارتين وجعلها بأربع نقاط يجوز لوزير التفويض القيام بها وليس لوزير التنفيذ مثلها .

١ - مباشرة الحرب والنظر في المظالم .

٢ - الاجتداد في تقليد الولاة .

٣ - الانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب .

٤ - التصرف في أموال بيت المال .

كما أنه يمكن إضافة فرق خامس وهو أنه يجب أن يكون وزير التفويض واحداً ، بينما يجوز أن يكون وزيران للتنفيذ .

شروط وزير التفويض : يستوجب الماوردي من وزير التفويض أن يكون جامعاً للشروط المطلوبة في الخليفة ينقص عنه في واحدة وهي

النسب . ويزيد في واحدة وهي المعرفة بأمرى الحوك) والخراج لياشرهما بنفسه أو يختار من يباشرونها تحت إشرافه .

شروط وزير التنفيذ : لا يشترط فيه أن يكون حراً ولا عالماً لأنه ليس له أن يفرد بعمل . وبراى فيه ثمانية شروط وهي :

- ١ - الامانة . ٢ - صدق اللهجة . ٣ - أقله الطمع . ٤ - بعيداً عن عداوة الناس . ٥ - ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة . ٦ - الذكاء والفتنة . ٧ - ألا يكون من أهل الاهواء . ٨ - الحنكة والتجربة إذا كان بما يحتاج الخليفة إلى رأيه ومشورته .

عدد الوزراء : يقول الماوردي : إنه يجب ألا يكون في الدولة الا وزير واحد للتفويض ويجوز أن يكون اثنان للتنفيذ كما مر معنا ، ولم يعرف تعدد الوزراء إلا في أواخر العهد العباسي زمن عضد الدولة . ويقول آدم متز : ... أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة شيئ لم يكونا قبله . أولها اتخذ وزيرين معاً ، والثاني أن أحد هذين الوزيرين وهو ابن منصور نصر بن هارون كان نصرانياً أبقاه الخليفة في بلاد فارس وطنه وأخذ الوزير الثاني معه إلى بغداد . ولما جاء بهاء الدولة جرى على طريقة أبيه فعين وزيرين .

وإذا وجد وزيران في وقت واحد يجب حسب رأي الماوردي ألا ينفذ لهما أمر إلا حين يجتمعان على رأي واحد . إذا انفرد أحدهما برأي فلا يؤخذ به وإذا اختلفا في شيء رُدَّ إلى الخليفة فنفذ فيه حكمه . ولا ضرر من أن يختص كل وزير بعمل معين أو بلاد معينة . كأن يكون أحدهما



للمغرب ، والآخر على الحراج ، او احدهما لبلاد المشرق ، والآخر لبلاد المغرب .

ولما جاء السلاجقة جعلوا لأنفسهم وزيراً وللخليفة وزيراً . وكان وزير الخليفة ضعيف الأمر .

بينما أوجد الترك الذين سيطروا على شرق الدولة العباسية أيام ضعفها وظيفة الدوبدار ، وهي وظيفة محصورة في استتباع كاتب السرو صاحب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالخاضرة كما يقول ابن خلدون في مقدمته . وكان من وظائفه أيضاً الوقوف في مجلس السلطان أو التقدم بين يديه بالوفود ، وتقديم التحية ...

سلطة الوزير : لقد ذكرنا بصورة مجملة سلطة وزيرى التفويض والتنفيذ . ولكننا اذا أخذنا بعين الاعتبار حالة الدولة في أدوار قوتها وضعفها ومكانة الخلفاء ومدى نفوذهم نجد أن سلطة الوزير كانت تتأثر إلى حد بعيد بقوة الخلفاء وضعفهم .

ففي العصر العباسي الأول كانت سلطة الخلفاء قوية حتى أن الوزراء كانوا يخافون على أنفسهم من بطشهم . ويبدو هذا الخوف في أنهم كانوا يتجنبون أن يطلق عليهم اسم وزير بعد مقتل أبي سلمة الخلال وأبي الجهم الذي سمى المنصور ، فلما أحس أبو الجهم بالسم قام لينصرف فقال له المنصور إلى أين ؟ قال : إلى حيث بعثني يا أمير المؤمنين :

أسوأ العالمين حالاً لديهم من نسمى بكتاب أو وزير<sup>(١)</sup>

---

(١) من قصيدة للشاعر ابن حبيب الكوفي .

ثم استوزر المنصور عدداً من كبار الشخصيات كان نصيب البعض منهم القتل ونصيب الآخرين العزل . فالوزراء في عهده لم يكن لهم شأن كبير لاستبداده واستغنائهم برأيه وكفاءته .

أما في عهد الرشيد فقد بلغ نفوذ الوزير منتهاه . وقد قال الرشيد ليجي بن خالد البرمكي لما اتخذته وزيراً له « اني قدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك ما ترى من الصواب واستعمل من رأيت وامنض الأمور على ما ترى » ثم دفع إليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد في كل شؤون الدولة . ولكن الرشيد ماعتم أن نكب البرامكة لما رأى ازدياد سلطانهم واتساع نفوذهم .

ثم في الأدوار التالية لما ضعف شأن الخلفاء ازداد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة على الوزارة وتقشى الدس والرشوة . وإذا أظهر أحدهم استعداداً لشراء هذا المنصب يدفع مبلغاً كبيراً من المال للخليفة . ثم يرجع ويسترده من أي وجه بعد توليته .

وبلغت الوزارة في مطلع القرن الرابع أي زمن المقتدر في عهد ابن الفرات شأواً بعيداً من حيث الابهة والنفوذ وكثرة المال . حتى قال أحد المؤرخين : ما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والاثاث ما يحيط بعشرة آلاف الف غير ابن الفرات . وقد ظهر بظهر الفخامة التامة فكان يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم . وكان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم بهوى ما يصلحهم به متفرقاً وعند مدحهم إياه . وكان فيمن يدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتاب هم خاصة كتابه

وكان منهم اربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين .

وفي أسباب تطور نفوذ الوزارة يقول ابن خلدون : « ولما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وضيف إليه النظر فيه ، ثم بشرح ابن خلدون كيف تطورت سلطة الوزير وجعل له النظر في المكاتبات لمعرفته بأهوار الخليفة . فصار اسم الوزير جامعاً لحطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان في أيام الرشيد ، وذلك اشارة إلى عموم نظره ، وقيامه بالدولة .

**ضعف شأن الوزارة :** أخذت سلطة الوزير منذ القرن الرابع تتسع أو تقلص حسب حالة الدولة وموقف الخليفة . إلا أنها كانت تضعف وتساء بما دعا الخلفاء إلى تبديل الوزراء وتغييرهم إلى أن انتهى الأمر في عهد الرازي إلى سيطرة امراء الامراء على الحكم مباشرة كما سيرر معنا فكانوا يعزلون ويولون وينظرون في جميع الامور ، وليس للوزراء من سلطة سوى الاسم . ثم في عهد المستكفي دخل امراء بني بويه ببغداد وحجروا على الخلفاء فلم يعد هؤلاء يستوزرون وإنما كانت تولية الوزراء لبني بويه

**القاب الوزراء ورواتبهم :** لم يكن للوزراء في العهد العباسي الأول القاب يضيفونها إلى لقب الوزارة وينفردون بها . إنما نجد في المصادر أن جعفر

ابن يحيى البرمكي قد دعي بالسلطان اشارة إلى اتساع نفوذه واستلامه كل مقدرات الدولة .

ولعل المهدي هو أول من أطلق على وزيره لقباً ولكن دون أن يشتهر به . فقد لقب وزيره يعقوب بن داود الاخ في الله . وجاء المأمون فلقب وزيره الفضل بن سهل ذا الكفايتين ولقب الحسن بن سهل ذا الرباستين لأنه جمع له بين السيف والقلم .

وفي أواخر العهد العباسي وفي زمن الدولة الفاطمية ظهرت الألقاب الفخمة . وأول من لقب بالألقاب الكثيرة وزير جلال الدولة ( ٤١٦ ) هـ . إذ لقبه سعد الدولة وأمين الملة وشرف الملك . كما لقب المسترشد ( ٥١٣ ) هـ أحد وزرائه بهذه الألقاب جلال الدين وسيد الوزراء وصير الشرق والغرب وظهر امير المؤمنين . ولكن المسترشد قبض عليه وعزله لان وزير السلطان السلجوقي كان محبداً عليه .

ورغم ان وزراء الفاطميين لم تكن سلطتهم تتحدى سلطة وزير التنفيذ فان الخلفاء اطلقوا عليهم القبايا فخمة مثل : ظهر الامة وخليل امير المؤمنين . رواتب الوزراء : كانت الرواتب تختلف باختلاف العصور والاشخاص . ونحن نجعل قيمة رواتب الوزراء في أوائل الحكم العباسي . ويبدو أنها كانت غير محدودة وتتألف من الهبات الكبيرة والهدايا النفيسة والضياع والخلع . ولا نعلم متى بدأ الخلفاء بمخصصون رواتب لوزرائهم . انما تذكر المصادر ان المقتدر بالله العباسي فرض لوزيره علي بن عيسى ( ٥٠٠٠ ) دينار في الشهر . هذا الى ما كان يعطى من الرواتب لاهل الوزراء ولاخوتهم واولادهم وحواشيهم .

واقعد جاء وقت كان فيه الوزراء يضمنون واردات الدولة ضمانة ،

فيتصرفون بما يفيض عن مبلغ الضمان ويصيبون ثروة عظيمة من الرشوات والمصادرات والهدايا ونحوها . وقد ذكر المؤرخون ان ابن الفرات وزير المقتدر اكل من اموال المصادرات اكثر من مليون دينار في حادثة واحدة . ولما عزل صودر من امواله مليون وستائة الف دينار سوى الاثاث والعقار والضباع وغير ذلك .

أما مخصصات الوزير الشهرية في العهد الفاطمي وما يلحقه من رواتب اهله واتباعه كانت على النحو التالي :

الوزير (٥٠٠) دينار . ولكل واحد من أبنائه واخوته (٢٠٠ - ٣٠٠) دينار . ولكل واحد من حواشيهم (٣٠٠ - ٥٠٠) دينار هذا عدا الاقطاعات والهدايا والخلع .

وقد بلغت رواتب بعض وزراء العباسيين والفاطميين مائة الف دينار في السنة

تعيين الوزراء وعزلهم : كان تعيين الوزراء في اول الامر يتم بأسهل طريقة وذلك بأن يدعو الخليفة اليه الرجل الذي وقع عليه اختياره للوزارة ويبلغه ارادته فينطلق هذا الى عمله .

أما فيما بعد فقد بلغت مراسم التعيين حد الروعة والبهاء . فكان من يستوزره الخليفة يأتي الى القصر يعد ان يصله الكتاب الرسمي الذي كان يحمله اليه أميران من أمراء الدولة ، وعند وصوله الى باب الحجرة كان يقدمه الحاجب الى الخليفة ، وبعد أن يؤدي الطاعة كان يتعاهد معه قليلا ، ثم يذهب إلى حجرة أخرى حيث يلبس ثياب التشريف . ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف إلى الديوان منتظاً فرساً مطهماً ، وكان يسير بين

بديه كبار الموظفين والجيش والامراء وموظفي البلاط وخدام الخليفة والحجاب ، وعندما يصل إلى ديوانه كان يستقبل استقبالا حافلا ويقرأ عليه مرسوم التعيين .

**عزل الوزراء :** كان اكثر الوزراء لا يعزلون ، وانما يقتلون أو يسجنون وتصادر أموالهم ويعزل معهم كتبهم وأصحابهم . وربما نزلوا معهم أو حبسوا وصودروا . ولا يسلم أولاد الوزير وأقرباؤه أحيانا من أذى الخليفة . وقد ذكر أحد المؤرخين حالة اعتبرها شاذة وهي : ان السلطان جلال الدولة ملكشاه طلب من الخليفة المقتدي عزل وزيره أبي شجاع ، فخرج توقيع المقتدي بعزله على حالة جملة ، لم يصرف بمنزلها وزير .

قال ان ابا أيوب المورياني كان في مجلسه فأتاه رسول الخليفة المنصور فامتنع لونه وتغير . فسأله بعض أصحابه عن خوفه فذكر لهم قصة البازي والديك . وذلك أن البازي كان يعجب من الديك لا يدنو منه أحد حتى يطير بمنة وبسرة ويصيح ويصوت ، بينما يلزم البازي الهدوء . فقال له الديك لو رأيت في سفافيدم التي يشوي فيها اللحم من البزاة مثل الذي رأيت أنا فيها من الديكة لكنت شرا مني .

واردف المورياني يقول : ولكم لو كنتم تعلمون ما اعلمه لم تتعجبوا من خوفي مع ماترون من تمكني .

**الوزراء في الاندلس :** قلدت باقي الدول العربية والاسلامية العباسيين في اتخاذ الوزراء كما جرى في الاندلس ومصر .

اما في الاندلس فيقول ابن خلدون ما معناه : ان مؤسسي دولة بني امية في الاندلس اتفوا من اسم الوزير في مدلوله اول عهد الدولة . ثم قسموا عمله اصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا . ففعلوا :

- ١ - لحسان المال وزيراً (المالية) .
- ٢ - وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً (العدلية) .
- ٣ - وللترسيل وزيراً (الخارجية) .
- ٤ - وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً (الحربية) .

وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أوامر السلطان هناك كل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم ، فارتفعت وظيفة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها .

**الوزارة لدى الفاطميين والمماليك :** عرف منصب الوزير زمن الاخشيديين قبل عهد الفاطميين . ولما اقبل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر كان فيها الوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات . وقد ابي جوهر في بادىء الامر أن يلقيه بالوزير لما اقره في منصبه اذ ان سياسته كانت ترمي الى عدم احوال الشعبين محل السنين دفعة واحدة حتى لا يقف دولا ب الاعمال الحكومية . ولم يبق لابن الفرات من منصبه الا الاسم فقط .

ثم عهد المعز بالوزارة الى يعقوب بن كلس اليهودي الاصل . الا أن هذا الاخير اولى ابن الفرات ثقته التامة واعتمد عليه وثبقت أواصر الصداقة بينهما . ولا سيما عندما زوج ابن كلس ابنته الى ابن صديقه ابن الفرات . ومن استعراض اسماء وزراء الفاطميين نجد ان الخلفاء لم يتقيدوا في أن يكون الوزير شيعياً اسماعيلياً ، فاستوزروا ابن كلس وابا منصور صدقة بن يوسف الفلاحى وأبا الحسن بن أبي سعد التستري وكانوا يهوداً قبل اسلامهم ، واستشهدوا عيسى بن نسطورس ، وأبا العلا فهد بن ابراهيم ، والشافى زرعة

ابن نسطورس وأبا سعد منصور بن أبي اليم سورش بن مكر واه وبقوا على دينهم المسيحي ، يقال ان الاخير أسلم ، وأنكرت النصارى إسلامه - كما استوزروا البازوري السني الحنفي وكان وزير تنفيذ .

ويجب أن نلاحظ ان الفاطميين ، كما لم يتقيدوا بمذهب الوزير تقيداً تاماً ، لم يتقيدوا بجنسيته أو ببلد نشأته ، ان صح التعبير ، فجوهر الصقلي مغربي ، وقد جعل الى جانب كل موظف مصري ، موظفاً مغربياً ، وجاء من بعده ابن كلس وهو بغدادى الاصل ، والجرجاني ، عراقي من السواد ؛ واليازوري فلسطيني .

يضاف الى هذا أن اهم من لعب دوراً في تربيخ الفاطميين من وزراء التفويض كانوا من الارمن مثل بدر الجمالي وابنه وحفيده ، ويانس وزير الحافظ ، وهرام والصالح طلائع بن زريك . ثم اصبحت الوزارات إرثاً في بعض الأسر ، كعائلة أمير الجيوش .

وكانت سلطة الوزير لدى الفاطميين كسلطة وزير التنفيذ في العصر العباسي . وصار يطلق على للوزارة في عهد الحاكم ( ٣٨٦ - ٤١١ هـ ) اسم الوساطة .

وضعف شأن الوزراء والخلفاء منذ عهد المستنصر ( ٤٢٧ - ٤٧٨ هـ ) حتى انه قد تعاقب اربعون وزيراً في تسع سنوات ، لذلك استدعى المستنصر بدر الجمالي والي عكا لاصلاح أمور مصر فتمتع بالسلطة المطلقة حتى وفاته ، ثم تولى الوزارة بعده ابنه الافضل بن بدر الجمالي الذي استبد بالحكم حتى اصبغ المستنصر في عهده كالمجبور عليه . ودخلت الوزارة في عهده في طور جديد ، اذ اصبغ الوزير رب السيف والقلم وفي قبضة يده خراج الدولة . وازدادت سلطة الوزراء وتضخمت ثروتهم واصبح الخلفاء العوبة في ايديهم .

**الوزارة في عهد المماليك :** استلم الوزارة في أواخر العصر الفاطمي في



عهد العاضد ( ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ ) أسد الدين شيركوه . وخلفه في هذا المنصب ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب الذي لقب نفسه بالملك الناصر وقضى على الدولة الفاطمية وأسس دولة المماليك الايوبية .

وظلت الوزارة قائمة في مصر في عهد المماليك ، إلا أنه وضع إلى جانب الوزير الذي أصبح عمله تنفيذ رغبات سلطان المماليك واسداء النصع له : النائب ؛ وهو الذي يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ، كما اوجد منصب وزير الصحة ، وهو الذي يصحب السلطان في حروبه واسفاره ليتسنى للوزير الاصيل القيام بامور الدولة .

ثم بعد ذلك ، اضعف المماليك من نفوذ الوزارة واحدثوا وظيفة ناظر الدولة وناظر الخاصة وكان كل منهما يقوم بهام الوزارة . ولعلمهم ارادوا بذلك ألا يتعرضوا للخلع والاضطهاد كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .





## الفصل الرابع

### امرة الامراء والسلاطين والملوك

**أمير الامراء :** يقول ابن خلدون ما معناه : « لما ضعف شأن الخلافة واستبد الاعاجم بالحكم وكان من المتعذر عليهم انتحال لقب خليفة واستنكفوا مشاركة الوزراء في اللقب لانهم دونهم مرتبة ومقاما ، لهذا تسموا بالامارة والسلطان ، وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو السلطان او غير ذلك من الالقب الخاصة بالخليفة التي يمنحهم إياها » .

وفي عهد الرازي ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ) تعذر على الوزراء ادارة شئون البلاد لازدياد نفوذ كبار القواد الاعاجم وتدخلهم في أمور الدولة . مما دعا الخليفة الى استقالة ابن رائق وكان والياً على واسط والبصرة وسلم إليه مقاليد الامور ولقبه أمير الامراء . بوامر أن يخاطب له على المنابر وخلع عليه وأعطاه اللواء وكانوا يسمونه أيضاً ملك بغداد أو سلطان بغداد . ولم يكن ابن رائق أول من تلقب بأمير الامراء ، فقد ذكر مسكويه : ( تجارب الامم ) أن المقتدر قد هرون بن غريب إمرة الامراء سنة ( ٣١٦ ) هـ . كما قال أيضاً : « انه منذ تولية ابن رائق منصب امارة الأمراء بطل امر الوزراء ولم يكن للوزير سوى اسم الوزارة فقط ، وان يحضر في ايام المواقب

دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكناً . وصار ابن رائق وكأنه ينظران في الامر كله . وكذلك كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الامراء فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ويطلقون لنفقات الخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الاموال . وكانت حالة الخلفاء العباسيين في عهد امرة الامراء تشبه في كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين مع نظار السراي : Mayors of Palace اذ لم يكن لهم من الأمر شيء الا ما كان من ظهورهم في الحفلات الرسمية .

وقد وصف المؤرخ اينهارت سكرتير شارلمان ومؤرخ حياته ضعف ملوك الميروفنجيين المتأخرين وصفاً دقيقاً قال : « ولقد ظل البيت الميروفنجي سنين طويلة خلواً من كل قوة ولم يحط بالملك شيء من مظاهر العظمة سوى اللقب الملكي . لان حكام قصرهم قد آلت اليهم ثروة البلاد واصبحوا المتصرفين في مهام الدولة جميعها . ولم يبق للملك من سلطة سوى الرضا بلقبه الملكي وما كان من جلوسه على عرشه بشعره الطويل ولحيته المدلاة . فكنت تراه اذا مسمع خطب سفراء الدول يرد عليها بكلمات قد تلقها من قبل ... وإذا أراد الملك السفر رحل في عربة مغطاة بحرها ثوران ويسوقها رجل من رجال الريف... » وهكذا كان حال أواخر خلفاء بني العباس في بغداد . **السلطان :** اما ظهور لقب سلطان فقد سبق لقب امير الامراء . وقد مر معنا في بحث القاب الوزراء . كيف لقب جعفر بجي البرمكي بالسلطان من قبل الرشيد اشارة الى اتساع نفوذه .

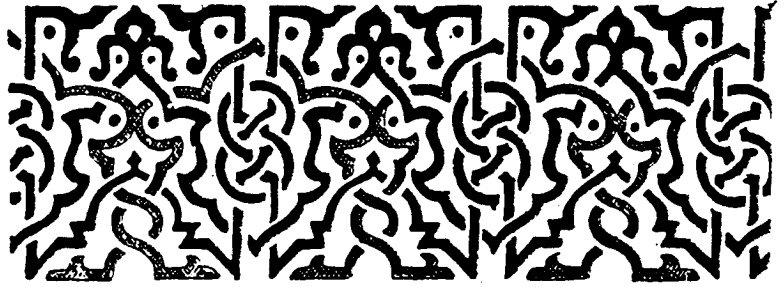
كما ان الواثق لقب قائده اشناس بلقب السلطان ووضع على مفروقه تاجاً مرصعاً وقلده قلادة وسوارين . وبقي هذا المنصب مهملاً حتى تأسست دولة آل بويه فأخذ الخلفاء يعينونهم ويحتفلون بتوليتهم احتفالاً رائعاً . ولم يكن لقب سلطان مقصوراً على امراء آل بويه فحسب . بل كان

الخليفة بسند هذا اللقب أيضاً الى الغزاة الفاتحين امثال محمود الغزنوي  
والب ارسلان وملكشاه وصلاح الدين ومن اليهم . وعندما كان الخليفة  
يمنح هذا اللقب لأحد الامراء كان يغدو وراثياً على شرط أن يقدم اليه  
الامير عند التولية طلباً رسمياً . وكان الخليفة بطبيعة الحال يوافق على التعيين  
ويخلع عليه التشريف .

ونلاحظ أيضاً انه في العصر العباسي الثاني صار يطلق اسم السلطان  
على الخليفة نفسه . ولما كان عصر المالك في مصر والشام سمي الامير  
بالسلطان . فقليل السلطان احمد بن قلاوون مثلاً ، والسلطان بيبرس ،  
لانهم لم يتجاوزوا على اتخاذ لقب الخلافة احتراماً لهذا المنصب الديني الجليل .  
وقد لقب أيضاً ملوك آل عثمان وخلفاؤهم باسم السلاطين . كما أن حكام  
المغرب الأقصى اتخذوا نفس اللقب فكان يقال سلطان مراکش .

**الملك :** انشأ الخلفاء لقباً جديداً أطلق عليه اسم الملك وكان يمنح  
أحياناً لحامل لقب السلطان ويمنح أحياناً أخرى الى غيره . ولكنهم كانوا  
إذا ما انعموا به على احد قرونه عادة بعبارة تتناسب وصفات الملك البارزة .  
واول من انعم عليه بهذا اللقب هو نور الدين محمود زنكي الذي لقب  
بالمملك العادل .





## الفصل الخامس

### الحجاجة

معنى الكلمة : يراد بها حجب الخليفة عن الناس . وبشرف عليها الحاجب الذي يغلق باب الخليفة دون الناس أو يفتحها لهم . ثم تطورت وظيفته وأصبح عمله تنظيم مقابلة المراجعين للخليفة وترتيبهم في الدخول عليه مراعيًا في ذلك مركزهم الاجتماعي وأهمية أعمالهم .

الحجاجة زمن الراشدين والامويين : لم يمنع الراشدون احداً من مقابلتهم . وقال ابن خلدون في ذلك : ( اما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه ) .

وكان من الجائز ان يبقى الحال كذلك بعد أن انتقل الحكم إلى الامويين لان التأثير بالأعاجم كان بعد ضعيفاً ، ولا تزال روح البداوة مهيمنة على العرب . حتى قال الجاحظ : ( ان دولة بني أمية عربية اعرابية ) ، لولا مؤامرة الحوارج على : علي ومعاوية وعمرو بن العاص التي ذهب ضحيتها الامام علي وجرح معاوية . اذ بعد هذه الحادثة اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب خوفاً على أنفسهم .

ونستدل من أخبار عبد الملك بن مروان عن حدوث امرين هامين  
يتعلقان بالحجابه وهما :

١ - اباحة الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا . فقد قال عبد الملك  
لما ولي حاجبه « قد وليتك حجابه بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه  
داعي الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد » .

٢ - اتخاذ الحجاب من قبل الولاة . نستدل على ذلك من وصية عبد  
الملك لأخيه عبد العزيز والي مصر اذ قال له : « ابسط بشرى ، وألن  
كنفك ، وآثر الرفق في الامور ، فانه ابلغ بك ، وانظر حاجبك فليكن من  
خير أهلك فانه وجهك ولسانك ، ولا يقفن احد ببابك الا أعلمك مكانه لتكون  
انت الذي تأذن له او ترده » .

**الحجابه زمن العباسيين :** كانت مرتبة الحاجب لدى العباسيين دون  
مرتبة الوزير ( اي خلاف الحال في الاندلس ) وزاد الحجاب في منع الناس عن  
مقابلة الخلفاء إلا في الامور الهامة . وقد احدثوا دارين بينهم وبين الناس ، دار  
للخاصة ودار للعامة . كما احدثوا حاجبين : حاجب اكل دار . وكان الخليفة  
يقابل كل طائفة من الناس في مكانها المعين لها .

وقد علت مرتبة الحاجب مع الزمن في ايام العباسيين . فأصبح يستشار  
في كثير من امور الدولة . ومن ابرز الحجاب الفضل بن الربيع الذي  
وقع بالبرامكة في عهد الرشيد والذي كان له اثر بارز في احداث الخلاف  
بين الامين والمأمون حينما اغرى الأمين بتحويل ولاية العهد لابنه وخلع اخيه  
المأمون عن ولاية العهد .

وكان الحاجب في بعض الاحيان يستبد بالنفوذ دون الوزير ، وينظر في  
امور الدواوين ولا يفصل في اعمالها الا بعد موافقته . نستدل على ذلك  
من قول مسكويه ( تجارب الامم ) عن حوادث سنة ( ٥٢٣هـ ) ... « غلب





## الفصل السادس

### الولاية وادارة الولايات

**معنى الكلمة :** كانت البلاد الخاضعة للعرب تقسم الى ولايات أو امارات . وهي تقسيمات ادارية لا بد منها في كل حكومة منظمة . فكان الخليفة يدير الامور في عاصمة ملكه وبعين على كل ولاية عاملاً أو والياً يقوم مقامه في ادارة شؤونها . وبدعى أيضاً بالامير وهي مأخوذة من الامارة الحربية ، لان الخليفة كان يعين الرجل على جيش الفتح فاذا انتصر ودخل البلاد فقد يستبقه عاملاً عليها فيسميه الناس باسمه الذي عرفوه به من قبل .

**الولايات وادارتها زمن النبي :** كان النبي بنيب عمالاً على القبائل وعلى المدن فكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله . وكانت وظيفة هؤلاء العمال هي الامامة في الصلاة وجمع الصدقات اذ لم يكن هناك خراج .

وجاء في طبقات ابن سعد و أن النبي كان يختار الولاية من المنظور اليهم في العرب ومن الذين يحسنون العمل . وكان يفقشهم ويسمع ما ينقل اليه من اخبارهم . ويدقق في محاسبتهم . ويطلع على وارداتهم ونفقاتهم . وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا



لكم وهذا أهدي إلي . فقال النبي ﷺ : « ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله ، فيقول : هذا لكم وهذا أهدي إلي . فلو قعد في بيته أكان يُهدى إليه شيء . »

**الولايات وإدارتها زمن الراشدين :** لما تولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول ﷺ على أعمالهم . ولم تتجاوز رقعة الدولة العربية في أيامه أكثر من جزيرة العرب التي قسمت إلى اثنتي عشرة ولاية أهمها : مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت ونجران والبحرين .

وجرى أبو بكر على معرفة أحوال العمال واستقصاء أخبارهم . وكان يختار أكثرهم علماً وعملاً . ومن وصايا أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام : « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً عن الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه .. وإذا قدمت عليك وفود العجم فانزلهم معظم عسكرك واسبغ عليهم النفقة وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين . »

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية في خلافة عمر بن الخطاب قسمها إلى أقسام إدارية كبرى وهي : ولاية **الاهواز والبحرين** . وولاية **سجستان ومكران وكرمان** . وولاية **طبرستان** ، وولاية **خراسان** . وجعل العراق قسمين أحدهما حاضرتة الكوفة ، والثاني البصرة . وقسم بلاد الشام إلى قسمين أحدهما قاعدته حمص والثاني دمشق . وجعل فلسطين قسمًا قائماً بذاته . وقسم إفريقيا إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر وصحرها ليبيا .

كانت سياسته ترمي إلى تماسك بلاد العرب وادماج بعضها في بعض لتكون أمة واحدة . ويهدف إلى عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد التي فتحوها حتى لا تضيع قوميتهم .

وكان عمر لا يفتأ يوصي ولاته ، فكان يريد أن يستعملوا اللين في غير ضعف والقوة في غير عنف ، وألا يأخذوا أنفسهم بأسباب النعيم وأن يكونوا مثله في إثارة الحشونة . وكانت له أساليب عديدة دقيقة في معرفة أحوال الولاة ، منها إرسال أحد الذين يعتمد عليهم فيجمع هذا الناس ويسألهم إن كانت لهم شكوى . فإذا فعل أحدهم اقتص من الوالي أو عزله . وبقيت السلطة موزعة كما كانت زمن النبي ﷺ أي تعيين عامل خراج للشؤون المالية إلى جانب الوالي وكان بمثابة الرقيب على أعماله .

أما في عهد عثمان فقد ضعفت الإدارة في النصف الأخير من حكمه لشيخوخته ، بما أدى إلى تدمير المسلمين بالولايات فشقوا عصا الطاعة وأضرموا نار الفتنة التي انتهت بقتله .

الولايات وإدارتها زمن الامويين : بلغت الدولة العربية أقصى اتساعها زمن الامويين وكانت تقسم إدارياً إلى خمس ولايات كبرى هي :

١ - الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢ - مصر بقسميها السفلى والعلية .

٣ - العراقان العربي والعجمي . والعجمي يشمل كل المناطق الواقعة شرقي العراق وحاضرتة في الكوفة . وكان يعين والياً من قبله على خراسان مركزه مدينة مرو .

٤ - بلاد الجزيرة ويتبعها الرمنية واذويحان وبعض أراضي آسيا الصغرى .

٥ - أفريقية الشمالية حتى غرب مصر وبلاد الاندلس وجزر صقلية وسردينية والليبار ومركزها القيروان .

وقد سار الامويون على سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة من

العرب ، وبلغ من اهتمامهم باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب إلى أفراد البيت المالك .

الولايات وادارتها زمن العباسيين : في العصر العباسي الاول كان نظام الحكم مركزياً وبذلك تقلص نفوذ العمال . وكان يوجد إلى جانب والي موظفون كل حسب اختصاصه ، فهناك صاحب المال وصاحب البريد والقاضي . واقتصر عمل والي على الصلاة وقيادة الجند .

ولم تختلف التقسيمات الادارية اختلافاً كبيراً عما كانت عليه زمن الامويين إلا من حيث تجزئة بعض الولايات الكبرى . فكانت المناطق الشرقية من العراق تتألف مثلاً من أذربيجان ، عراق العجم ، خراسان ، ماوراء النهر ، السند ، البنجاب ، الاهواز ، جنوب فارس . بينما كانت زمن الامويين تشكل ولاية واحدة كبرى . ثم لما جاء الرشيد عدل التقسيمات الادارية وفصل تخوم الشام و كيليكية عن أمارة الجزيرة وقسرين وجعلها امارة واحدة واطلق عليها اسم العواصم حاضرتها طرسوس .

وكان الخليفة يختار عمال الاقاليم بنفسه . ولم يكن المنصور يحتفظ بخدمات أي أمير في ولاية واحدة لمدة طويلة . فكان دائب الاشراف على عماله يعزلهم إذا لاحظ منهم ضعفاً أو انهائاً كتب اليه عامله على ارمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال . فكتب اليه « اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » .

ثم دب الضعف في الدولة في العصر العباسي الثاني واستبد الولاة وابتكروا الأساليب لجمع المال والامراف في انفاقه . وكان والي يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل إلا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج إلى الخليفة والحطبة له وضرب النقود باسمه . فاذا كان والي ذا دهاء وأنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله إما استقلالاً

تماماً وأما على مال معين . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبية في افريقية وابن طاهر في خراسان وابن طولون في مصر .

**انواع الولايات :** قال الماوردي : إذا قلد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين :

١ - إمارة عامة أي تكون للوالي سلطة شاملة تامة وهي نوعان :

أ - إمارة استكفاء أو تفويض أو استيلاء بعقد عن اختيار . أي يوليه الخليفة باختياره .

ب - إمارة استيلاء بعقد عن اضطرار . أي يوليه الخليفة وهو مكره .

٢ - إمارة خاصة .

**إمارة الاستكفاء أو التفويض :** هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء ، فيفوض إليه إمارة الإقليم على جميع أهله ويجعله تام النظر في كل أموره لا يراجعه إلا في الأمور الهامة جداً ويشتمل نظره على سبعة أمور :

١ - تدير الجيوش وتربيهم في النواحي وتقدير أرزاقهم ( إلا إذا كان الخليفة قدرها ) .

٢ - النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام .

٣ - جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها .

٤ - حماية الدين والدفاع عن الحرم .

٥ - إقامة حدود الشرع .

٦ - الإمامة في الصلوات .

٧ - تسيير الحج .

وإذا كان الاقليم متاخماً لعدو ترتب على العامل واجب ثامن هو :

٨ - جهاد ذلك العدو وقسمة الغنائم بين المحاربين .

إمارة الاستكفاء زمن الامويين : وأشهر ولايات الاستكفاء العامة زمن الامويين كانت مصر والعراق وخراسان . وأشهر الولاة زياد بن أبيه ، والحجاج ، ومسلمة بن عبد الملك ، وخالد بن عبد الله القسري . فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف في إمارته تصرف الملوك المستقلين . فيعين العمال على البلاد تحت إمارته وسائر عمال حكومته . ويحجب الأموال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور واحتفار الترع ونحو ذلك ، ويرسل ما يبقى عنده إلى بيت المال في الشام .

إمارات الاستكفاء زمن العباسيين : وفي عهد العباسيين لما تمكن البرامكة من الدولة وازداد نفوذهم ولى الرشيد أحدهم جعفر بن يحيى الغرب كله من الانبار إلى افريقية . وقد أخاه الفضل بن يحيى الشرق كله حتى أقصى بلاد الترك . وقد جعل جعفر مقامه في مصر وأرسل العمال إلى الشام وافريقية أما الفضل فإنه سار الى عمله حتى وصل خراسان فأصلح وبدل واستخلف عمالاً وعاد الى العراق .

وكانت اماره الاستكفاء زمن العباسيين من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة لاستبداد الولاة واحتكارهم كل السلطات في ولايتهم ، وكان أشهرهم الاغالبه في افريقية ، وابن طاهر في خراسان ، وابن طولون في مصر .

إمارة الاستيلاء : وهي كما يفهم من معنى الكلمة أن يستولي الوالي بالقوة على اقليم تابع للخليفة ، فيقر الخليفة الحالة الراغبة استملاحاً للأموال ورغبة في حقن الدماء واستدعاء للطاعة ، ويقلد المتغلب الامارة ويفوض

إليه تدبير الأقاليم التي تغلب عليها ، كل ذلك حفظاً لمنصب الإمامة ولأحكام الدين .

ولأمير الاستيلاء أن يعين الوزراء وبحق له بصورة خاصة أن يستوزر وزير تفويض ولا يحق لأمير الاستكفاء .

ومن أشهر هذه الولايات في العصر العباسي : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، والبويهية في فارس وكرمان ، والغزنوية في الأفغان والهند ، والأخشيدية في مصر والشام . وكلها كانت أمارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر وتضرب السكة باسمه وترسل إليه مالاً معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه ، وهو الذي يثبت أمراءها ويكون الحكم متسلسلاً في عقائهم .

**الإمارة الخاصة :** هي التي تكون سلطة الأمير مقصورة فيها على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية السكان والدفاع عن الحرم ضمن حدود معينة . وليس له أن يتعرض للقضاء أو الأحكام أو لجباية الخراج أو الصدقات . حتى الإمامة في الصلاة فربما كان القاضي أولى بها منه . والخليفة يعين لهذه الإمارة قضاء وجباة من عنده . فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي وهم يؤدون إعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه . والإمارات الخاصة كانت قليلة في إبان الدولة العباسية كثيرة زمن الأمويين .

**تعيين الولاة وعزلهم :** كان الخليفة إذا ولى أميراً على جهة ما كتب له بذلك كتاباً يسمى **التقليد** أو **العهد** يحدد له فيه مهمته ويوصيه بالآداب التي ينبغي له التعمل بها والسياسة التي يلزمه اتباعها .

كان الخلفاء الراشدون يذكرون في كتاب التعيين اسم الوالي والبلد الذي أرسل إليه وكلمات تلخص سلطته ثم يكتثرون من الوصايا . وقد كتب علي بن أبي طالب إلى الأشتر : وهذا ما أمر به علي أمير المؤمنين

مالك بن الحارث الاشتر في عهده اليه حين ولاه مصر : جباية خراجها ،  
وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله  
وابتشار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد  
أحد الا باتباعها . . . .

وفي العهدين الاموي والعباسي والعصور المتأخرة كانت التقاليد تصدر  
عن كتاب يتنافسون في عمل التقاليد وبشحنونها بضروب الصناعات البيانية  
والبدعية ويطولون فيها كثيراً . وكانت التقاليد اجمالاً غنية بالتفاصيل التي  
تظهر فيها سلطات الأمير وأعماله .

إن الوالي اذا قلده الوزير ينعزل بعزله او موته . اما الوالي الذي  
يقلده الخليفة فلا تنعزل بموته . وكان الخلفاء الجدد يملون اجمالاً الى تولية  
بعض اصحابهم وانسابهم الذين يشقون بهم . وربما كان الخليفة الجديد له  
رأي في الولاية غير رأي الخليفة الذي سبق فيبدأ عمله بصرف الولاية كلهم  
او بعضهم ، وقد فعل هذا عمر بن الخطاب على شدة حبه لأبي بكر  
وإعجابه به .

وكان العزل يتم احياناً بالكتابة الى الأمير وبلاغه صرفه عن الخدمة  
او نقله الى مكان آخر ، وحياناً بتولية الأمير الجديد فاذا وصل مركز  
الامارة أظهر كتاب توليته وتسلم الاعمال ، ويعتبر ذلك عزلاً ضمياً  
للأمير السابق . وربما رافق العزل مصادرة اموال الأمير وعمله .

راتب الولاية : : كان عمال النبي ﷺ عمالاً على الصدقات ولهم نصيب مما  
يجمعون ، أما الأمراء والولاة الذين لا يأخذون من مال الصدقات فلا ندرى  
اذا كان النبي قد فرض لهم رزقاً مخصوصاً ، وبذكر بعض المؤرخين ان  
النبي لما استعمل عتاب بن أسيد والياً على مكة خصص له كل يوم

درهماً فقام بخطب ويقول : وإياها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم . فقد رزقني الله درهماً كل يوم فليست بي حاجة الى احد . فكان هذا الراتب اول ما وُضِع من الرواتب للولاة .

اما عمر بن الخطاب فانه قدر رواتب العمال بعد تدوين الدواوين وتعيين أرزاق الجند ، وأول ما فعل ذلك لما وجّهه عمار بن ياسر الى الكوفة فجعل له ( ٦٠٠ ) درهم في الشهر ونصف شاة ونصف جريب كل يوم . وعين الرواتب لبقية الولاة والموظفين . ولما ولى معاوية بن ابي سفيان على الشام جعل له الف درهم كل سنة . وكان عمر يشدد في محاسبة العمال فاذا رأهم رجحوا مالاً من شيء قاسمهم وأخذ النصف لبيت المال .

واما بنو امية فقد نال عمال الأقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة منحهم إياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم له . فولى زياد بن أبيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد . وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر . كما اطلق عبد الملك يد الحجاج في العراق .

وجرى العباسيون على نحو ذلك . فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له ( ٣ ) ملايين درهم في السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته وأهميته .







## الفصل السابع

### الدواوين

**مفهوم الكلمة :** اختلف في أصل كلمة ديوان هل هي عربية أم فارسية . قال البعض ومنهم سيبويه أنها عربية ومعناها : الأصل الذي يرجع إليه . وقال آخرون ومنهم الأصمعي : بل هي فارسية معربة ومعناها سجل أو دفتر . واطلقت من باب المجاز على المكان الذي تحفظ فيه السجلات الرسمية . ويقال عن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وم يرددون بصوت منخفض ما يدونونه كأنهم يتحدثون فقال : ( ديوانه ) أي مجانبين . فسمي موضعهم بهذا الاسم وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل ديوان .

وقيل إن ديوان هو اسم للشياطين بالفارسية . سمي الكتاب بذلك لسرعة تقمهم للأمور ووقوفهم على الجلي منها وإخفي ، وجمعهم لما شدة وتفرق . ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم .

ويقول الماوردي : « والدواوين موضوع لحفظ ما يتعلق بمقوق السلطنة من الاعمال والاموال . ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

**نشأة الدواوين واقسامها زمن الراشدين :** أول من أنشأ الديوان عند المسلمين عمر بن الخطاب . أما قبل ذلك فلم يحتج المسلمون إلى أي من التدوين الحكومي سوى كتاب الوحي للرسول عليه السلام والكتاب الذين كتبوا له رسائله إلى ملوك الأمم المجاورة بدعوى الإسلام .

ولما كان عهد عمر اتسعت رقعة الدولة العربية الإسلامية وكثرت وارداتها فاحتاج إلى ضبط أحوالها فاتشأ ديوان العطاء أو الخراج . كما ازداد عدد المحاربين وكثرت الجيوش واتسع نطاق الفتوحات فرأى من الضروري تقدير أعطيات الجند وتسجيل أسمائهم ، فأنشأ ديوان الجند .

وذكر المؤرخون رأيين في سبب وضع عمر الديوان وهما :

١ - أن أبا هريرة عامله على البحرين قدم ومعه مال كثير وتعب عمر في قسمه وضبط العطاء ، فأشار عليه خالد بن الوليد ( وقيل بل هو هشام بن الوليد بن المغيرة ) بتأسيس الديوان وقال : « رأيت ملوك الشام يدونون » فنقل عمر ووضع ديوان العطاء أو الخراج .

٢ - وقيل إن الذي أشار على الخليفة عمر بوضع الديوان هو أحد زعماء الفرس الذين أسلموا- إذ كان حاضراً مجلس الخليفة وقد رآه يرسل بعثاً ( جيشاً ) فقال له : « هذا البعث قد أعطيت أهله الأموال فإن تخلف منهم رجل بمكانه فما يدري صاحبك ( قائدك ) به » وأشار عليه بوضع الديوان وفسره له وشرحه . فأمر عمر بإنشاء ديوان الجند .

**تطور الدواوين :** أشهر الدواوين التي عرفت زمن الأمويين هي : ديوان الجند - ديوان الخراج - ديوان الرسائل - ديوان الخاتم - ديوان الطراز - ديوان الصدقات .

١ - ديوان الجند : بقي هذا الديوان في أول العهد الأموي على ما أنشأه الخليفة عمر ، وهو أكبر ديوان في الدولة ، تحدد فيه مقدار إعطيات جميع العرب ، والجنود المقاتلة من عرب وغير عرب .

ولما خفت حركة الجيوش ، لهدأة الحروب الخارجية ، أبطل الخليفة هشام بن عبد الملك الاعطاءات لمن لا يقوم بالعمل العسكري بنفسه أو من يبعث مكانه نائباً عنه ، والغى أسماء جميع من يستكشفون عن المساهمة في الجندية ولو كان أميراً أموياً ، وبهذا الإصلاح ، تحدد الأشخاص الذين يتناولون اعطيات مقدرة ومقررة من ديوان الجند ، ولم يعد أموال هذا الديوان حقاً لجميع العرب .. وقد أعجب المنصور العباسي بإصلاح الخليفة هشام الأموي وأمر بتنفيذه .

٢ - ديوان الخراج : وواجباته جمع الخراج والاتفاق من موارده على شؤون الدولة ، وكان في كل ولاية ديوان أشبه بالإدارة المالية المحلية ، يجمع الخراج ، ويحتفظ بما يحتاج إليه الولاية من مصروف ، ويرسل الفائض إلى العاصمة ، حيث يجمع دخل الأراضي الزراعية في ديوان مركزي ، لقاء إيصالات استلام وصرف وتجري عن طريقه محاسبة دواوين الولايات .

٣ - ديوان الرسائل : يقول القلقشندي : ان ديوان الرسائل ويسمى أيضاً ديوان الانشاء هو أول ديوان أنشئ في الاسلام وذلك أن النبي ﷺ استعمل كتاباً يكتبون عنه إلى امرائه وأصحاب سراياه ، وإلى من قرب من ملوك الارض يدعوهم إلى الاسلام ، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والهدن والامانات إلى غير ذلك .

فهؤلاء الكتاب وإن لم يطلق عليهم اسم الديوان كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان الرسائل . فلما جاء العهد الأموي كان كل خليفة يفوض أمر ديوان الرسائل إلى كاتب يختاره .

ثم جاء العهد العباسي فكان الذي يتولى ديوان الرسائل هو الوزير نفسه . وفي كتاب الوزراء والكتاب للجهياري صور للنشرات والرسائل

التي كانت توجه للعالم والرعية .

وقد ألف القلقشندي لمن يرشحون أنفسهم لمنصب ديوان الرسائل كتاباً قيماً ذكر فيه تاريخ هذا الديوان وتفاصيل العلوم والمعارف التي ينبغي لصاحبه أن يعلمها . قال : « ليس في منزلة خدام السلطان والمنصرفين في مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه والافضاء إليه بمهمات وإطلاعه على حوادث ديوانه ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ... »

ومن آداب صاحب الرسائل أن يكون صريح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلاً في قومه ، وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل ، ملازماً للديوان ليكون قدوة لسائر الموظفين فيه .

وكان هذا المنصب لا يتولاه في عهد الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة ، وله حاجب من الأمراء والشيوخ . حتى شبه ديوان الرسائل ، في عهدهم ، بديوان رئاسة مجلس الوزراء في أيامنا هذه .

أما اختصاص صاحب ديوان الرسائل فهي :

- ١ - التوقيع على الرسائل الموجهة إلى جميع الولايات والموظفين في كل ما يتعلق بشؤون الدولة .
- ٢ - النظر في الكتب الواردة .
- ٣ - رد الاجوبة في يومها وعدم تأخيرها .
- ٤ - النظر في الألقاب التي تكتب على الرسائل حتى لا يزداد فيها ولا ينقص .

٥ - الاطلاع على ما يكتب في ديوانه ويوقع عليها إشارة إلى موافقته على مضمونها .

٦ - النظر في أمر البريد ومتعلقاته .

٧ - النظر في أبراج الحمام المستعمل في المخابرات .

٨ - النظر في أمر السعاة الذين يسرون بالرسائل عند تعذر إيصالها بطرق البريد .

٩ - النظر في أمر المناور والمحروقات وهي أمكنة في رؤوس الجبال توقد فيها النار وتستعمل للمخابرات .

١٠ - النظر في أمر العيون والجواسيس .

١١ - النظر في الأمور العامة أي كل ما يجلب الخير للدولة ويدفع عنها الأذى .

ب - ديوان الخاتم : لم يكن القصد من الختم أن يوضع الخاتم في أدنى الرسالة . وإنما كانت الرسالة تطوى ويلصق طرفها بالشمع أو الطين الأحمر الذي يطبع عليه ، وهو طري ، خاتم الخلافة . ويترك حتى يجف . فإذا فتحت الرسالة من قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك .

وأول من وضع هذا الديوان معاوية ؛ وقد ذكر الصولي في أدب الكاتب ان معاوية حين أفرد ديوان الخاتم ولاء عبيد بن أوس النسائي وسلم الخاتم إليه ، وكان منقوشاً على فمه : لكل عمل ثواب ، وسبب ذلك أنه كتب لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم إلى زياد عامله في العراق . ففرض عمرو الكتاب وجعلها مئتي ألف درهم ، فلما رفع زياد حسابه ، قال معاوية ما كتبت له إلا بمئة ألف درهم . وكتب إلى زياد بذلك وأمره أن يأخذ المئة ألف

منه ، وان يعتقله بتهمة التزوير ، فدفع عبد الله بن الزبير المبلغ إلى معاوية وحصل على اطلاق سراح عمرو . وصارت العادة أن يحتفظ ديوان الخاتم بنسخة عن كل ما يوقع من رسائل وحسابات ، وكذلك فعل الولاة ، وذلك للرجوع اليها والمطابقة والمقارنة ، وخاصة في العصر العباسي حين نكب عدد كبير من الوزراء بدعوة الرشوة والتلاعب بالقيود والغنى غير المشروع .

وانشأ الأمويون في دمشق داراً خاصة للمحفوظات الرسمية ، وكذلك فعل العباسيون . . وقد ظل هذا الديوان قائماً حتى عهد الأمين ( ٨٠٩ - ٨١٦ م ) على حد قول الجهشاري ، بينما يرى فون كيرير وسيد أمير علي ومتر أنه حل ديوان التوقيع محل ديوان الخاتم في أول العهد العباسي ، ويروون أن جعفر البرمكي تولى رئاسة ديوان التوقيع في عهد الرشيد ( ٧٧٦ - ٨٠٩ م ) وعرفت الأوامر الصادرة عن هذا الديوان باسم التوقيعات . . ولكن المصادر الأخرى تذكر ديوان الخاتم في عهد المأمون . . مما قد يستنتج أن ديوان الخاتم بقي قائماً مع أحداث ديوان التوقيع لمدة من الزمن ثم حل الثاني محل الأول .

ديوان الطراز : يقول ابن خلدون : « الطراز هو أن يرسم أسماء الملوك والسلاطين أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج » .

يضاف إلى هذه الدواوين ديوانا الجند والخراج وقد أحدثها الخليفة عمر كما مر معنا ، وديوان البريد وقد أفردنا له فصلاً خاصاً لأهميته . وعلى كل ليست هذه كل الدواوين التي عرفت في العهد الأموي بل هي أهمها ؛ إذ تفرعت عنها دواوين أخرى كثيرة . وقد ذكر المؤرخون أنه كان في عهد

عمر بن عبد العزيز ديوان يعنى بالمرضى والمقعدين وترتيب الخدمة لهم والانفاق عليهم . وكان في عهد هشام بن عبد الملك ديوان للصدقات . كما كان عندهم دواوين للنفقات والرقى وغيرها .

تعريب الدواوين : كانت لغة الدواوين حتى زمن عبد الملك في العراق الفارسية وفي الشام الرومية وفي مصر القبطية واليونانية .

كان سرجون بن منصور يتقلد ديوان الشام فأمره عبد الملك يوماً بشيء فتناقل عنه وتوافى فيه . فعاد لطلبه وحشه فيه ، فرأى منه تفريطاً وتقصيراً ، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد وكان يتقلد له ديوان الرسائل : أما ترى إِدلال سرجون علينا ، وأحسه قد رأى ضرورتنا إليه وإلى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب إلى العربية . قال : فافعل ، فحوله ، فرد إليه عبد الملك جميع دواوين الشام .

كما حول الحجاج في العراق ديوان الخراج من الفارسية إلى العربية . وذلك أنه كان يتقلده زاذان فروخ وكان يكتب معه صالح بن عبد الرحمن . وقال صالح مرة لزاذان : إني قد خففت على قلب الحجاج ولست آمن أن أزيلك عن عملك . فأجاب زاذان : لا تظن ذلك لأنه لا يمكن أن يجد من يكفيه حسابه غيري . فقال صالح : والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . قال : فحول شطراً حتى أرى . ففعل صالح . وبذل له زاذان مائة ألف درهم كي يظهر العجز عن نقل الديوان إلى العربية فأبى . ولما قتل زاذان خلال ثورة ابن الأشعث خلفه صالح وترجم الديوان إلى العربية . وفي رواية للبلاذري والجهشياري أن زاذان خشي أن يلحظ الحجاج مهارة صالح فأمره أن يدعي المرض ، فأرسل الحجاج طبيبه الخاص لمعالجته ثم عينه بعد مقتل زاذان ، وتقول هذه

الرواية أن الذي عرض على صالح المائة الف درهم ، هم اصحاب المصالح من الفرس بعد تعيينه في عمله الجديد وبعد وفاة زادان .

أما في مصر فقد ظلت الدواوين تدون باليونانية إلى أن انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فسار على سياسة أبيه في تعريب الدواوين فحول ديوان خراجها إلى العربية ؛ وقام بتنفيذ هذه السياسة وإليه على مصر عبد الله ابن عبد الملك بن مروان سنة ( ٨٧ ) هـ .

وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية . فقد أصبحت لغة الدواوين هي اللغة العربية مما ساعد على تقلص نفوذ غير العرب . أما من الناحية الأدبية فقد أصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية واليونانية ، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت . وكان عبد الحميد الكاتب يقول : « لله در صالح بن عبد الرحمن ما أعظم منته على الكتاب » . وكان حري به أن يقول لله در عبد الملك .

**الدواوين في العهد العباسي :** تأثر العباسيون بالنظم الإدارية الفارسية كما أن الأمور تعقدت وتشعبت بعد العصر الأموي فأنشئت دواوين عديدة عدا التي عرفت زمن الراشدين والأمويين . وكان أهمها :

**ديوان العزيز :** كان مجلس الخليفة يسمى بديوان العزيز كما كانت الحكومة العثمانية تسمى بالباب العالي . وكان يرأس المجلس الوزير الأكبر ولهذا سمي مجلس العزيز ( كان رؤساء الدواوين المختلفة يسمون بالوزراء أحياناً ولكنهم كانوا أقل درجة من الوزير الأكبر الذي كان رئيس الإدارة ) .

٢ - ديوان الازمة : يقول البلاغري بأن هذا الديوان أحدث زمن



الامويين ؛ بينما سيد أمير عني يقول : انه من ابتكار الخليفة المهدي ( ١٥٨ - ١٦٨ هـ ) وقد سمي ديوان الأزمّة في العاصمة وديوان الزمام في الولايات كما يقول الجهشيارى .

وصاحبه يشبه وزير المالية الذي يجمع أنواع الواردات كلها ، وأنواع النفقات كلها ويقيم الموازنة بينها . وقد حوله العباسيون إلى ديوان حسابات عامة لبلاد الخلافة كلها ، وذلك بما يشبه ديوان المحاسبة اليوم أو الجهاز المركزي للرقابة المالية .

٣ - ديوان النظر في المظالم : كان الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدون من بعده يستمعون إلى شكاي الناس وينصفونهم في كل وقت تعرض عليهم هذه الشكاوي ، ولكن بعد مقتل الإمام علي ، والاعتداء على معاوية ، احتجب الخلفاء ، وخصصوا أوقاتاً محدودة للنظر في المظالم ، كما فعل عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فلما جاء العباسيون وانشغل الخلفاء بأمور الدولة المتشابهة ، افردوا للمظالم ديواناً منظماً ، كان بمثابة المحكمة العليا الاستئنافية ، تعرض عليها الأمور التي لم يقبل أصحابها بحكم القضاء ، وذكر ابن جعفر البرمكي قد تولى رئاسة هذا الديوان في عهد الرشيد ، وأن المأمون قد انفرد من بين سائر خلفاء بني العباس ، وترأس مجلس ديوان المظالم يوم الأحد من أكثر الأسابيع . ويذكر الماوردي أن امرأة تقدمت بشكوى ضد ابن خليفة المأمون ، فحضر المأمون بنفسه جلسة النظر بالدعوى ، واستمع إلى أقوال المرأة وابنه ، وأصدر القاضي الحكم ضد الأمير ونفذ الحكم .

٤ - ديوان النفقات : واختص بمطالب البلاط ، من تأمين الرواتب وبناء وإصلاح القصور وملحقاتها ، وشراء المواد الغذائية والحيول ، وما يطلبه

سكان القصور من ملابس وأدوات وأثاث ... وتكاليف الحفلات والمآدب .  
وما شابه ذلك .

٥ - **ديوان الصوافي** : تعني الصوافي أراضي الدولة ، وهذا يعني أيضاً اهتمام هذا الديوان بجميع أملاك الدولة من تأجير واستئجار أو شراء وبيع . وهو أشبه بدائرة الاملاك العامة اليوم .

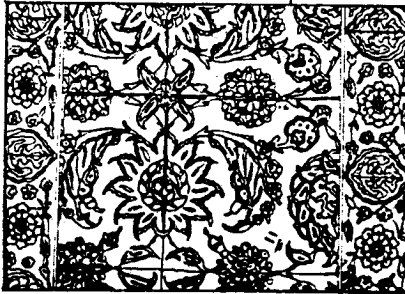
٦ - **ديوان الضياع** : ويقصد بها ضياع وقرى وأراضي الخليفة الخاصة ، إذ انفرد لإدارتها واستئثارها ديوان خاص ؛ لا علاقة له بالديوان السابق .

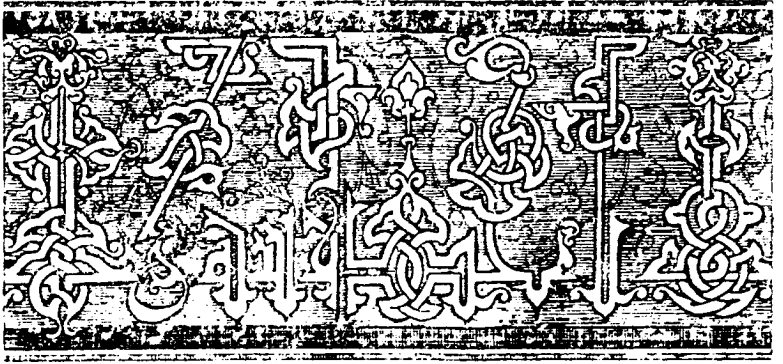
٧ - **ديوان الموالي والغلمان** : وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده .

٨ - **ديوان الجهبنة** : وهو خاص للمحافظة على مصالح غير المسلمين .

يضاف إلى هذه الدواوين دواوين أخرى كثيرة منها : ديوان البريد ، ديوان الشرطة ، ديوان العطاء ، ديوان الدبة ، ديوان الري .

وكان يعهد بإدارة كل ديوان إلى مدير يسمى الرئيس أو الصدر . أما التفتيش فكان يقوم به مفتشون يسمون بالمشرفين أو النظار ، وكان مشرف الممتلكات يضطلع من حين لآخر بالتفتيش على دواوين الدولة ويرفع التقارير الوافية عنها إلى الخليفة .





## الفصل الثامن

البريد

صح

**معنى الكلمة وأصلها :** البريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً . وفي الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

وقد اختلف في الكلمة فبعضهم يقول إنها عربية مشتقة من برد أو أبرد بمعنى أرسل فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وذهب آخرون إلى أنها فارسية الأصل ( بريده دم ) ومعناها مقصوص الذنب وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب دواب البريد لتمييز ذلك عن غيرها من الدواب الأخرى . وكان يطلق البريد على الرسول الذي يحمله .

**مصلحة البريد وزمن انشائها عند العرب :** مصلحة البريد قديمة عرفت عند الفرس والروم . وأول من أنشأه من المسلمين معاوية بن أبي سفيان اقتداء بما كان قبله في الشام أو بما أشار عليه به عماله في العراق .

ورغم أن المصادر لا تذكر شيئاً عن وجود البريد زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، إلا أننا لا نشك بأنه عرف شبيه به في ذلك الوقت . نستنتج ذلك من الاخبار التاريخية التي تذكر ارسال الكتب من قبل النبي عليه السلام إلى من جاوره من الملوك والامراء يدعوم فيها إلى الاسلام . كما أنه لما اتسعت رقعة الدولة وكثرت الفتوحات زمن الراشدين لابد أن الخلفاء كانوا دائمي الاتصال بالقواد والامراء والولاة .

وفي عهد عبد الملك ادخلت على البريد تحسينات كثيرة لاهميتها في تأمين المواصلات والاخبار بين الخليفة والولاة .

قال عبد الملك مرة لأحد رجاله : « ولتلك حجابة باني إلا عن أربعة : المؤذن فإنه داعي الله فلا خجابه عليه . وطارق الليل فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام . والبريد فمتى جاءه من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة إذا حبس البريد ساعة . والطعام إذا أدرك . » وفي الازمات ، وخاصة اثناء الحروب ، نظمت بردية خاصة . من

ذلك ماروي عن عمر بن الخطاب اثناء فتوح العراق ، من نقل الاخبار بينه وبين جند سعد بن ابي وقاص يوماً بعد يوم ، وتبادل الرسائل والتوجيهات والتعليمات والاخبار بين الطرفين ، وما رواه آدم متوفى كتابه الحضارة الاسلامية عن أن علي بن عيسى قد رتب الجملازات ( الجمل والجمال ) من مصر الى بغداد عام ٥٣٠ هـ / ٩١٤ م لتبلغه اخبار محاربة صاحب القيروان .

كما جعل الخلفاء والامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرية يتفقون عليها ، حتى لا يزور عليهم شيء ، ولو كان محتوماً بخاتمهم ، من ذلك ما فعله ابو مسلم الخراساني حين دخل على المنصور وكان يخشى مغبة هذه المقابلة ، فقد استخلف ابو مسلم على عسكره ابا نصر بن الهيثم وقال له : ان جاءك كتابي وهو محتوم بنصف خاتمي فهو خاتمي ، وان كان محتوماً بكل الخاتم فاعلم انه ليس ختمي . . ولما امر المنصور بقتل ابي مسلم ، اخذ

خاتمه وختم به رسالة الى ابن الهيثم ، فلما اطلع عليه هذا الاخير عرف انه كتب وختم رغم ارادة ابي مسلم ، او دون علمه ..

**البريد زمن العباسيين وانشاء ديوان له :** ازداد اهتمام العباسيين بالبريد فانشأوا له ديواناً خاصاً . واعتمد الخلفاء عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون علي بابي أربعة نفر هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم . كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة وهى . أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي . والثالث صاحب خراج لا يظلم الرعية . والرابع .. ( ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات وقال : ) صاحب بريد يكتب إلي بغير هؤلاء على الصحة » .

وقد كتب اليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد فكتب إلى هذا الوالي : « ثكلتك أمك وعدمتك عثورتك ، ما هذه العدة التي أعدتها للكتابة في الوحش ؟ إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلي من عملنا إلى ( فلان بن فلان ) والحق بأهلك مذموماً مدحوراً » .

✓ **مهمة صاحب البريد :** نلاحظ في الامثلة السابقة أن البريد كان واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل أوامر الخلفاء إلى ولايتهم وأخبار الولاة إلى خلفائهم . إلا أن عمل صاحب البريد لم تقتصر على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بكافة الاخبار والحوادث التي يمد بها أعوانه المنتشرون في أنحاء الاقاليم ، أي أنه كان رقيباً ومفتشاً وعيناً للخليفة يرفع التقارير عن أحوال الجند والمال وأحكام القضاة وأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وماكولات وغيرها ؛ فكان عمله يشبه نظام المخابرات والشعبة السياسية كما كان من جملة أعماله أيضاً حفظ الطرق وصيانتها من قطاع والاعداء والجواسيس .

ومن تقارير صاحب البريد نص مقدم الى الخليفة المتوكل ، وكان خارج بغداد ، فيه شكاية على حاكم بغداد ، لانغماسه في ملذاته واهماله امر المدينة يقول التقرير : بسم الله الرحمن الرحيم : يا أمير المؤمنين إن محمد بن عبد الله اشترى أمة بمقدار ١٠٠ ألف درهم ، وهو يسري بها عن نفسه من الظهر الى المساء ويهمل شؤون الدولة . وإن أمير المؤمنين لا يجب أن يرى بغداد في سخط ، لأن أمير المؤمنين يجد صعوبة عندئذ في إقرار النظام . وإن العبد الخاضع يرفع ذلك الى أمير المؤمنين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقد بالغ العباسيون في استخدام البريد حتى قيل إن بعضهم كان يشرف بنفسه على فض البريد للاطلاع على أحوال الولاة والرعية . ولقد بلغ من انتظام ادارة البريد في عهد المنصور أن عماله كانوا يوافونه بالأخبار مرتين في اليوم ، فكان يوقف القاضي عند حده اذا ظلم ، ويرجع السعر الى حالته الأولى اذا ارتفع ، وإن رأى نقصيراً من أحدهم وبخه ولامه أو عزله عن عمله مهاناً .

#### وسائل نقل البريد :

##### ١ - النقل البري :

كان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين ، وكانوا يعلقون في أعناقها جلاجل أو سلاسل اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقرقعة البريد .

وكان الذي ينقل البريد على الخيل في عهد المالك يسمى بريدي ، ويحمله في خريطة ( اي حقيبة ) ، ويضع حول عنقه شرابة من حرير اصفر .. والذي ينقل البريد على الجمال يسمى النجاب .

وفي بعض الأحوال كان يعتمد على السعاة لنقل البريد وهم رجال

خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في مرحلة . وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة . انشأهم في بغداد لاعلام أخيه ركن الدولة بالاحوال سريعاً . ونبغ في أيامه ساعيان هما فضل ومرعوش فاقا سائر السعاة . وعم استخدام السعاة في سائر الدول الاسلامية .

٢- **النقل الجوي** : كان يعتمد في النقل الجوي على الحمام الزاجل . فيكتب المطلوب بصيغة مقتضبة كالتي تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا . وكانت الرسالة تشد تحت جناح الطائر أو في ذيله . وكانت الرسالة يكتب منها صورتان ترسلان مع طائرين بطلقان في أوقات متباعدة قليلاً حتى إذا ضل أحدهما أو قتل أو افترسته الجوارح أمكن الاعتماد على وصول الآخر . وقد جرت العادة الا يطلق الحمام في الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي . يقال ان استخدام الحمام الزاجل كان معروفاً عند اليونان والرومان . ولم يستعمل لدى العرب إلا في عهد المعتصم عندما طيرت اليه أخبار أسر بابك الحارمي . ثم لم يلبث أن انتشر استعماله في الأمور البريدية العادية . وكان نور الدين محمود يستخدمه للاغراض العسكرية كما أنشأ له في كل محطة حظيرة خاصة .

وقد افردت بعض الدول الاسلامية للحمام ديواناً خاصاً ، وألف الكتاب في انساب الحمام المستخدم كتباً ، وميز حمام البريد بمخلائيل من الذهب في أرجله ، وألواح خفيفة في أعناقهم .. وكان الذي يشرف على ابراج الحمام في القلعة بالقاهرة في عهد المماليك يسمى براج .

وكانت بين الاسكندرونة وبين بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب . على أن العرب لم يعتنوا به العناية الكافية وينشئوا له الادوات

الخاصة إلا منذ القرن الحادي عشر الميلادي ولا سيما في مصر حيث كانت له أبراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدده ( ١٩٠٠ ) طائر لها عمال يناط بهم أمر العناية بها .

٣ - **النقل المائي** : وكان يرسل البريد أيضاً على السفن في البحار والانهار وكان الاعتماد على هذا النوع من النقل ضعيفاً إلا اذا كانت الطرق البرية صعبة الاجتياز أو خطيرة أو طويلة .

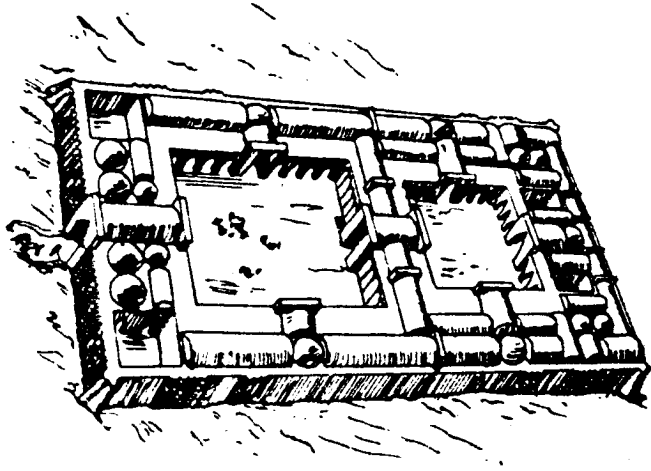
٤ - **المخابرات بالنار والدخان** : أنشأ العرب المسلمون أبراجاً عالية بين بعض البلدان كما فعل الججاج ، والمأمون ، فينشر الدخان نهاراً من أحد الابراج وتوقد فيه النار ليلاً فيراه موظفو البرج التالي فيخبرون بذلك البرج الذي يليهم ... وهكذا دواليك . وكانت هناك اصطلاحات بينهم تشبه اصطلاحات ملاحي السفن البحرية عندما يتخابرون بالمرابا والانوار والأعلام ، واصطلاحات الكشافين بمخابراتهم بالنور وباعلام « السيفاور » .

— **ماذا ينقل البريد** : إلى جانب تأمين المراسلات والأخبار بين الخليفة وعماله ، كان يستخدم البريد لحمل الناس إلى الخليفة أو الأمير التماساً لسرعة قدومهم ، كما أن الجنود كانوا ينقلون من بلد إلى آخر بواسطة دواب البريد . ومعظم المصادر تذكر أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة ولا ندرى إذا كان يستخدم لنقل مراسلات الجمهور أو لنقل المسافرين كما يذكر سيد أمير علي ، إلا أنه مما لا شك فيه أن الطرق التي أقامتها الحكومة للبريد اعتمد عليها التجار في أسفارهم ونقل سلعهم بسبب الأمن الذي كان يسودها . كما أنها كانت نواة للرحلات الجغرافية والبحوث العلمية .

— **محطات البريد** : انشئت في رأس كل مرحلة ، تستطيع وسائط النقل

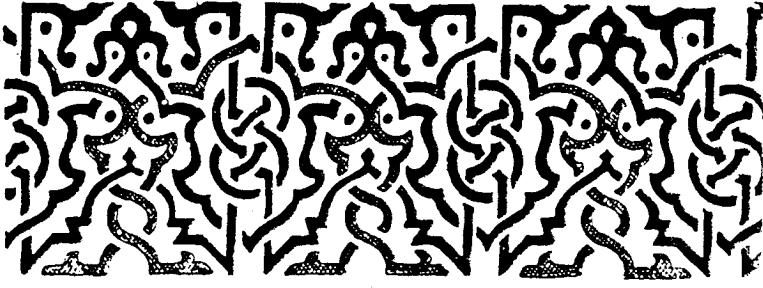


الحيوانية أن نجتازها بيسر ، محطة للقوافل ، عبارة عن خان حصين ، فيه غرف لاقامة رجال البريد . وأماكن لدواب البريد ، واصطبلات لتبادل الخيول ، والعناية بها وبيطونها ، ومطاعم تؤمن حاجة القوافل من الطعام الجاهز أو للمؤونة في الطريق . والتزويد بالمياه اللازمة ... وكان لدى ديوان البريد في كل ولاية تقاويم خاصة فيها ذكر للمسالك في الولاية وأسماء ومراكز محطات البريد ؛ وفي ديوان بريد العاصمة ، نسخة عن كل ما في الولايات ، مع ترتيب وتصنيف بشكل يغطي شبكة المواصلات ومراكز البريد في جميع الامبراطورية . واعتمد كثير من كتاب المسلمين الجغرافيين على هذه التقاويم في أبحاثهم الجغرافية .



شكل - ٣ -

نموذج لخانات البريد التي تؤمن حاجات المسافرين ورجال البريد مأوى وطعام وراحة وخدمات للدواب



## الفصل التاسع

### الشرطة

**مفهوم الكلمة :** جاء في القاموس المحيط : « الشرطة ... هم أول كتيبة تشهد الحرب وتنتها للموت ، وطائفة من أعوان الوالي ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها . »

وقال القلقشندي : « صاحب الشرطة بضم الشين وإسكان الراء هو المعبر عنه في زماننا بالوالي ... وفي اشتقاقه قولان : أحدهما أنه مشتق من الشرط بفتح الشين والراء وهي العلامة لأنهم يجعلون لأنفسهم علامات يعرفون بها . ومنه اشتراط الساعة يعني علاماتها . وقيل من الشرط بالفتح أيضاً وهو رذال المال لأنهم يتعذنون في اذلال الناس وسفلتهم بمن لا مال لهم من اللصوص ونحوهم . »

**نشأة الشرطة :** قال السيوطي : إن أول ، من شرط الشرطة في الاسلام عمرو بن العاص لما ولي اماره مصر . ويميل أكثر المؤرخين إلى القول بأن معاوية هو أول من استعمل الشرطة .

ولكن إذا اعتبرنا الغس نواة للشرطة وهو الطواف لئلا يتبع اللصوص وطلب أهل الفساد ومن يخشى شرهم ، فإن تأسيس الشرطة يرجع إلى ما قبل عمرو بن العاص ومعاوية ، إلى زمن أبي بكر وعمر . فقد

ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن مسعود كان أميراً على العس في عهد أبي بكر . وأن عمر بن الخطاب تولى هو نفسه العس ، وكان يسطحب معه ، مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف .

وكان الناس يتولون حراسة أنفسهم نهاراً . أما ليلاً فكان رجال العس يتولون أمر السهر عليهم . ثم لما تكاثر المفسدون وظهر أمرهم في وضع النهار أنشأ الخلفاء الشرطة لحفظ الأمن والسهر على النظام .

ويظهر أن الشرطة وجدت في الأمصار الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين ، إذ يذكر الطبري أنه وكل إلى أربعائة منهم حراسة بيت المال والسجن في البصرة منذ زمن أبي موسى الأشعري ، وقد برهنوا على تمسكهم بواجبهم فقاوموا الزبير عندما جاء مع عائشة بحرض البصريين على الخليفة علي بن أبي طالب ، فلم يسلّموه المنشآت التي وكلوا بحراستها إلا بعد أن اقنعهم بأحقية دعواه ، بما يدل على ارتباطهم بالمؤسسات دون الأمير شخصياً . وذكر المدائني أن زياد بن أبيه أنشأ له حرساً خاصاً عدد أفراده خمسمائة رجل وأسند قيادتهم إلى عبد الله بن حصن وشيبان بن عبد الله وهما من العرب البارزين في البصرة . وقد كلف زياد شرطته بوظيفة حفظ الأمن ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق والاشقياء والمتمردين والثوار . فكان عملهم محلياً ولا علاقة لهم في الفتوح أو الحملات العسكرية .

وقد جعل لكل حي فرقة من الشرطة مسؤولة عن حفظ النظام وإقرار الأمن فيه ليلاً ونهاراً . وكان عدد رجالها يتفاوت حسب الأحوال ، وقد بلغت في عهد زياد بن أبيه جيشاً كبيراً ، يتسلحون بالعمد والحراب وعليهم رئيس يسمى صاحب الشرطة . وكانت تدفع له ولرجالها رواتب حسنة كي يقوموا بأعمالهم بأمانة وإخلاص .

والشرطة في الأصل تابعة للقضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاء

أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، واقامة التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة القاضي في اثبات الذنب على مرتكبه ، واقامة الحدود كحد الزنا وحد شرب الخمر . ثم تنزيهاً للقضاء ما لبثت أن استقبلت وانفصلت عنه ، وأصبح لصاحب الشرطة حق النظر في الجرائم بعد أن كان عمله محصوراً في منع الفتن والجرائم والقبض على القائين بها . كما كان يسمى صاحب الشرطة أحياناً « صاحب الاحداث » ، ووظيفته حينئذ تصبح نصف حرية ونصف مدنية ، اذ عليه المحافظة على القانون والنظام ، وعليه أيضاً تأديب النافرين واتخاذ الفتن بالقتال .

ويقول ابن خلدون في ذلك : « وكان أيضاً ، النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة القباية والاموية بالاندلس ، والعبيدين بمصر والمغرب واجماً ألى صاحب الشرطة ، وهي وظيفة اخرى دينية ، كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول ، توسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلا ، فيجعل للهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، وبحكم في القود والقصاص ، ويقيم التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة .. »

تطور الشرطة وسلطة صاحبها : كانت الشرطة في العهد الأموي آلة تنفيذ فقط . لا يقوم صاحبها بعمل إلا بأمر الخليفة أو الأمير ، ثم لما جاء العهد العباسي ازدادت سلطته وخاصة بعد انفصال الشرطة عن القضاء وأصبح له حق النظر في الجرائم وإيقاع العقوبات .

يقول ابن خلدون : « ولم تكن سلطة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كانت حكمهم على الدماء وأهل الريب ، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة ، ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالاندلس ونوعت إلى

شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامه . ونصب لـصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوئون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تـصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيعاً للوزارة والحجابة .

وكان رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة الحاكم أو الوالي . وقد شغل هذه الوظيفة في عهد المأمون طاهر بن الحسين حيناً من الزمن ثم عين عاملاً على خراسان .

#### أعمال الشرطة : من واجبات الشرطة :

١ - حفظ النظام : وذلك بمنع الفوضى والتجمعات في الطرق والسهر على المراكب . ومرافقة الخليفة أو الأمير في تنقلاته .

٢ - حفظ الامن : وذلك بمراقبة الأشرار والدعار واللصوص .

٣ - مراقبة المقاهي والحانات واماكن الشرب واللعب : ومنع ما يقع فيها من المخالفات . وقد تشارك الشرطة موظفي الحسبة في أخذ الناس بالصلوات ونحوها من أمور الدين ونهيم عن المنكرات وتأديبهم عليها .

٤ - تنفيذ اوامر السلطات : من تعزيز وتكريم إلى مقتل أو مضادة أو حبس .

٥ - تنفيذ اوامر القضاة كلما احتاجوا اليهم

٦ - مساعدة عمال الخراج : باكرأه المكلفين على دفع ما يستحق في ذمهم .

## ٧ - ادارة السجون : واتخاذ سجل يذكر فيه أمر كل واحد من

المساجين وسبب سجنه .

والسجون ظهرت منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولكنها نظمت في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أوجد لها ديواناً يشرف عليها ، وأمر باعطاء المسجونين رزق الصيف والشتاء ، وكسوة الصيف والشتاء ، والعناية برضاهم ، وان لا يقيد أحد في المحابس بقيد يمنع من اقامة الصلاة ، والفصل بين فئات المسجونين ، بين من يسجن في دين ومن يسجن في جريمة ، وجعل للنساء حبساً على حدة ... بينما تذكر سجون الحجاج في العراق بعدم ملائمتها للصحة العامة ، والقسوة في معاملة المسجونين ؛ وهو أمر تكرر بعد الامويين . فقد ذكر المقرئ في الخطط : ان سجون الفاطميين في مصر كانت أشبه بجحيم الجحيم ، حيث كان السجناء يحشرون في مكان غير مسقف . وهم في الحديد ، يؤذيهم حر الصيف وزمهرير الشتاء ، ويتركون هكذا من غير أن يطعموا شيئاً إلا بما يتصدق به الناس عليهم ، وكان منهم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين يستخدمون في الحفر والعمائر ونحو ذلك تحت اعين « الاعوان » فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن في حديدهم . نلاحظ أنهم كانوا في بعض الأحيان يجمعون بين الشرطة والحسبة . وكان لصاحب الشرطة نواب يشهون المفوضين في هذه الأيام . وربما كان له أصحاب أخبار أو شرطة مربة . نستنتج ذلك مما ذكره القلقشندي قال : « لا عين احد الخلفاء صاحب الشرطة والحسبة قال له موصياً : « ... وأوعز إلى رجالك باطلاعك على الخفايا وإبانة كل مستور من القضايا وأن يتيقظوا لسكنات الليل وغفلات النهار ... » .

ويذكر القلقشندي أن والي الشرطة في مصر يقدم صباح كل يوم تقريراً إلى السلطان يطلعه فيه على كل ما يحدث من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك .

تعيين صاحب الشرطة والشروط التي يجب ان تتوفر فيه : كان الخليفة يعين صاحب الشرطة في عاصمة الدولة . أما في الأقاليم فكان كل أمير يولي صاحب شرطته . وكانوا يتخيرون لهذا المنصب كبار القواد وعظماء الخاصة . وقد ذكر ابن أبي الربيع في كتابه ( سلوك المالك في تدير الممالك ) الذي ألفه للخليفة المعتمد بالله ( ٢١٧ - ٢٢٧ ) هـ ما ينبغي أن يكون عليه صاحب الشرطة من الخصال قال :

« أما صاحب الشرطة فينبغي أن يكون حليماً مهيباً دائم الصمت طويل الفكر بعيد الغور ... »

وأن يكون غليظاً على أهل الزبب في تصاريف الحيل شديد الفطنة . وأن يكون طاهر النزاهة غير عجول . وأن يكون نظره يشرراً قليلاً التسم غير ملتفت إلى الشفاعات ، وأن يأمر أصحابه بملزمة المحابيس وتفتيش الأطعمة وما يدخل السجون .

ويجب عليه عمارة سور المدينة وأبوابها ولم شعنها ومعرفة من يدخلها . وإذا أفرج عن أحد من السجن ثم عاد بجرم فليجعل الحبس قبره .

ويأمر العامة ألا يبيروا أحداً ولا ينفهوه للهرب بل يدلوا عليه وينبغي أن تكون عقوبة الخاص والعام واحدة كما أمرت الشريعة .

ويذكر المقرئ في الخطط ان الشرطة كانت من أهم وظائف الدولة في مصر ، وكان صاحبها من عظماء الرجال ، وكان ينوب عن الوالي في الصلاة ، وفي توزيع الاعطيات ، وبعد بناء مدينة العسكر جعل فيها شرطة اخرى واصبحت الشرطة قسمين :

١ - الشرطة السفلى ومقرها مدينة الفسطاط .

٢ - الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر ( قرب جامع ابن طولون  
وسميت بالعليا لوقوعها على الجبل في مكان عال ) .

ويذكر آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع  
المجري ، أن الشرطة كانت تحمل سلاحاً يسمى « الطبوزين » عبارة عن  
سكين طويلة تحمل معلقة في أوساط رجال الشرطة .

ويمكن أن تلحق ببحث الشرطة وظيفة « العريف » ، إذ تروي كتب التاريخ ،  
ان العرفاء كانوا أهم طبقة من الموظفين الذين اعتمد عليهم الأمراء في تثبيت  
سلطانهم في الامصار ، وفي توزيع العطاء والسيطرة على السكان ، والمساعدة في  
الأعمال الادارية ، وكانت وظيفة العريف معروفة منذ الجاهلية ، وكانت  
صفة الشخص الذي يقود عشرة مقاتلين ( انظر بحث امرة الجيش في نفس  
هذا الكتاب ) ، لكن عمر بن الخطاب كلف العرفاء بتسهيل عملية دفع  
العطاء . واصبح العريف في العهد الأموي مسؤولاً عن « عرافة » يوزع  
العطاء على أفرادها ، ويحق له زيادة العطاء لأي فرد يقوم بدور هام في  
المنطقة ، أو يقترح على الأمير أن يزيدا ، وكان لدى العرفاء سجلات تحوي  
اسماء النسل والأطفال والمقاتلة ونجيباتهم ومقدار عطائهم ومواليهم في عرفاتهم ،  
وهم مسؤولون عن جمع الجند عند التغير كما ذكر الطبري . ومسؤولون  
عن الأمن والنظام في عرفاتهم ، فكانوا يحق حلقة الوصل بين عامة  
الناس وبين الامارة ، يخدمونها بتوزيع العطاء وجمع الجند ومراقبة المشايخين  
والمتمردين ، وبذلك حلوا محل شيوخ العشائر الذين أخذ سلطانهم يتناقص مع  
نمو الحياة في المدن . وقد جاء في رسالة لعمر بن عبد العزيز إلى أمير  
البصرة في عهده عدي بن أرطاة « ان العرفاء من عشائهم بكان ، فانظر  
عرفاء الجند ، فمن رضىت امانته لنا ولقومه فأنبت ، ومن لم ترضه فاستبدل  
به من هو خير منه وابلغ في الأمانة والودع » .





## الفصل العاشر

### القضاء

تعريف القضاء : قال ابن خلدون ما معناه : و القضاء هو الفصل بين الناس في الخصومات حسباً للتداعي وقطعا للنزاع ، بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة . وهو من الوظائف التابعة للخلافة . لهذا كان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ،

وهذا تعريف ناقص لانه يقتصر القضاء على فصل الخصومات القائمة بين الناس . وهذا هو الاصل في القضاء . ولكن القضاء ينظر في غير الخصومات أيضاً كمسائل الاوقاف والايثام والحجز وغير ذلك كما سيرد معنا . ويعبر ايضاً عن القضاء بالحكم بمعنى المنع ومنه سمي الحاكم حاكماً لمنعه الظالم من ظلمه . ومعنى قولهم حكم الحاكم اي وضع الحق في أهله ومنع من ليس له باهل .

مصادر التشريع الاسلامي : ان مصادر التشريع الاسلامي هي : القرآن والسنة والاجماع ( أو القياس والرأي والاجتهاد ) .

١ - القرآن : هو عماد التشريع لأنه يعتبر أساس الأصول التي يرجع اليها فقهاء المسلمين في استنباط الأحكام الشرعية وقد ذكرنا أن آياته تنقسم إلى مكة ومدينة .

وإن الآيات المكية قصيرة تدعو إلى توحيد الله وتقيم البراهين على وجوده وتذكر بيوم القيامة وما سيحدث فيه من بعث وحساب يتبعهما ثواب وعقاب . بينا الآيات المدنية طويلة تبحث في التشريع التفصيلي وقصص الغزوات وما كان فيها وأسبابها . وفي القرآن شرائع اجتماعية فيما يتعلق بالأسرة وتكوينها ونظامها وهو يسمى اليوم بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث أو النهي عن أكل أموال اليتامى والحض على المحافظة على أموالهم إلى غير ذلك . وشرائع مدنية أي ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض كالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، والحض على الوفاء بالعهود ، وإباحة الربح في التجارة ، وحظر التعامل بالربا ، والامر بكتابة الدين والاستشهاد عليه إلى غير ذلك . وما يتعلق بالقصاص أي الامور الجنائية . كما نجد فيه الشرائع الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة .

وقد قام التشريع في القرآن على أسس ثلاثة :

١ - عدم الحرج أو الضيق : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » .  
« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

٢ - تقليل التكاليف : هو نتيجة لازمة للأساس الاول « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

٣ - التدرج في التشريع : وعماد هذا المبدأ أخذ الناس بالرفق لاصلاح أمورهم وبالتدرج حتى يصل شيئاً فشيئاً إلى المستوى المراد رفعهم اليه دون أن يشعروا بانقلاب أو بالارهاق المعجز عن بلوغه . وفي القرآن آيات كثيرة تبحث في ذلك أهمها التي نزلت في الحمر والميسر .

٢ - السنة : هي أفعال وأقوال النبي ﷺ . وهي تستمد أحكامها من القرآن ومن اجتهاد النبي وفطنته واستشارته لأصحابه . وتعتبر السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمل من أحكامه ، ومن الأحكام التي فصلتها

السنة وكانت مجملة في القرآن كما سبق أن ذكرنا أحكام الصلاة إذ فرضها القرآن دون ذكر أوقاتها أو طرق أدائها وعدد الركوع والسجود فيها . وقد قال عليه الصلاة والسلام « صلوا كما رأيتموني أصلي » وخذوا عني مناسككم . وقد أمر القرآن بالزكاة ، ولكنه لم يعين المقدار الواجب أدائه ولا موعد الأداء وشرطه . كما أن السنة تبحت في قضايا لم يرد ذكرها في القرآن . وذلك أن السنة قد ورثت الجدة على حين أن القرآن لم يجعل لها نصيباً في الميراث .

٣ - الاجماع : أوجد القرآن الكريم أحوالاً عامة في التشريع وترك لعلماء المسلمين باب الاجتهاد مفتوحاً لكل ما يعتوض حياتهم الجديدة من أمور لم تكن في حياة الرسول ، فإذا أجمع علماء مصر من الأمصار على أمر من الأمور الدينية مستندين بذلك إلى روح الشريعة الإسلامية كان ذلك حجة . وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه في بعض الأمور . وكذلك فعل أبو بكر من بعده فإنه إذا ورد عليه الحُصوم ولم يجد في كتاب الله ولا في السنة نصاً يقضي به وأعياء الأمر كان يجمع كبار الناس وخيارهم يستشيرونهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به .

ويعتبر الاجماع مفتاح التطور في الشريعة الإسلامية لانه يكفل لها حياة متجددة تمشي مع مقتضيات الاحوال المتغيرة .

٤ - القياس : وهو قياس حادثة طارئة على حادثة ثانية فيها نص أو اجماع لاتحاد العلة فيها .

ولكن بعض المسلمين توسعوا في القياس حتى أطلقوه على النظر والبحث في مسائل لم يرد فيها نص . وكانوا يطلقونه أحياناً على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، أي جعلوه مرادفاً للرأي . وخاصة أهل العراق الذين اعتمدوا كثيراً

على الرأي وزعيمهم في ذلك أبو حنيفة . وكان ذلك طبعياً بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية واختلاف نظام المعيشة بين الحجاز والعراق .

وفقهاء العراق لم يقتصرُوا في الاجتهاد أو الافتاء على ما يقع من أحداث بل تعدوا إلى فرض الفروض والاجتهاد في استخراج الحكم الصحيح في حوادث لم تقع أو يندر حدوثها ، وذلك بعكس علماء المدينة الذين وقفوا موقفاً معاكساً فقد كرهوا الرأي والقول به وامتنعوا عن الفتيا وقد ساعدتهم على ذلك كثرة الحديث عندهم وعدم تطور الحياة تطوراً كبيراً مما كانت عليه زمن النبي .

### التشريع الاسلامي والقانون الروماني :

يتم بعض الباحثين كالاستاذ شيرمان Sherman والاستاذ آموس Amos والاستاذ غولد زهر Goldziher وغيرهم الشريعة الاسلامية بانها استحدثت بعض احكامها من القانون الروماني . معززين اتهامهم :

١ - بوجود تشابه في بعض المصطلحات العلمية بين الطرفين مثل Jurisprudencia ( فقه ) و Opinio ( رأي ) :

٢ - بوجود تشابه في بعض النظم القانونية بين الشريعتين من حيث التقسيم الى : اشخاص والتزامات واموال .

٣ - بوجود مبدأ : البيئة على من ادعى واليمين على من انكر في كلا الشريعتين .

ان اقوال هؤلاء الباحثين لا تستند على اساس علمي ولا منطقي صحيح ، ووجود التشابه ، ليس من باب الاقتباس ، وإنما تشابه الأحكام في نفس الظروف ، والدين والمنطق السليم ، يتباين ولا يختلفان ، والتشريع الديني انزل لمصلحة بني البشر ، وحل مشاكلهم اليومية ، وكذلك

القوانين ، فلا حاجة للاقتباس مع وجود التشابه وجميع القوانين القديمة قالت يبدأ العين بالعين دون ان تقتبس من بعضها . ويدحض الكتاب ادعاءات هؤلاء المتهمين ويرون ان زعمهم باطل لاسباب عديدة منها :

١- ان نظريتهم لاتؤيدها براهين قاطعة ولا تستند على حجج قوية كما يمكن ان نلاحظ من اراهم السابقة .

٢- اذا وجد تشابه قلعل سبه تلك الظروف الاجتماعية الواحدة التي مرت بها كل منها .

٣- اننا لانجد مصدراً عربياً او غير عربي يشير الى ان العرب اخذوا شيئاً عن القانون الروماني .

٤- انه لا يوجد سبب يدفع المؤرخين العرب وغيرهم فيما لو كان هناك اقتباس الى انكاره . فالمصادر التاريخية تبين ان العرب نقلوا كثيراً من العلوم واقتبسوا وترجموا حتى انها تذكر اسماء المترجمين والكتب التي عربوها ولكنها لاتلمح قط انهم نقلوا شيئاً عن القانون الروماني .

### تطور القضاء :

القضاء زمن النبي ﷺ : احتكم المسلمون الأوائل إلى الرسول عليه السلام واعتبر حكمه ملزماً حين نزلت الآية : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » .

وبذلك يعتبر النبي أول قاضي في الاسلام ، وكان يستمد أحكامه من الله سبحانه بقوله تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما

جاهك من الحق، كما أنه كان يستشير أصحابه ويجتهد في بعض الأحكام وكانت طرق الإثبات عنده : البيئة واليمين وشهادة الشهود .

ولما فتح المسلمون بعض الأمصار بعث النبي عليه السلام ولاية . فكان الوالي هو الحاكم وهو القاضي . ولم يعرف أنه عين في بلد من البلدان رجلاً اختص بالقضاء . كما أنه أذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس معتمدين على الكتاب والسنة والاجتهاد .

**القضاء زمن الراشدين :** سار أبو بكر بسيرة الرسول في الإدارة الإسلامية ولما استلم الخلافة قال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فكثرت عمر سنة ، وقيل سنتين ، لا يأتيه متخاصمان . ولكنه لم يتخذ لقب قاض ؛ إذ أن أبا بكر كان يباشر هذه المهمة بنفسه وقد فوض إلى عمر أحياناً النظر في الوقائع التي كان يدلي بها الخصوم إليه .

ثم لما جاء عمر فصل بين الولاية والقضاء بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة البلاد الإسلامية ، وبعد أن تعذر على الخليفة أو الوالي أن يجمع مع النظر في الأمور العامة الفصل في الخصومات .

وإلى جانب ذلك يمتاز عهد عمر في القضاء بذلك الكتاب المشهور الذي أرسله إلى أبي موسى الأشعري قاضي الكوفة والذي يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل بها القضاة . وقد بين فيه كثيراً من نظام القضاء وأصوله والذي نعتبره بمثابة دستور القضاء الذي يسرون على هديه في الأحكام وفيه يقول : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك ؛ أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلي إليك ، وانفذ إذ تبين لك فإنه لا ينفع تكلم لا نفاذ له . آس

بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يياس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصالح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . . . ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك بما ليس في كتاب الله ، ولا سنة النبي ﷺ ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهي إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسامون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنباً في ولاء أو نسب ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم ، والتكر عن الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس في نفسه شأنه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام .

وكان عمر يستشير الصحابة وخاصة علي بن أبي طالب عملاً بقوله : ( ماشقي امرؤ عن مشورة ولا سعد باستبداد برأي ) : وكذلك فعل علي من حيث استشارة الصحابة . وبما يؤثر عنه أنه عرضت عليه قضية كثر فيها الشهود فدعاهم متفرقين وأخذ إفادتهم ، والكتاب يسجل أقوالهم فوجد تناقضاً في أقوالهم فهدم وضيق عليهم فأقروا . بالحقيقة فقال علي : ( الله أكبر أنا أول من فرق بين الشاهدين ) .

## القضاء زمن الامويين : تميز القضاء في هذا العهد :

- ١ - كان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء ودفعه إلى من يقوم به ، وانقطع هو عن النظر فيه لانشغاله في أمور الدولة .
- ٢ - تقدم فكرة الرأي باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع .
- ٣ - ظهور أهل الحديث الذين قاوموا أهل الرأي ولم يأخذوا إلا بنصوص الكتاب والسنة .

٤ - البدء بتسجيل الاحكام ، وسبب ذلك أن قاضي مصر في خلافة معاوية حكم في الميراث بين ورثة متخاصمين ، ثم تناكروا الحكم فعادوا اليه ف قضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه الجند .

## القضاء زمن العباسيين : حصلت تطورات هامة في القضاء زمن العباسيين .

- ١ - اتساع سلطة القاضي وأعماله إذ عليه الفصل في الدعاوى والارواقف والنفقات وتنصيب الاوصياء وأضيفت إليه أحياناً الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال وغيرها .

## ٢ - نشوء المذاهب الأربعة وهي :

- أ - مذهب الامام أبي حنيفة إمام أهل الرأي والقياس .
- ب - مذهب الامام مالك الذي يعتمد على الحديث .
- ج - مذهب الامام الشافعي الذي جمع بين الحديث والرأي والقياس .
- د - مذهب الامام ابن حنبل الذي يتفق مع مذهب الامام مالك من حيث اعتماده على الحديث .

وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر حكمه وفق هذه المذاهب أو أحدها .

- ٣ - تدخل السياسة في القضاء إذ عمل الخلفاء على حمل القضاء على السير



وفق رغبتهم في الحكم . حتى امتنع كثير من الفقهاء من تولي القضاء كما فعل أبو حنيفة لما كلفه المنصور .

٤ - وجود منصب قاضي القضاة وهو بمثابة وزير العدل اليوم . يولي القضاة من قبله على الأقاليم ويقم هم في حاضرة الدولة . وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك في عهد الرشيد .

٥ - ظهور الاصطلاحات الفقهية ، كما وضعت الكتب في صفات القاضي وعمله ومجلسه .

**ديوان المظالم :** كان ديوان المظالم بمثابة محكمة استئناف عليا يلجأ اليه المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل . كما يلجأ اليه المتظلمون من تعدي ذوي الجاه والحسب أي من الولاة أو جباة الأموال أو كتاب الدواوين أو من أحد أبناء الخليفة أو الأمراء وغيرهم . لم يفرد للمظالم أوقافاً محدودة أحد من الخلفاء الراشدين لأن المتظلمين كانوا يستطيعون مراجعة الخليفة متى شاؤوا .

ثم أفرد الخلفاء يوماً خاصاً لرد المظالم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك ابن مروان ، وكان يكلف أحياناً قاضيه ابن ادريس الأزدي القيام بهذه المهمة . وكان عمر بن عبد العزيز يباشرها بنفسه ثم أهملت بعده إلى زمن العباسيين وكان أول من جلس منهم للمظالم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد والمأمون . وآخر من تولاها منهم المهدي . على أنهم كانوا كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب إلى وزراءهم كما فعل المأمون ليعبي بن أكرم والمعتمد لأحمد بن أبي دؤاد . وثم لما غاب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم إليهم .

كانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد وتتألف من خمس جماعات لا يستغني عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم :

١ - الحماية والاعوان : لتغلب على كل من نجدته نفسه بالالتجاء

إلى القوة أو العنف أو الفرار أثناء القضاء

٢ - الحكام : إبردوا الحقوق إلى أصحابها بعد الإحاطة بما يجري

بين الخصوم وما يصدر من الأحكام .

٣ - الفقهاء : أرجع إليهم عندما يشكل على صاحب المظالم مسألة

من المسائل الشرعية .

٤ - الكتاب : لتدوين ما يحصل أثناء الجلسة من أقوال الخصوم .

٥ - الشهود : الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضي لا ينافي الحق

والعدل والشريعة الإسلامية .

وكان اختصاص من ينظر في المظالم واسعاً يشمل كما يذكر صاحب

كتاب الأحكام السلطانية :

١ - النظر في تعدي الولاة على الرعية ، وأخذهم بالعسف في السيرة .

٢ - جور العمال فيما يجبونه من الأموال .

٣ - كتاب الدواوين ، فيتصفح أحوال ما وكل إليهم .

٤ - نظم المستزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم . وإجفاف

النظر بهم .

٥ - رد الغصب ، سواء كانت سلطانية تغلب عليها ولاية الجور ،

أو كانت مما تغلب عليها ذو الأيدي القوية .

٦ - مشاركة الوقوف (الأوقاف) فيتصفحها لإجربها على سبلها ،

ويضئها على شروط واقفها إذا عرفها .

٧ - امضاء ما عجز القضاء أو غيرهم عن امضائه ، لعل قدر المحكوم

عليه وعظم خطره .

٨ - النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة في المصالح العامة .

٩ - مراعاة العبادات الظاهرة كالجُمُع والاعياد والحج ، والجهد ، من تقصير فيها واختلال بشروطها .

١٠ - النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين .

وهذا يبين لنا الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء ومدى سلطة قاضي المظالم .

(دار العدل ومجلس القاضي) : كان القاضي يجلس في داره أو في المسجد أو في السوق ، وربما ركب ونجول في البلد ، ويقف حيث يُطلب للقضاء . وأول من بنى داراً خاصة للقضاء الملك العادل نور الدين زنكي في دمشق وأسمّاها دار العدل . كما فعل ذلك من بعده الأيوبيون في مصر . ثم انتشرت بعد ذلك في سائر الأمصار .

وكان القاضي يبعث حاجبه إلى موضع جلوسه فيحفظ من جاء أولاً ، فأولاً ، فيقدمهم على هذا الترتيب حتى يأتي القاضي للفصل في الخصومات ولا يقدم أحداً على من جاء قبله لفضل منزله أو سلطته ، ويقعد الرجال على حدة والنساء على حدة . وكان للغرباء ميزة في أن القاضي يقدمهم على غيرهم في معالجة الأمور .

مساعده القاضي : كان يساعد القاضي في أعماله :

١ - الخاجب : الذي يرسله إلى موضع جلوسه ليحفظ ترتيب المتقدمين

٢ - الجلواز : أو الشرطي ، يتقدم على رأس القاضي لتهذيب المجلس ، ويده سوط يؤدب المناق ويزنبره من يخل بأداب المجلس .

٣ - الكاتب : لتدوين أقوال المتخاصمين وتسجيل الأحكام .

٤ - الخازن : لحفظ إضرارات الدعاوى .

٥ - الأعوان : يرسلهم القاضي لاحتضار الخصوم .

٦ - الترجمان : لنقل أقوال الأعاجم إذا كان في بلد يكثر فيه من  
لا يجسن العربية ويكفي واحد والاثنتان أفضل .

٧ - العدول : أي الشهود الذين يعتمد القاضي عليهم وقد نشأت مهنتهم  
لما تكاثر شهود الزور . من شأن أصحابها :

آ - أن يكتبوا للمتعاقدين عقوداً صحيحة على وجه الشرع ويشهدوا عليها .

ب - أن يشهدوا أمام القضاء بما يقع من الأمور في حضرتهم

ج - أن يكشفوا للقاضي عن حقيقة الشهود الذين يسمعون المتخاصمون

فإذا ان يزكواهم فتقبل شهادتهم وإما أن يحرمهم فترفض .

٨ - أهل الشورى : وهم من أهل الفقه والعلماء ( وكانت لهم دار

خاصة في قرطبة ) يرجع إليهم القاضي في تقرير الأحكام ويستشيرهم إذا  
عصى عليه أمر كي لا يقع في خطأ . إلا أنه يستشيرهم أمام الخصوم .

**القضاء وأهل الذمة :** يقضي الدين الاسلامي باحترام حرية الأديان

الساوية ، فأوامر القرآن والسنة صريحة في تقرير المساواة التامة بين

المسلمين والذمين في جميع المعاملات وتحض على العمل في قضائهم بمقتضى

أحوالهم الشخصية . فقد قال تعالى : « فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم

وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط

إن الله يحب المقسطين » . ومن هذه الآية الكريمة نعلم أن الذمين كانوا غير

مجبزين على العمل بأحكام الشريعة الاسلامية ، بل كانت لهم الحرية في

اتباع أحكام دينهم في كل المسائل حتى في الجنائية منها . وهو ما يستفاد

من قوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم

أمة واحدة » وقال تعالى « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه » .

وتشير المصادر إلى حوادث كثيرة كان الذميون فيها يتقاضون لدى القاضي المسلم الذي يفصل في أمورهم سواء كان الخصم مسلماً أو غير مسلم . ولما فتح عمرو بن العاص مصر قسمها إلى عدة مناطق وعين على كل منطقة قاضياً قبطياً يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين ، وفق شرائعهم ، لأنه أكثر فهماً لحالتهم ولاخلافهم . وإذا وقع نزاع بين عربي وقبطي عرض النزاع على مجلس مؤلف من قضاة الطرفين .

**شروط القاضي وتعيين القضاة :** كان يشترط في القاضي شروط كثيرة وهي :

١ - **الحرية :** لأن العبد لا يملك الولاية على نفسه فمن باب أولى أن لا يملكها على غيره .

٢ - **العقل :** أي العقل الذي يجعل صاحبه صحيح التمييز ، جيد الفطنة ، بعيداً عن السهر والغفلة يتوصل بذلك إلى إيضاح ما أشكل .

٣ - **البلوغ :** لأن الصبي ناقص التمييز وليس له ولاية على نفسه فلا يعقل أن تكون له ولاية على الناس .

٤ - **الإسلام :** ويجوز تقليد غير المسلم القضاء بين أهل دينه

٥ - **العدالة :** يفسرها الماوردي بقوله : « أن يكون صادق اللهجة ، صادق الأمانة ، عفيفاً عن المحارم ، متوقفاً المآثم ، بعيداً عن الرب ، مأموناً من الرضا والغضب .. »

٦ - **سلامة السمع والبصر والتفكير**

٧ - **العلم :** أي أن يكون عارفاً بأسرار التشريع وأن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره بتفسير أو تأويل . وبعضهم أجاز تولية الأمي القضاء إذا كان صحيح الفهم ولا يوجد في البلد أصلح منه .

٨ - الذكورة : أي ليس المرأة أن تتولى القضاء في أي شيء .  
ولكن أبا حنيفة أجاز قضاءها فيما يصح فيه شهادتها .

هذه هي الشروط ، إنما يجب أن تتوفر في القاضي صفات لا بد منها  
لينجح في عمله كالفهم في الوقائع والاستدلال بالامارات وشواهد الحال  
ومعرفة بالفراصة مع جودة القريحة وحدة النظر .

ويروى عن فطنة وذكره القضاء فصغر كثيرة منها : أن شريحاً بن  
الحارث (توفي سنة ٥٧٨ هـ) قاضي الكوفة جاءته امرأة تخاضم رجلاً فارسلت  
عينها وبكت فقال له أحدم يا أبا أمية ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة  
فقال ان إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يكون .

ويروى عن نباهة القاضي إياس (توفي ١٠٤ هـ) قاضي الكوفة أن  
رجلاً أودع عند آخر مالا فبعده . فسأله فأنكر ، فقال المدعي . أين دفعت  
إليه ؟ فقال : في مكان في البرية . فقال : وما كان هناك ؟ قال : شجرة . قال :  
اذهب إليها فلعلك دفنت المال عندها ونسيت فتذكر إذا رأيت الشجرة ، فضى  
وقال للخصم : اجلس حتى يرجع صاحبك . وإياس يقضي وينظر إليه ساعة بعد أخرى  
ثم قال له : يا هذا أترى صاحبك بلغ مكان الشجرة ؟ قال : لا . قال : يا عدو الله  
انك خائن : قال : أقاني أقالك الله . فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال  
له إياس : اذهب معه فخذ حقاك منه .

ويروى عن نزاهة القضاء أن قاضي مصر ابن عبد السلام ( المتوفى  
٥٧٠٢ هـ ) افتى بشيء ثم ظهر أنه أخطأ فتأدى في المدينة عن نفسه : من  
أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فانه أخطأ .

أما في تعيين القضاء فان عمر بن الخطاب قال ما من أمير عين والياً

أو استقضى قاضياً محاباةً إلا كان عليه نصف ما اكتسب من الأثم . وإن  
أمره أو استقضاه لمصلحة المسلمين كان شريكه فيما عمل من طاعة الله تعالى  
ولم يكن عليه شيء مما عمل من معصية .

كان الخليفة نفسه هو الذي يختار القاضي في العاصمة ؛ أما في الأقاليم فكان الوالي  
يفعل ذلك . وكانوا في المدن الكبرى يعينون عدة قضاة . كما كانوا يعينون  
قاضياً للعسكر في مصر للفصل في خصومات الجند .

وكانت عادة الخليفة إذا أراد أن يعين قاضياً أن يكتب له سجلاً  
(مرسوماً) وفيه يبين فضله واحتياج الناحية إلى قضائه . وكان هذا السجل  
يقراه أحد اتباع القاضي على المحنثين احتفالاً بالقاضي الجديد في المسجد  
ثم يسلمه سجل الخليفة .

ثم صار قاضي القضاة بعد أحداث هذا النصف زمن الرشيد هو المسؤول  
عن تعيين القضاة والمشرف على أمورهم .

قال النبي ﷺ : « إذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر » .  
ومع ذلك كان الفقهاء ينظرون إلى القضاء كواجب يصعب على الإنسان  
القيام به بطريقة ترضي الله والعباء لكثرة اشغاله وخطورة مسؤوليته .  
وكانوا إذا عرض عليهم تخوفوا منه ونهروا عنه . وكان من أسباب تخوفهم  
بعض الأحاديث مثل : « قاض في الجنة وقاضيان في النار » ، ومن استقضى فقد  
ذبح بغير سكين ، إلا أن العلماء يقولون إن مثل هذه الأحاديث موجهة  
للقضاة الظالمين الجائرين الجاهلين . ورواه بأحدث الأخر إن القاضي  
ذبح الحق .

ومن مشاهير الفقهاء الذين رفضوا القضاء الامام أبو حنيفة ، فقد عرض  
عليه قضاء الكوفة في آخر زمن الامويين فأبى ، فكانت الوالي ابن هبيرة

يضره في كل يوم عشرة أسواط مدة عشرة أيام فلما رأى امتناعه تركه .  
وفي زمن العباسيين دعاه المنصور إلى القضاء فأبى ، فسجنه .

**رواتب القضاة وملابسهم :** عمر بن الخطاب هو أول من رتب أرزاق  
القضاة فجعل للقاضي سليمان بن ربيعة الباهلي ( ٥٠٠ ) درهم في الشهر ورتب  
لشريح قاضي الكوفة مائة درهم مع مؤنته من الخطة . أما الإمام علي  
فقد قال لعامله على مصر : أفسح للقاضي في البذل ما يزيل علة وتقل معه  
حاجته إلى الناس . ورتب لشريح ( ٥٠٠ ) درهم في كل شهر .

وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك زمن الراشدين . أما في عهد  
الأمويين فقد تصاعدت رواتب جميع موظفي الدولة ومنهم القضاة . وكان  
راتب القاضي في عهد مروان بن محمد ( ١٠ ) دينار في الشهر .

فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر في الشهر مثلاً ( ٣٠ ) ديناراً .  
ثم تصاعد الراتب زمن المأمون وأصبح ( ٤٠٠٠ ) درهم أي نحو ( ٢٧٠ )  
ديناراً شهرياً . وربما كان ذلك لسبب خاص إذ بعد ذلك عاد الراتب إلى  
( ١٠٠٠ ) دينار في السنة ثم تدنى إلى ( ٥٠٠ ) زمن المعتضد .

ومن بعد ذلك دخل القضاة في الالتزام مثل الحراج . وأول ماجرى  
ذلك في أيام معز الدولة بن بويه سنة ( ٥٣٥ هـ ) فقد التزمه ابن أبي الشوارب  
وسمي قاضي قضاة بغداد على أن يؤدي ( ٢٠٠٠٠٠ ) درهم كل سنة .

لم يكن للقضاة زي مخصوص قبل عهد قاضي القضاة أبي يوسف إذ أنه  
ميزهم بلباس خاص يعرفون به . ويقول القلقشندي : كان القضاة والعلماء  
يلبسون العمام من شاشات كبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه  
ذوابة تلتقي طرف سرجه إذا ركب ، ومنهم من يلبس فوق ثيابه دلقاً  
متسع الاكمام طويلاً ، مفتوحاً فوق كتفيه سابلًا على قدميه . ويتميز قاضي



القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره . وان كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم الصوف الأبيض . ويلبسون الخفاف من الادم الطائفي .

وكان القضاة يركبون البغال النفيسة المساوية في الاثان لمسومات الحياول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ، ويجعلون حول السرج فرجية من جوخ . وكان قاضي القضاة في الدولة الفاطمية يقدم له من اصطبلات الخليفة بغلة شبيهة يركبها دائماً وهو يختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة .

الكتاب . صورة تزيين كتاب « رسائل اخوان الصفاء »





## الفصل الحادي عشر

### الحسبة

اصل الكلمة في اللغة ولدى الفقهاء : اختلف الكتاب في معنى كلمة المحتسب فبعضهم يقول انها مشتقة من قولهم حسبك بمعنى اكشف لأن المحتسب يمنع الناس من الغش وارتكاب المحظورات . وفي القاموس المحيط : « احتسب عليه ، أنكر ، ومنه المحتسب » . ويقال فعلت هذا الأمر حسبة لله واحتسبه عند الله . أي جعلت حسابي عليه وأجرى منه . أما الفقهاء فيقولون : لأنها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وكذلك عرفها ابن خلدون بقوله : « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين » .

وعرفها ابن تيمية بأنها : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما ليس من اختصاص الولاية والقضاة والديوان ونحوهم ، فالاحتسب على رأي ابن تيمية « يلزم بالجمعة » والجماعات ، وبصدق الحديث وأداء الأمانات ، ونهي عن المنكرات من الكذب والحيانة وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك والغش يدخل في السوء بكتان العيوب وتدليس السلع ، كما يدخل في الصناعات » .

منشأ الحسبة : تضاربت أقوال المؤرخين في منشأ الحسبة ، فالبعض

يقول : أن الرسول ﷺ كان أول محتسب إذ نهى عن الغش حين قال : من غشنا ليس منا . وورد في صحيح مسلم : أن الرسول عليه السلام مر على جنزة طعام فأدخل يده بها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فقال أجابته النساء يا رسول الله . قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس منا . وروى أن الرسول عليه السلام ولي سعيد بن سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة . وولي عمر بعده أم الشفاء الانصارية على السوق ، وربما كان لأمر تتعلق بالنساء ؛ ولذلك يقول آخرون بأن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة . وكان يطوف الشوارع والأسواق ودرته معه ( هي من جلد البقر أو الجمل محشوة بنوى التمر ) فتمى رأى غشاشاً خفقه بها مهما يكن شأنه وربما اتلف بضاعته .

لأنك بأن الخلفاء والأمراء كانوا يقومون بعمل المحتسب من مراقبة التجار وأرباب الحرف بمنع الغش واستعمال المكييل والموازين الصحيحة الخ . ولكن القصد متى عين للحسبة موظف مخصوص . اجمع المؤرخون على أن الحسبة نشأت في العهد العباسي . ولكنهم اختلفوا في تحديد تاريخ نشوئها . فبعضهم يجعلها في عهد الرشيد وآخرون يجعلونها في أيام المهدي أو الهادي أو المأمون .

ولكن المرجح أنها كانت معروفة زمن المنصور إذ جاء في تاريخ الطبري عن أخبار سنة ( ١٤٦ هـ ) .. أن رجلاً يقال له أبو زكريا ولاء المنصور حسبة بغداد والأسواق ..

الحسبة والقضاء : يقول ابن خلدون : « ان الحسبة خادمة لمنصب القضاء » . وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية « في مصر والمغرب والأندلس ، داخلة في أعمال القاضي يولي بها اختياره من يقوم عليها » .

وكانت الحسبة تجمع أحياناً إلى منصب آخر غير القضاء . فنعم الدين الانصاري مثلاً كان ( ٦٥٧ هـ ) وكيل بيت المال في دمشق ومحتسباً .

كما كانت تجمع إلى الشرطة أيضاً . اذ يروى أن ائتك سلطان دمشق طلب محتسباً ، فذكر له رجل من أهل العلم فأمر باحضاره فمما نظره قال : إني وليتك أمر الحسبة على الناس بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ان كان الامر كما تقول فقم عن هذه الطراحة وارفع المسند فانها حرير واخلع هذا الخاتم فانه ذهب وقد قال النبي ﷺ . هذات حرام على ذكور أمتي ، حلّ لافاتها . فنقض السلطان عن طراحته وأمر برفع المسند وخلع الخاتم من اصبعه وقال : ضمنت إليك النظر في أمور الشرطة .

ثم تنزهاً للقضاء وتخفيفاً من الأعمال الكثيرة أفرد موظف خاص للحسبة .

**أعمال المحتسب :** أعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية ؛ ولا نجد في الوقت الحاضر موظفاً حكومياً أو دائرة رسمية لها سلطة شبيهة بسلطة المحتسب ، فانه يشبه رئيس البلدية ومدير الاعاشة ورئيس الشرطة الاخلاقية ومدير الشؤون الاجتماعية وغير ذلك من الوظائف .

ويمكن أن نجمل أعمال المحتسب بالنواحي التالية :

١ - **مراقبة التجار وأرباب الحرف :** أي مراقبة كل صاحب مهنة يتكسب منها . مما يكن نوع هذه المهنة . حتى أنه كان يراقب الأطباء وبأخذ عليهم عهد ابقراط . ويجوز الطبيب على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه . وكانت الشروط التي توضع على الحجازين في النظافة لا تجد لها مثيلاً في الوقت الحاضر .

جاء في كتاب معالم القربة في احكام الحسبة لابن الاخوة القرشي في فصل الحسبة على الفرائين والحجازين : « ينبغي ان يأمرهم المحتسب برفع سقائف افرائهم ، ويجعل في سقوفها منافس واسعة للدخان ، ويأمرهم

بكنس بيت النار كل تعميرة ، وغسل المعاجن وتنظيفها .. ولا يعجن العجان بقدمه ولا بروكته ولا برفقيه ، لان في ذلك مهانة للطعام وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه او بدنه .

ويراقب المحتسب ما يغشون به الخبز من الكرم والزعفران ، فانها يوردان وجه الخبز . ومنهم من يغشة بالخص والقول .. ويلزمهم الا يخبزوه حتى يخبتر ، فان الفطير يثقل في الميزان والمعدة ، وكذلك اذا كان قليل الملح .. ولا يخرجون الخبز من بيت النار حتى ينضج نضجاً جيداً من غير احتراق ... ، ويجب ان يكون العجان مثمناً لانه ربما عطس أو أو تكلم .. وبشد على جبينه عصاية بيضاء لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين . وإذا عمن في النهار فليكن عنده انسان على يده مذبة يطرد عنه الذباب .

## ٢ - مراقبة الاسعار والموازين والمنكرات الاقتصادية :

يرى ابن تيمية ان من وظيفة المحتسب مراقبة المنكرات الاقتصادية ، مثل عقود الربا والميسر ، ويسع الغرر .. والنجش وهو زيادة في ثمن السلعة لمن لا يريد شراءها كما يفعل الكثيرون في المزادات .. وتحديد اسعار المواد الغذائية والضرورية فقل : « لولي الأمير ان يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه ، مثل من عنده طعام لا يحتاج اليه والناس في محصة ( مجاعة ) فانه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل .. وما احتاج الى بيعه وشرائه عموم الناس فانه يجب ان لا يباع الا بثمن المثل اذا كان الحاجة إلى بيعه وشرائه عامة .. » وعلى المحتسب منع الاحتكار ، والمحتكر هو الذي يعمد الى شراء ما يحتاج اليه الناس من الطعام فيجبهه عنهم ويريد إغلاؤه عليهم ، وهو ظلم للخلق ..

وابلغ من هذا ان يكون الناس قد التزموا الا يبيع الطعام او غيره  
الا أناس معروفون . فهذا يجب التسعير عليهم بحيث لا يبيعون الا بقيمة  
المثل ، ولا يشترون الا بقيمة المثل . ومن المنكرات تلقي السلع قبل  
ان تجيء الى السوق فان النبي عليه السلام نهى عن ذلك لا فيه من تغريب  
البائع ، فانه لا يعرف السعر فيشتري منه المشتري دون القيمة . .

كما ذكر البلاذري انه كان من عادة الامام علي بن ابي طالب ، ان  
يطوف بسوق الكوفة ويده الددة ، ويراقب الاوزان والمقاييس المستخدمة  
فيها ، حتى يمنع التلاعب بها . . كما يروى ان الخليفة الاموي الوليد بن عبد  
الملك طاف بنفسه في اسواق دمشق وراقب الموازين والمكاييل ، وامر  
بتخفيض الاسعار ، رغم أن هذه المراقبة كانت من واجب « المحتسب » .

٣ - مراقبة الاخلاق العامة : كمنع شرب الخمر علنا ومنع الناس من  
تطير الحمام ومنع السعار والكهان عن منكراتهم ومنع تعرض الرجال  
للنساء الخ . . .

وقد جاء في كتاب معالم القربة : وكذا طرح الكناسة على جوار  
الطريق ، وتبديد قشور البطيخ ، او رش الماء بحيث يخشى منه الترحلق  
والسقوط ، وكذا إرسال الماء من المزاريب الخارجة من الحائط الى الطرق  
الضيقة ، فان ذلك ينجس الثياب ، ويضيق الطريق ، وكذا ترك مياه المطر  
والاوحال في الطريق من غير كسح ، فذلك كله منكر ، وليس يختص  
به شخص معين ، فعلى المحتسب ان يكلف الناس به .

٤ - مراقبة العبادات : اذ يأخذ المحتسب المسلمين بعبادة الجمعة  
والجماعة والأعياد وينعمهم من الافطار في رمضان . ويعنى بنظافة الجامع  
ومهيته . حتى ان أحد المحتسين في بغداد منع القاضي من الجلوس في

الجامع حرصاً على نظافته من المتخاصمين ... وانه لتدخل المرأة اليك  
ومعها الطفل فيبول على الحصير . أو يأتيك رجل غير منتعل يكون قد  
مشى في المواضع القذرة فبطاً الحصير ودارك أولى .

٥ - مراقبة الابنية والطرق : فيأمر بهدم الابنية البارزة . وينع  
فتح النوافذ في الابنية التي تشرف على غيرها . ويدعو أصحاب الدور  
المتداعية إلى هدمها ورفع انقاضها . ويراقب متقاعد الاسواق ( البسطات )  
فيمنع ما يضر منها بحركة المرور .

٦ - اعمال مختلفة : اجبار السادة بمعاملة عبيدهم وامانهم بمعاملة حسنة  
وأخذ أبواب البهائم بعلوقتها وان لا يستعملوها في ما لا تطيق ( يكون المسلمون  
قد سبقوا بمئات السنين جمعيات الرق بالحيوان التي يدعي الغربيون أنهم  
أول من أنشأها ) . والسر على الاطفال اللقطاء والتكفل بهم . وجمع  
وحفظ الأشياء الضائعة وإعادتها إلى اصحابها .. ومنع معلمي المكاتب من  
ضرب الصبيان ضرباً مبرحاً ، ومنع الخالين واهل السفن من الاكثار في الحمل .

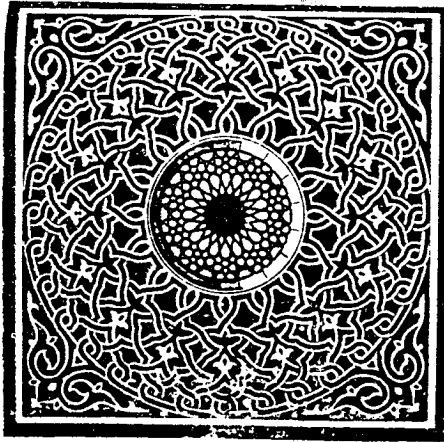
مجلس المحتسب وراتبه : كان للمحتسب دار خاصة به تسمى دار  
الحبة يقيم فيها ويصرف منها جميع أعماله . فهو امان يطلب جميع الباعة  
إلى هذه الدار في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايرها . أو  
يرسل نوابه في الشارع لتفقد الاحوال فيها . وكان أحياناً أخرى يخرج  
ويطوف بنفسه في الاسواق ويراقب نظامها ويعاقب الخالفين . وينع  
المنكرات ويزج ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة  
في المدينة ، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم  
فيما يصل إلى علمه من ذلك أو يرفع إليه .

وتذكر المصادر ان مجلس المحتسب يكون أحياناً في المسجد . ففي

مصر مثلاً كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر  
وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

**العقوبات :** كانت عقوبات المحتسب : اتلاف البضائع الفاسدة . اراقة  
الخمور . منع التاجر الغشاش من العمل واعلان اسمه ليتجنبه الناس . وأما  
الضرب والحبس والتعنيف فكانت أموراً مألوفة . كذلك كان يستعمل  
عقوبة ( التجريس ) اي التشهير ببعض الصناع الذين يسيئون الائتات  
ويغشون ، وذلك بان يركب المذنب على جمل أو حمار من الخلف ويطاف  
به في الاسواق ويجعل بلباس خاص يحوي الكثير مما يلفت أنظار الناس  
كالاجراس وأذئاب الثعالب . وتتبعه افواج الصبيان ينعتونه باعنف الاوصاف  
وينالون من شرفه وكرامته بشكل لا يقوم له بعد ذلك كيان . فقد ذكر  
انه اذا كذب احد التجار في مصر على عهد الفاطميين ، على أحد المشتريين  
أو باع بأكثر من الثمن ، فانه يدفع بالتاجر على جمل ، ويعطى جرساً  
بيده ، ويطوف به في المدينة وهو يصدق الجرس ويقول : قد كذبت  
وها انا اعاقب ، وكل من يقول الكذب فيجزأؤه العقاب .

وكان المحتسب يستعين بطائفة من الموظفين لتنفيذ العقوبات على  
المستحقين لها يسمون « الاعوان » .







## الفصل الثاني عشر النظام العسكري - الجيش

المقاتلون في صدر الاسلام : لم يعتد العرب في جزيرتهم ترتيب الجيوش المنظمة ، كما كان عند الأمم الاخرى كالفرس والرومان ، او عند العرب القدماء كالأشوريين والمصريين والفراعنة وغيرهم ، بل كان كل شاب قادر على حمل السلاح يفزع مع قبيلته ويسير للغزو ، حاملاً سلاحه التقليدي من سيف ورمح وقوس ، ولم يعرف تنظيم الجيوش منهم إلا من كان باحتكاك دائم مع الدول المجاورة كالمناذرة والغساسنة الذين كانت لهم فرق خاصة للقتال . فقد ذكر أن المناذرة اتخذوا كتيبتين دعيت إحداهما الدوسر ، ودعيت الثانية الشهباء . ولما جاء الإسلام وأمر المسلمون بالقتال ، أرسل الرسول أصحابه للتعرض لقوافل قريش ثم قام بالحروب ضد الجاهليين ، فصار يقود بعض المواقع بنفسه ، ويرتب رجاله قبيل القبيل القتال ، ويضع الكمين ، ويأمر بعض الأفراد بالتريث في الهجوم ليفاجئوا العدو ... ونبغ في عهده كثير من القادة العرب الذين وقفوا بأنفسهم وحياتهم على الدفاع عن الدين الجديد ونشره . وأم القادة خالد بن الوليد المبكر والمبدع في فنون القتال ، الذي

قسم جنده إلى فئات ، وكان يرسل الامداد تلو الامداد في بعض المواقع حتى يدخل في روع العدو كثرة عدده أو يبدل مواقع المينة والميسرة والقلب ، يشعر عدوه بحلول فرق جديدة بدل القديمة ، حتى يمكن اعتباره بالنسبة لفنون القتال العربية في الصحراء مبدعاً في خططه وأعماله ، كما يعتبر الاسكندر المقدوني ، وفريدريك الأكبر ونابليون بونابرت مبدعين في الفنون العسكرية في أيامهم ...

**الجهاد في الاسلام :** كان القتال محرماً على النبي ﷺ قبل الهجرة لضعف المسلمين وقلة عددهم . وكان يدافع عن مبادئه بالحجة والبرهان والنصح والاقناع . هكذا أمره تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ، أي بالقرآن .

فلما اشتد اذى قريش هاجر النبي الى المدينة ، وكثر عدد المسلمين فيها ، وأصبحوا أهلاً للدفاع عن انفسهم بالحرب والنزال والله كفيل بنصرهم وتأيدهم ( أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ) .

وكانت أهم الأسباب التي دفعت المسلمين الى الحروب هي :

١ - الدفاع عن النفس رد المغيرين . ( وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ) .

٢ - تأمين الدعوة والدفاع عنها .

٣ - مجاربة من ينقض العهد .

٤ - رد الامن الى نصابه اذا قامت الفتن والثورات .

٥ - فتح الفتوح وتوسيع رقعة البلاد .

٦ - الدفاع عن الرأي الذي يراه المسلمون صالحاً لاستقامة الامور كما

جرى في عهد عثمان لما حصلت الفتنة .

وكان النبي ﷺ يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته بخدمة

الجرحى ويهين الطعام ويقدم الماء ويحطن الثياب والقرب ويحسمن من يحتاج الى تحميس ، واشهر منهن : ربيعة الاسمية وأختها كعبة ونسبة بنت كعب المازنية التي ردت عن النبي ﷺ ضربة تلقفها بجسمها في معركة أحد فجرحت جرحاً أجوف به غور .

### وصايا امراء الجيوش :

استن الرسول عليه السلام لمن بعده من حكام المسلمين ، أن ينصحوا الجيوش الغازية ، ويعظوا القادة ، فكان عليه السلام يوصي سراياه المقاتلة أحسن الوصايا من ذلك ما روي عنه قوله : « أغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغرروا ، ولا تملأوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً ، وكان عليه السلام ينهى في مغازبه عن النهبة فيقول : من انتهب نهبة فليس منا » كما قال في صدد منع التفريق في السبي بين الولد ووالدته : « من فرّق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أحبه يوم القيامة » .

وقلّده أبو بكر ، فأوصى جميع الجيوش الإسلامية الغازية أو الذاهبة لإعادة الإسلام بين المرتدين ، ومن قوله إلى جيش أسامة بن زيد : « أيها الناس ! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تحزنوا ، ولا تغلوا ، ولا تغرروا ، ولا تملأوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبجوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع دعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكتب أبو بكر إلى قواده في حرب الردة عهداً صورته واحدة قال فيه : « هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ ( لفلان .... ) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره ، كله ، سره وعلايته . وأمره بالجد في أمر الله ، ومجاهدة من تولي عنه

ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان ، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعة الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرأوا له .... وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤثّر الماسون من قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل . ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .

ومن وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص حين أنقذه لفتح العراق :  
« وترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم سيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم ساثرون إلى العدو مقيم ، حامي الأنفس والكراع ( الخيل ) . وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمّونهم ( يصلحون ) ، أسلحتهم وأمتعتهم ، ونجّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تتقّ بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولّوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو ، فأذكّ العيون بينك وبينهم ، ولا تخفّ عليك من أمرهم شيء . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك . وليكن منك عند ذنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا إمدادهم ومراقبتهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة . واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلال ، ولا تخص أحداً بهوى ،

فتضيق من رأيك وأمرك أكثر مما حايبت به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ، أو نكابة ، فإذا عانيت العدو فاضم إليك أقاصيك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرمك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كعرفة أهلها بها ، فتضيق بعدوك كصنعه بك . ثم أذكِ حراسك على عسكرك ، وتيقظ من الليالي جهديك .

**الجنديّة الإجباريّة :** وإذا كان جمهور المسلمين تطوعوا راغبين في الجهاد امتثالاً لأوامر الله ، وحباً في النصر في الدنيا أو جنات النعيم في الآخرة ، فإن فئة منهم تقاعست عن واجبها حتى في عهد الرسول ﷺ فدعيت بالمنافقين ، فئة أخرى اندفعت للقتال بعدما رأت ما يفتح الله على يديها من بلاد ، وما تنغم من أموال ومتاع وزخرف الحياة ، ولما ندب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب المسلمين لحرب الروم والفرس لاحظ تقاعس بعض الناس رهبة من هاتين الدولتين الكبيرتين ، فعمد إلى الحزم في التجنيد فأرسل كتبه إلى الأقاليم لتجنيد المقاتلة ذكر فيها « ولا تدعوا ... أحداً من أهل النجدة ، ولا فارساً إلا جلبتموه ، فإن جاء طائعاً ، وإلا حشرتموه » ولما وضع عمر الديوان سجل فيه أسماء المسلمين جميعاً ورتب لهم أرزاقهم السنوية ، وأفرد للجنود منهم دفاتر خاصة هي « ديوان الجند » تدفع لهم فيها رواتب من بيت المال ، إضافة إلى ما يصيبهم من الغنائم من أسهم ، وكان على هؤلاء تلبية داعي الجهاد كلما دعا إلى ذلك ، مع بقاء باب التطوع لمن يريد ممن لم يذكر في الديوان من سكان البوادي والأمصار . ولما قامت الحروب الداخلية أيام الخلاف بين علي ومعاوية ثم من بعدهما ، انضم إلى كل فئة فريق من المحاربين ، ووقف فريق آخر موقف الحياد ، ولكن بغد استتباب الأمر للأمويين ، لم ير الخلفاء بدأ من إجبار الناس على الجهاد حسب أوامر الخليفة ، وكان أول

من شعر بذلك هو الخليفة عبد الملك بن مروان عندما أراد أن يخمّد الثورات التي قامت في عهده ، وقام الحجاج والي العراق بتطبيق مبدأ الجندية الاجبارية ، يدلنا على ذلك خطبته في أهل العراق عندما أمرهم بمحاربة الحوارج مع جيش المهلب بن أبي صفرة وقوله فيها : « وإني والله لا أجد رجلاً تأخر بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه » وقيل إن الرجل صار يسرع إلى معسكر الجيش قبل أن يستكمل معداته ويهيئ طعامه - إذ كان الجندي يؤمن جميع معداته ووسائل حياته لا الحكومة - ويطلب إلى أهله أن يوافوه بها في المعسكر العام خارج المدينة خوفاً من انتقام الحجاج منه ، وهذا أول الجندية الاجبارية ، ثم صار من بعد ذلك لدى الدولة الاموية نوعان من الجيوش : الدائمة ودعيت بالمرتقة ، والاحتياط أو المطوعة ، وهي التي تتطوع للقتال في الايام العصية .

X ( واصبحت الجندية في العصر العباسي ) - كما يقول ابن الاثير في الكامل ، مهنة مربجة ، وكان الجند يترقبون المرتبات فان سلمت إليهم في إبانها والاستغبوا على من أخرها ، وربما قتلوه . كما كانوا لجشعهم ينتهزون ادنى المناسبات للمطالبة بالمال ، والشطط في ذلك إلى حد المطالبة بثلاث سنين مقدماً أو اكثر ، ويصف في موضع آخر ، كيف اشترط احد قادة الأمن على الخليفة حين امره بالخروج للاقاء جيش الامين منها : « أن يأمر لاصحاب هذا القائد برزق سنة مقدماً ، وتحمل معهم ارزاق سنة أخرى ، ويزاد أهل البلاء ، وان لا يسأل الخليفة قائده عن حساب ما فتحه من المدن والاقاليم ، وهل بعد هذا تعسف من قائد عسكري تجاه خليفة ؟

\* ادخال العناصر غير العربية في الجيش : وإذا كان اعتماد الجيوش العربية في عهد الراشدين والامويين على العصر العربي فقط ، فان العباسيين

اعتمدوا على العناصر غير العربية ، فآلفوا منهم فرقاً خاصة كالفرق الفارسية والتركية ، وأبقوا لديهم المالِك ، وعرفت بعض الفرق الحراسانية بالاشروسية كما أطلق على سكان الجوف من مصر اسم المغاربة ، وقد أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء . وشهد العصر العباسي نزاعاً بين العنصرين العربي والاعجمي رؤيت آثاره في كثير من حوادث ذلك العصر ، كمقتل أبي سلمة ، وأبي مسلم ، ونكبة البرامكة ، والنزاع بين الأمين والمأمون ، وقتل هروثة بن أعين القائد العربي ، وقيام الدولة الحمدانية العربية ، وكانت نتيجة هذا النزاع أن اضمحل النفوذ العربي وتسلط الاعاجم على الدولة ، واحتفظ الخليفة بسلطته الدينية الرمزية فقط .

**المعسكرات :** كان المسلمون في بادئ الامر يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا عليه في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط وحوله فساطيط الأمراء والخاصة ؛ وإذا كانت النساء والاولاد معهم جعلوهم وراء المعسكر . وقد منع عمر بن الخطاب الجنود من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة وأمرهم أن يسكنوا في معسكرات خاصة تقام في ضاحية المدينة على ألا يكون بينهم وبين الخليفة بحر أو نهر . ولذلك لم يقيم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى بل أقاموا على ضفاف الفرات بما يلي بادية الشام في البصرة والكوفة . ولم يقيم جند مصر في الاسكندرية عاصمة البلاد بل في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط على شاطئ النيل الشرقي قرب موقع القاهرة اليوم .

وبازدياد عدد الجنود والخاصية صار المعسكر أشبه ببلد فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون وأرباب الحرف والأتباع وغيرهم .

وكان للعرب على حدود دولتهم من جهة البر والبحر ، وخاصة بينهم وبين البيزنطيين ، معسكرات دلتة ، بل مدن محصنة دعت بالثغور والعواصم ،

# معسكر اسلامي في القرن الثامن الهجري



شكل - ٥ - معسكر اسلامي في القرن الثامن الهجري



فيها الحاميات والاسلحة ، يكون فيها الجند على أهبة الحرب للدفاع عن حدود المملكة أو الهجوم على العدو وغزو بلاده . وأشهرها : طرسوس وبياس ومرعش وملطية ومنبج ورفع والعريش ودمياط والاسكندرية في مصر .

**التدريب العسكري :** .كان اهتمام العرب في الجاهلية للتدريب على القتال اهتماماً كبيراً فحياتهم البدوية نفسها من تقشف وتنقل وغزو ودفاع عن النفس هي عبارة عن مران حربي دائم . وكان أفراد القبيلة يتمرنون منذ حداثنهم على لعب الرمح ورمي النشاب وركوب الخيل وأساليب الدفاع عن النفس .

ثم لما تنظموا في زمن النبي ﷺ وتوحدت صفوفهم أصبحت الضرورة تقتضي بالاستعداد والتأهب لقتال الأعداء . وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها :

« ... فارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا .... »  
« ومن ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة كفرها » « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » .

وكانت للعرب ألفاظ ومصطلحات خاصة لكل حركة من حركات الجيش منها : الميل . الانقلاب . الانتقال . استدارة صفوى وكبرى . رجوع إلى الاستقبال . استدارة مطلقة . اتباع الميمنة . اتباع الميسرة . جيش منحرف . جيش مستقيم .. تقدم . الخ ..

فكانوا إذا أراد القائد أن يميل جنده إلى جهة أو يتخذ شكلاً خاصاً من هذه الأشكال أو حركة من هذه الحركات ناداه بكلمة من هذه الكلمات .  
**فرق الجيش :** كان الجيش العربي في بادئ الأمر يتألف من المشاة

والفرسان يحملون الرماح والسيوف والأقواس والسهام . ويلبسون الخوذ والدروع . كذلك وجد منذ عهد النبي فرقة المدرعات التي استعملت المنجنيق والدبابات والضبور . وستكلم عنها في بحث الأسلحة .

ثم بقديم ورفي الدولة العربية تنوع أساليب القتال وتعددت الفرق حسب تنوع الأسلحة وتخصيص الأعمال . وكانت أشهر فرق الجيش التي عرفت زمن ازدهار الدولة العربية الإسلامية هي :

١ - **الفرسان** : وكان يتألف منهم معظم الجيوش العربية في العهود الإسلامية الأولى ، ويتسلحون بالرماح ، وتشكل منهم فصيلة من رماة السهام كان أكثر أفرادها في العهد العباسي من الخراسانيين أو من سكان شمال فارس المشهورين منذ القديم بتسديد السهام وإصابة المرمى على متن الخيول .

٢ - **المشاة** : ويعملون عقب هجوم الفرسان .

٣ - **الطليعة** : هي سرية من الفرسان يلبسون الدروع والخوذتين ويحملون الرماح المربوط بأسننها بأقات من ريش النعام ، يتقدمون الجيش عادة بعدة أميال .

٤ - **الكشافة** : يعتمد عليها للاستطلاع . وقيل أن قتيبة استخدمها أيضاً لاستحضار خرائط البلاد التي كان ينوي غزوها .

٥ - **الحرس الخاص** : لحراسة الخليفة أو أمير الجيش وكان أكثرها أيام الدويلات المنفصلة .

٦ - **الفلمان** : وهي فرقة يقوم أفرادها كخدام خصوصيين للخليفة ويتدربون على الفنون الحربية ويعيشون في ثكنات منفصلة عن ثكنات باقي الجيش بمقتضى نظام عسكري خاص ، وتشكلت هذه الفرقة بعد أن كثرت اقتناء الممالك .

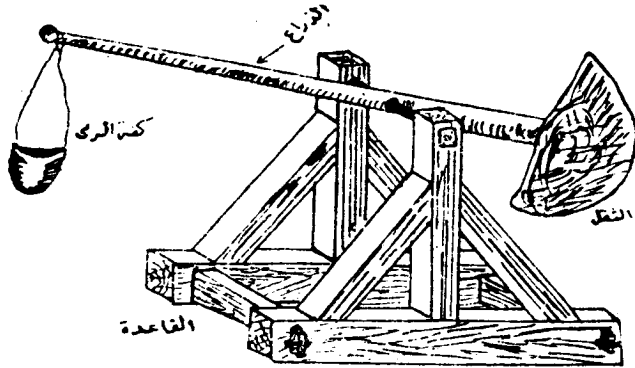
#### ٧- النشابون او الرماة : وقد اشتهرت منهم فرقة تدعى رماة الحدق

لمقدتهم على رمي احدى عيني الغزال دون الأخرى . وجاء في العقد الفريد أن الواحد منهم كان يعلق ضاً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائه حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطئ واحدة منها ، وكانت هذه المهارة في الرمي مشهورة منذ الجاهلية إلى مختلف العصور الاسلامية .

#### ٨ - النفاطون : الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء .

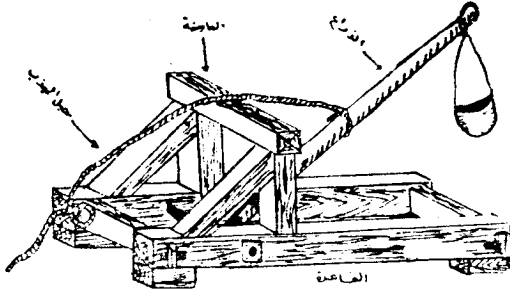
#### ٩ - المنجنقيون : رماة المنجنيق ويسمون أيضاً بالمهندسين وكان يطلق

على رئيسهم اسم أمير المنجنقيين . وكان من أشهرهم يعقوب بن جابر المنجنقي الذي اشتهر في الدراسات العسكرية وألف كتاباً اسمه « عمدة المسالك في سياسة الممالك ، عالج فيه كل ناحية من نواحي الحرب كاللعبنة



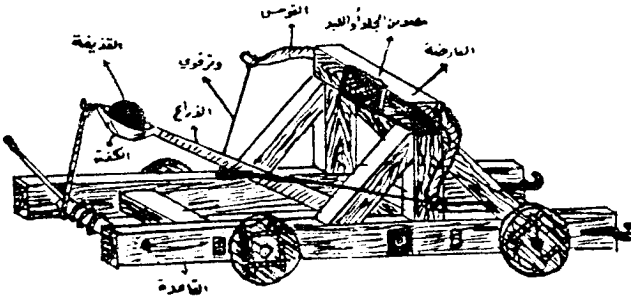
شكل - ٦ -

منجنيق ، قاعدته من الخشب السميك ، يرتفع في وسطه عمود خشبي متين ، يركب في أعلاه ذراع المنجنيق القابل للحركة ، يتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والحديد . وتقذف هذه المواد بجذب أعلى الذراع نحو الأرض بقوة ويؤمن قوة الجذب عدة رجال اشداء



شكل - ٧ -

نموذج آخر من المنجنيق الذي استخدمه المسلمون  
ويمتاز باستخدام حبل يساعد على شدة القذف



شكل - ٨ -

منجنيق استعمل في عصر متأخر في البلاد الاسلامية

والاستيلاء على الحصون وتشييد القلاع والفروسية والهندسة والحصار وتركيب  
المكائن الحربية وصفات الحيل وأنواع الخيالة .

١٠ - العيارون : رماة الاحجار من الخيالي .

١١ - المماريون : يحملون المعاول مع السيوف والتروس .

١٢ - مستشفيات الميدان : فيها الأطباء والصيدالة ونقلات هي عبارة

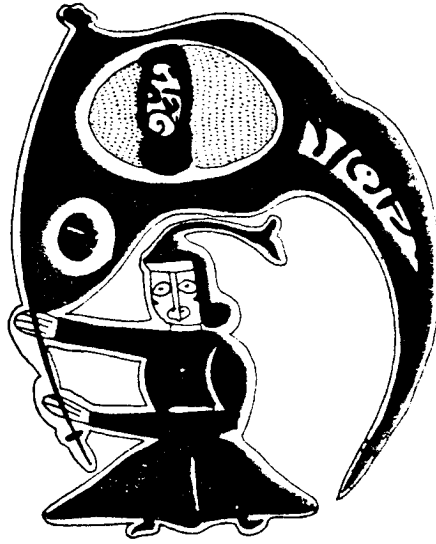
عن محفات تحملها الابل .

١٣ - الجواسيس : وقد اعتمد عليهم العرب منذ أيام النبي ﷺ .  
إذ قبل يوم حنين بعث الرسول عليه السلام عبد الله الأسلمي وأمره أن  
يدخل في صفوف عدوه فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق  
عبد الله حتى دخل فيهم وسمع منهم ما أجمعوا عليه من حرب المسلمين .  
ثم أتى النبي وأخبره الخبر . كما كان لقريش جواسيس على النبي أيضاً .  
ثم في عهد الأمويين والعباسيين كان يعتمد على رجال يتزبون بزي التجار  
والأطباء وغيرهم ويدخلون أراضي العدو ويتسقطون أخباره .

عدد الجند : كان عدد الجند الاسلامي في أواخر أيام النبي ثلاثين  
الفاً من المشاة وستة آلاف فارس . أما في أيام أبي بكر وعمر فقد بلغ  
مئة وخمسين الفاً وتضاعف العدد في أواخر أيام الراشدين . أما في زمن  
الأمويين فقد بلغ عدد جنود العراق ( ١٤٠.٠٠٠ ) ومعهم من النساء  
والأولاد ( ٢٠٠.٠٠٠ ) . وكان في مصر أربعون ألفاً ما عدا النساء والأولاد  
وكان جند الشام نحو ذلك غير من في فارس وغيرها .

ونجمل عدد الجند في أيام العباسيين إلا أننا نستدل من بعض الروايات  
أنه كان كبيراً . قيل إن الرشيد حمل على هرقلية بجيش عدده ( ١٣٥ ) ألفاً  
من المرتقة عدا الأتباع والمطوعة . وروى ابن خلدون أن المعتصم نازل  
عمورية بجند عدده ( ٩٠٠.٠٠٠ ) . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة  
الإخشيدية بصر ( توفي سنة ٢٣٤ هـ ) ( ٤٠٠.٠٠٠ ) جندي وثانية آلاف  
مملوك .

إمرة الجيش : كان النبي ﷺ نفسه هو قائد الجيش وكان يسند  
القيادة إلى غيره في بعض الأحيان . وفي زمن الراشدين أصبح من الصعب  
على الخليفة أن يقوم بهذه المهمة بنفسه فأخذ يختار القواد ممن عرف بالشجاعة  
والمقدرة والإقدام وحسن التدبير .



شكل - ٩ -

صورة حامل اللواء في الجيش ، موجودة على صحن اسلامي  
مشر عليه في خرائب مدينة سامراء العباسية من صنع القرن الثالث الهجري

وجرى بعض التعديل في امرة الجيش في العهد الأموي عما كان عليه  
في صدر الاسلام . كما حدث تغيير في العصر العباسي أيضاً . وسنكتفي  
بذكر الوضع الأخير لرتب الجيش في العهد العباسي .

- ١ - العريف على عشرة رجال .
- ٢ - النقيب د د عرفاء أو ( ١٠٠ ) نفر
- ٣ - القائد د د نقباء أو ( ١٠٠٠ ) نفر
- ٤ - الأمير د د قواد أو ( ١٠٠٠٠ ) نفر

## تنظيم القوات البرية لجيش المسلمين

في عهد نشر الدعوة خارج الجزيرة العربية

وتحرير عرب الاطراف

الجيش ( ۱۰ آلاف مقاتل او اكثر )

القائد العام ( الامير )

قيادة التعبئة		قيادة التعبئة	
٥٠٠٠ مقاتل	٥٠٠٠ مقاتل	٥٠٠٠ مقاتل	٥٠٠٠ مقاتل
كردوس	كردوس	كردوس	كردوس
١٠٠٠ مقاتل	١٠٠٠ مقاتل	١٠٠٠ مقاتل	١٠٠٠ مقاتل
سرايا ( مجموعها ١٠ )		سرية	سرية
		سرية	سرية
		١٠٠٠ مقاتل	١٠٠٠ مقاتل
		١٠ مقاتلين	١٠ مقاتلين

### جدول بين قيادات المسلمين في عهد الراشدين والامويين

## ومقارنته بقيادات الروم والقيادات العربية الحالية

عدد القتلى قيادة جيش المسلمين قيادة جيش الروم الرتب العربية الحالية

١٠ آلاف	أمير الجيش	بطريق
٥ آلاف	أمير التعبئة	طومر خان
الف	أمير الكردوس	عميد
٢٠٠	قائد السرية	طرنجارية (درانجری) مقدم
١٠٠	النقيب	القومس
٤٠	الخليفة	القومس
١٠	عريف	القمطرخ (ملازم)
		الدمرداخ
		نقيب
		رقیب

شکل - ۱۰ -

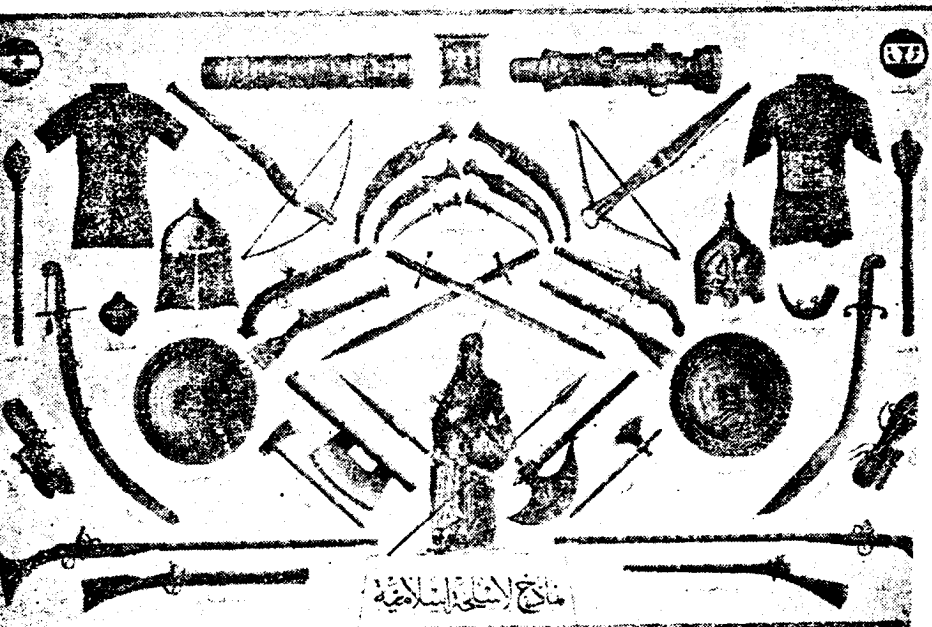
جدول لتشكيل الفرق العسكرية الاسلامية ولترتب الضباط

عن مقال في مجلة المجمع العلمي

العراقي مجلد ٢١

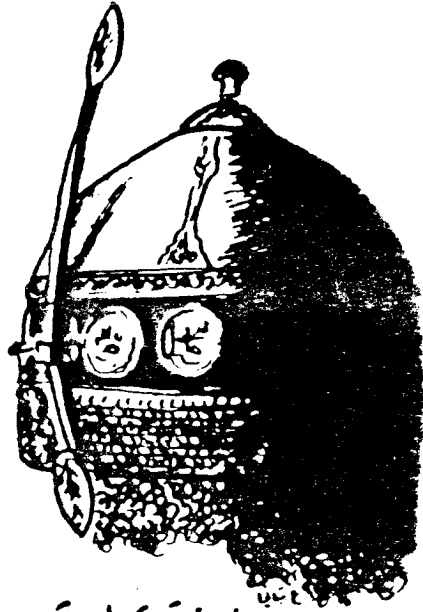
**اسلحة الجند :** كانت الأسلحة التي استعملها العرب في الجاهلية هي :  
 السيوف والرماح والحراب والأقواس والسهام والدروع والخطوذ وقد  
 استعملوها في صدر الاسلام أيضاً . وأدخل النبي ﷺ أسلحة جديدة .  
 يقال انه أرسل إلى اليمن بعضاً من أصحابه لتعلم صناعة الدبابات والمجانيق  
 والضبور . وتذكر بعض المصادر أن سلمان الفارسي هو الذي أرشد  
 المسلمين إلى المنجنيق ويقال إنه صنعه لهم بيده .

وقد اصطنع العرب لرمي السهام آلات لعلم أخذوا بعضها عن الفرس  
 كالمجراة التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر وهي عبارة عن أنبوب من  
 حديد أو خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً . كما اصطنعوا  
 ضروباً من المنجنيق لرمي عدة سهام .



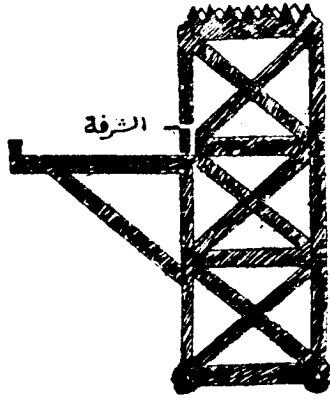
شكل - ١١ -  
 نماذج الأسلحة الإسلامية ، مما جمعه أحد المتاحف





خوذة عربية

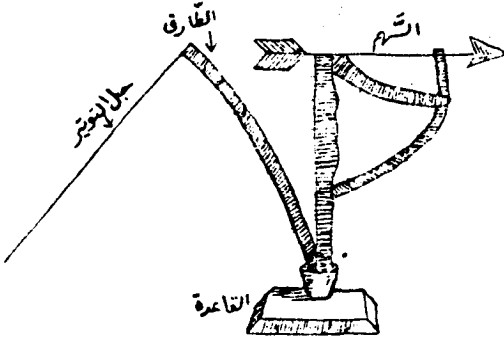
شكل - ١٢ - خوذة عربية عليها كتابات بالكوفية



الدبابة

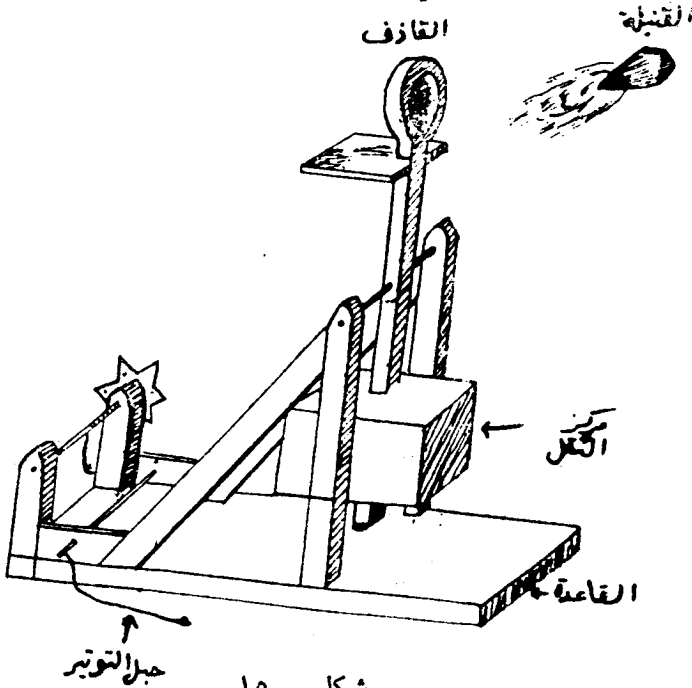
شكل - ١٣ -

شكل من أشكال الآلة الحربية التي سماها العرب الدبابة وكانت معروفة في جزيرة العرب قبل الإسلام وخاصة عند أهل الطائف



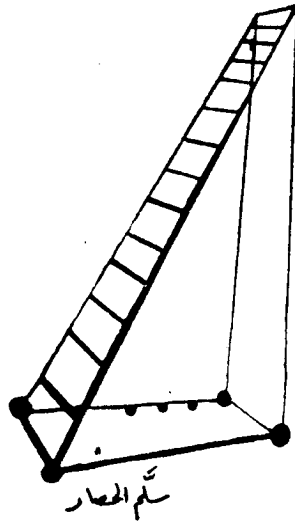
شكل - ١٤ -

رمي السهام الى مسافات بعيدة لا يقدر عليها الرامي العادي بواسطة الشاب



شكل - ١٥ -

يعتبر هذا المنجنيق ، أحد الاسلحة المتطورة التي استخدمها المسلمون ، بعد العصر الاموي ، حيث ادخلوا الصنعة في انتاج حاجاتهم العسكرية ، والعلم التطبيقي فيما كانوا يستعملونه



شكل - ١٦ -

سلم من سلالم الحصار ، يصعد المحاربون بواسطته الى اعالي الاسوار ، ليقترحمونها من الاعلى . وقد استعمل العرب المسلمون الاوائل سلالم من الحبال والخشب ، كما فعل خالد بن الوليد في حصار دمشق

وكانت السيوف على أنواع منها البانية والهندية والسليمانية والحراسانية والدمشقية وكانت قليلة الصلابة وكانت أسياف البيزنطيين أمتن منها . لذلك كان العرب إذ صابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وتوارثوه مثل خيف ذي الفقار لعلي بن أبي طالب توارثه أهله ثم أخذه المهدي ثم الهادي فالرشيد كما تقول الرواية . وسيف العصامة لعمر بن معدي كرب .

وأشهر آلات الحصار التي عرفوها المنجنيق لرمي الحجارة أو النار وأول من استعمله الفينيقيون وعنه أخذ اليونان والفرس ومثله المقلع ، وكان اول استعمال لهاتين الآلتين الحربيتين في حصار دمشق سنة ١٣ هـ ، وروي انه كان لمحمد بن القاسم الثقفي منجنيق يدعى « العروس » استعمله في حصار الديبل في بلاد السند ، وكان ضخماً للدرجة ان طاقمه من

الجد الذي يعمل على تحريكه والرمي به يبلغ خمسمائة جندي . وكان يرمي بها حجارة ثقيلة على اسوار العدو وما وراءها ، وذكرت كتب التاريخ ان الرشيد في حصار هيراقية رمى على الروم حجارة مخلوطة بالكبريت والنفط ، ملفوفة بقطع من الكتان تشعل قبل ان تقذف . ومن ثم اصبحت مهمة القاء المواد المشتعلة بالنقاطين ... وتطورت صناعة الآلات القاذفة مع الزمن ، فاستعمل جيش صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين آلة جديدة اسمها الزبار ترمي اعداداً من السهام الثقيلة دفعة واحدة .

أما الدبابات : فهي آلات من الخشب المغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار . وتركب على عجلات يصعد الجند إلى أعلاها للنزول فوق الأسوار . وتستخدم أيضاً لهدم الأسوار ويجمعون مجراناها . وهي أقدم من المنجنيق ، استعملها المصريون القدماء والآشوريون واليونان والرومان والفرس والعرب .

وكان سلاح المقاتلة الموجودين في اعلى الدبابة القسي والسهام ومهمتهم حماية المقاتلة الموجودين في اسفل الدبابة ليتمكنوا من فتح ثغرات في اسوار العدو باستخدام المعاول والمنافب

**والضبور :** ( جمع ضبرة ) هي كالدبابة تصنع من الخشب المغطى بالجلد لنقب الأسوار .

**والكبش :** كالدبابة لكن رأسه مثل الكبش متصل بعمود غليظ داخل الدبابة معلق بحبال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة يدفعه الجنود وهم داخلها لنقب الأسوار .

**اما البارود :** فرغم ما يدعيه بعض الغربيين من أنه اخترع في أوروبا

سنة ( ١٣٢٠ م ) إلا أن مصادر كثيرة تشير إلى أن العرب عرفوه قبل ذلك بمدة طويلة وهو إما من اختراعهم أو نقلوه عن غيرهم ( لعله من الصين ) من ذلك أن المستشرق الاسباني كوندي ( ١٢٨٠ م ) يقول إن أهل مراکش استخدموا الأسلحة النارية في محاربتهم سرقطة سنة ( ١١١٨ م ) .  
ويذكر ابن خلدون أن أبا يوسف سلطان مراکش لما فتح سلجاسة ( سنة ١٢٧٣ م ) استعمل أسلحة نارية .. ونصب عليها آلات الحصار من الجانيق والعرادات وعندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارها ..

وكان قادة المسلمين يثبون في نفوس جيوشهم الحماس بالتكبير أثناء القتال وتلاوة الآيات القرآنية ودق الطبول وقرع الصنوج . كما كانت يرافق الجنود قصاصون يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية أو ينشدونهم القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناي ليقبوا قلوبهم ويثيروا همهم .  
ويقول غوستاف لوبون أن العرب أتموا استعدادهم الحربي في بضعة سنين . وُهِت البيزنطيون حين حاصر العرب دمشق ورأوهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من الآلات الحربية .

كما يمكن أن نعتبر أن من أسلحة العرب المعنوية تلك المعاملة الحسنة العادلة التي عاملوا بها الأمم المغلوبة ، التي كانت تتلقاهم بترحاب وحبور .  
ويصف المسعودي في مروج الذهب في حديثه عن حصار جند المأمون لبغداد أنواعاً من الأسلحة حين يقول : « ونصب هزيمة بن أعين على بغداد ( المنجنقات ) وقد اتخذ المدافعون للرؤوسهم دواخل من الخوص بنحوها الخوذ ودرقاً ( ترس من الخوص ) والبواري ( حصير من قصب ) وقد قُترت ( طليت بالقار وهو الزيت ) وحشيت بالحصا والرمل .. مع أصحاب الخيول الفره ( النسيطة ) والجواشن ( ج جوشن وهو لباس من حديد يلبس على الظهر

مؤلف من حلقات متداخلة فيها صفائح من التنك ( والدروع والتجافيف  
( ج تجفاف وهو ما يجلل به الفرس من سلاح وزرد بقيه الجراح )  
والرماح والدرق .. ، واستعملت الدويلات المستقلة آلات خاصة لهدم  
الاسوار دعيت بالزحافات والقطاطيع .

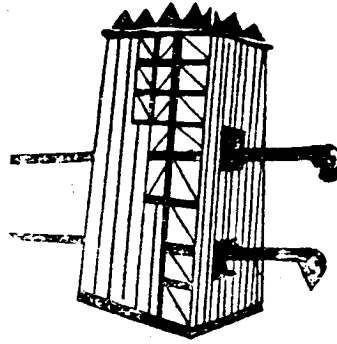
**أساليب القتال :** كان العرب في جاهليتهم وفي صدر الاسلام أحياناً  
يتبعون طريقة الكر والفر في حروبهم . ويجعلون نساءهم وأولادهم  
وأرزاقهم وراءهم وكان ذلك مما يشبث أقدامهم في الحروب .

فلما ظهر الاسلام أخذ العرب يقاتلون زحفاً أي صفوفاً عملاً بقوله  
تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

ثم بعد أن اختلط العرب بالأعاجم عمدوا إلى نظام جديد وهو نظام  
الكراديس . وهي كلمة يونانية ومعناها الكتلة أو الكتيبة . ويقسم  
الجيش بموجب ذلك إلى خمسة أجزاء رئيسية كبرى ومنها تسمية الجيش  
بالخيس : أي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

ويقول ابن خلدون إن أول من استعمل الكراديس في الإسلام  
وأبطل نظام الصفوف هو مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي ولكن  
يجب ألا ننسى أن خالد بن الوليد استعمل في واقعة اليرموك ( ٥١٣ ) نظام  
الكراديس لمحاربة الروم بمنل نظامهم . كما اتبع ذلك سعد بن أبي وقاص  
في معركة القادسية ( ٥١٤ ) .

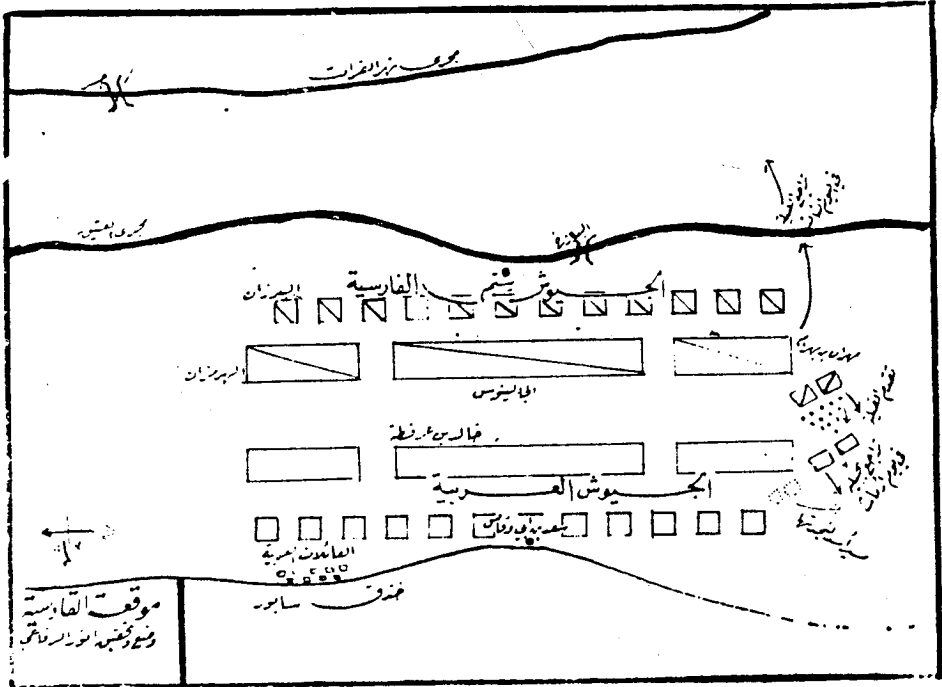
وبازدياد رقي الدولة العربية وبما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء  
وترجمة كتبهم ودراسة نظمهم ازداد تفنن العرب في أساليب القتال وتعددت  
خططهم الحربية حتى صارت سبع خطط وهي :



رأس الكرش

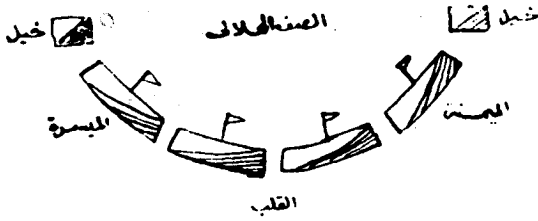
شكل - ١٧ -

آلة من آلات الحصار الإسلامية ، يختبئ داخلها الجنود ، ويلصقون بها جدران الحصون ، ثم يحاولون فتح ثغرات فيها بواسطة اعمدة الحديد المنتهية برأس يشبه رأس الكرش



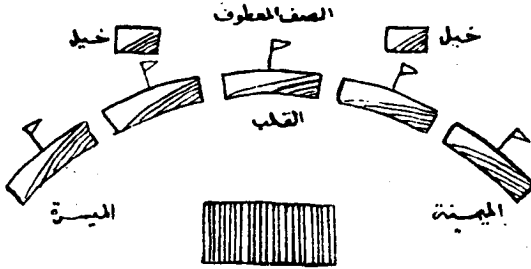
شكل - ١٨ -

مخطط موقع القادسية ويظهر فيه بوضوح النظام التعبوي للجيش العربي الاسلامي في هذه المعركة الفاصلة من المعارك الكبرى في التاريخ



شكل - ١٩ -

احد اساليب تعبئة الجيش الاسلامي ( الصف الهلالي )



شكل - ٢٠ -

شكل من اشكال تعبئة الجيش الاسلامي ( الصف المعطوف )

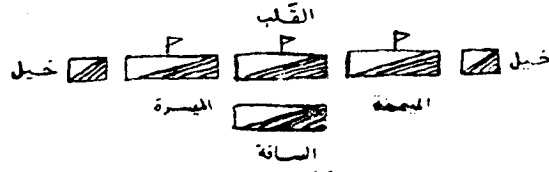


شكل - ٢١ -

صورة مرسومة في مخطوطة عربية بريشة « رشيد الدين » عام ١٣٠٦ م تمثل معركة حربية ؛ ويلاحظ من ملامح الوجوه ان جيشاً عربياً بملابسه واسلحته وهيئته يحاصر قلعة مغولية . والنص الاصيلي ، التي كانت الصورة ايضاحا له ، يذكر ان عشرة آلاف فارس اجتمعوا تحت راية الامير نصر بن ناصر الدين وغيره وزعيم العرب وحاصروا المردة في قلعة ارك . سنة ٣٩٣ هـ



## الصف المستوي



شكل - ٢٢ -

الصف المستوي ، وهو نظام التعبئة التقليدية في معارك العرب

- ١ - ان ترتب الجيوش بشكل هلال . وهو نوعان مرسل أو حاد بسيط مثل هلال السماء .
  - ٢ - الهلال المركب أي يكون إلى جانب . الهلال شبه هلالين كأنهما جناحان .
  - ٣ - المربع أو المستطيل ( لقد اعتمد نابليون في ترتيب جيشه على شكل المربع وقد دوخ به المالك وهو عمدة الجنود المنظمة اليوم ) .
  - ٤ - الهلال المقلوب .
  - ٥ - المعين أو المربع المنحرف .
  - ٦ - المثلث .
  - ٧ - الدائرة المزدوجة وهي دائرتان أحدهما داخل الاخرى .
- وتفوق الجيوش العربية لم يكن يرجع إلى تنظيم جيشهم فحسب، بل كان لسرعة الحركة ضلع كبير ، إذ بينما كان الروم ينقلون أمتعتهم وعتادهم على عربات تجرها البغال والحمير والخيول كان العرب على الأغلب يستخدمون الجمال في حمل الأثقال وهي أخف حركة وأكثر سرعة من العربات . حتى قال أحد المؤرخين : « لم يحتل العرب الشام بهذه السرعة المدعشة إلا بفضل الجمال . »
- رواتب الجند :** لم يكن للجند رواتب زمن النبي وإبي بكر إذ كانوا يأخذون حصتهم من الغنائم والفيء . ولما أنشأ عمر ديوان الجند نظم أعطيات

المسلمين حسب نسبهم الى النبي وسابقتهم في الاسلام او غير ذلك . وكانت رواتب الجنود بموجب ذلك تقدر بين ( ٣٠٠ - ٥٠٠ ) درهم في العام ؛ وهذا التفاوت بسبب بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام . ورواتب ضباط الجند من ( ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ ) درهم هذا غير ما كان يدفع للنساء وأولاد الجنود والضباط وما كان يفرض لهم من الحنطة .

ولما آل الحكم الى بني أمية زاد معاوية أعطيات الجند لاعتبارات سياسية وخصص للجندي الف درهم في السنة أي أكثر من ضعف ما فرضه عمر . كما خصص لليمنية عطاء مضاعفاً وجعلهم فرقة مستقلة . وبقي الامر كذلك مع شيء طفيف من الاختلاف حتى أواخر الدولة الاموية اذ قلت الرواتب ونقصت الى ( ٥٠٠ ) درهم ، وكان تأخر عطاء الجنود في عهد مروان بن محمد من الاسباب التي دفعت الجنود الى عدم القتال باخلاص وحماس .

وفي العصر العباسي جعل السفاح راتب الجندي ( ٩٦٠ ) درهماً في السنة وكان للفارس ضعف هذا المبلغ . ثم قلت الرواتب في عهد المأمون وأصبحت ( ٢٥٠ ) درهماً ، وسبب ذلك أن الاعاجم كانوا يرضون بالراتب القليل لأنهم لا يحبسون مهنة غير الجندية . وقد أوجد نظام الاقطاع إلا أنه ازداد في أيام السلاجقة بصورة واسعة فكان يعطى للامير مدينة او ولاية يحكمها حكماً مطلقاً ويمارس فيها سلطة الرئيس الاقطاعي . وكان عليه مقابل ذلك أن يدفع الى السلطان جزية سنوية في أوقات السلم . أما في أوقات الحرب فكان عليه ان يلتحق مع عدد من جنوده في جيش السلطان كما عليه أن يجهز جنوده بالمؤونة والعتاد .

وفي أواخر الدولة العباسية كانت الرواتب تتأخر وتتراكم وكان يفوز بالخلافة من يتمكن من أرضاء الجند .

## الفصل الثالث عشر

### النظام البحري - الاسطول

العرب والملاحة : تحيط البحار بشبه جزيرة العرب من ثلاثة أطرافها ، وهي تقع في مركز القلب من العالم القديم ، لذا كانت ولا تزال صلة الوصل بين مختلف أجزائه ، واشتهر سكان السواحل بالملاحة منذ أقدم الأزمنة ، فقد احتكروا تجارة الهند والشرق الأقصى عدة قرون كما سيطر الفينيقيون على التجارة في المتوسط والاطلسي ، وكان على شواطئ الجزيرة الجنوبية مرافئ تروسو عندها السفن القادمة من الهند أو وادي الفرات أو وادي النيل ، وكان في اليمن مرفأ اسمه ( موزا ) يبنون فيه السفن الكبرى لقطع المحيط الهندي . ولهذا السبب عمرت جزيرة سوقطرة يومئذ لتوسطها في طريق تلك التجارة كما عمرت مالطة في البحر المتوسط لمثل هذا السبب . أما عرب الحجاز وسكان المناطق الداخلية من الجزيرة فانهم كانوا يخافون البحر ويهابون ركوبه ، نستدل على ذلك من أخبارهم ومن اهتمامهم بكل ما يتعلق بشؤون البادية والبعير والحيل حتى لنجد في لغتهم أسماء كثيرة ومصطلحات عديدة للشيء الواحد منها ، بينما هي نسبياً فقيرة في أسماء أجزاء السفن وما يتعلق بالبحر ، ففي كتاب ( المخصص ، لابن سيده ١٧٦ ) صفحة عن الابل و ( ٧ ) صفحات عن السفينة .

نشأة الاسطول وتطور الملاحة في العصور الإسلامية : سمي العرب مجموع السفن اسطولا ، وهو لفظ يوناني ( Stolos ) عربي ، كما كانوا

يطلقونه على المركب الحربي الواحد . ويقال اسطولي للعسكري الذي يعمل في البحر .

ولقد وردت آيات قرآنية تشير إلى فوائد ركوب البحر ومنافعه منها : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله وأهلكم تشكرون » ، ولكن العرب المسلمين لم يهتموا بركوب البحر إلا بعد أن احتلوا الشام ومصر ، إذ كانت سواحل هذه البلاد عرضة لهجوم سفن البيزنطيين بصورة مستمرة ، فكان عليهم أن يتحملوا وطأة العدوان دون مقابلته بالمثل .

لذلك رأى معاوية والي الشام ضرورة انشاء اسطول فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في ذلك فأبى ، فألح عليه ، ورغبه في الكسب . فكتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص والي مصر يطلب إليه فيه أن يصف له البحر وراكبه فأجابه : « يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركذ احزن القلوب ، وإن ثار أزعج العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، إن مال غرق وإن نجح برق ، فلما قرأه كتب إلى معاوية : « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

وكانت العلاء بن الحضرمي عامل الخليفة عمر على البحرين يرغب في فتح سواحل فارس وأن تكون له من الشهرة ما للسعد بن أبي وقاص في بلاد فارس ، فجهز اسطولاً واستعان بسكان البحرين ونزل سواحل فارس ( سنة ١٧ هـ ) دون أن يستأذن الخليفة إلا أنه لم يفلح في غزواته ، ولما علم عمر بأمره قاصده بأن جعله تحت إمرة سعد ، وبذلك يكون العلاء أول من غزا في البحر في الاسلام .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان أعاد معاوية الكرة واستأذنه في غزو قبرص وهون الامر عليه فأبى ، ثم في سنة ( ٢٧ هـ ) كتب إليه مرة ثانية ملحاً ومبيناً له فائدة ذلك . فأجابه عثمان إلى طلبه على أن يجعل ركوبه اختيارياً ، فإن ركب البحر ومعك امرأتك فاركه ماذوناً لك وإلا فلا . ولانتخب الناس ولا تفرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائفاً فاحله وأعنه .

وفي سنة ( ٢٨ هـ ) أقلع من عكا اسطول كما رافقه من مصر اسطول آخر . وانتصر معاوية وصاحه أهل قبرص على جزية قدرها ( ٧٠٠٠ ) دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم العرب عن ذلك . مما شجعهم على ركوب البحر وتقوية الاسطول حتى كانت لمعاوية في السنة غزوات : في الصيف والشتاء عرفت باسم الشواني والصوائف البحرية . وفي عهد عثمان نفسه هاجم قسطنطين بن هرقل بألف سفينة سواحل مصر يريد استردادها من أيدي العرب ، فوقفت مائتا سفينة للمسلمين أمامه وتغلبت عليه في موقعة ذات الصواري ، فرفعت هذه المعركة البحرية من معنويات البحارة المسلمين وشجعت العرب منهم على ركوب البحر .

وسار الأمويون على سنة معاوية من حيث الاهتمام ببناء الاساطيل وتجهيزها والقيام بالغزو والفتوحات حتى نافسوا البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وملكوا معظم جزره وهددوا القسطنطينية نفسها مرات عديدة وحاصروها . وقد ازداد العرب قوة في البر والبحر في العصر العباسي . وبنوا السفن وغزوا جزر البحر المتوسط حتى صاروا أسياده وهاب الافرنج جانبهم كما غزوا بعض سواحل الهند سنة ( ١٥٩ هـ ) ولم تكن غزواتهم وحروبهم البحرية لتقطع أبداً . ولم تكن الاقطار العربية الاخرى أقل اهتماماً وقوة من الدولة العباسية كما في مصر والمغرب والاندلس .

فقد اهتم الطولونيون بانشاء المراكب النيلية التي تسير في النيل وتحمل  
حاصلات البلاد بين الوجهين البحري والقبلي، واهتموا بانشاء المراكب  
الحربية وكانت تصنع في جزيرة الروضة والفسطاط . كما ~~بطل~~ <sup>بطل</sup> الفاطميون  
عنايتهم نحو الاسطول لما رأوا تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التابعة لهم .  
وكانت تبني سفنهم في القاهرة والاسكندرية ودماط . وبلغ عدد السفن  
التي بناها المعز لدين الله الفاطمي في مدينة المقس ( ٦٠٠ ) مركب لم  
يعرف مثلها كبراً ووثاقة وحناً كما قال أحد المؤرخين . ثم ضعف شأن  
الاسطول من بعده . ولما انتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي اهتم  
بأمر الاسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وحدهم عن الموانئ العربية .  
وقد نسج على منواله سلطان المماليك الظاهر بيبرس .

وكان للأغلبة في افريقية غزوات كثيرة إلى سردينية وصقلية وقد  
فتحوا الأخيرة واستولوا عليها سنة ( ١٢١٢ م ) وبقيت في حوزة الفاطميين  
بعد الاغلبة مدة قرن ونصف القرن . كما اشتهر المرابطون والموحدون  
في المغرب الأقصى بالاعمال البحرية فكانت سفنهم تصل حتى جزر الخالدات  
( قناريا ) واستولوا على جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا ومدينة جنوة .  
أما في الاندلس فقد بدأ الاهتمام بأمر البحرية منذ أيام عبد الرحمن  
الثالث ( المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ) وزاد عدد اسطوله عن مائتي سفينة تمكن  
بواسطته من الاستيلاء على كثير من ثغور وسواحل الفرنج .

ضعفت سلطة العرب البحرية بعد ذلك وازداد الفرنج قوة وقاموا  
بفتوحاتهم واكتشافاتهم العظيمة ولم يسترد المسلمون والعرب شيئاً من نفوذهم  
في الأعمال البحرية إلا في عهد العثمانيين ومحمد علي باشا .

**دور الصناعة :** يراد بكلمة دار الصناعة تلك المعامل التي تقام على ساحل  
بحر أو شاطئه نهر لبناء السفن واعتمد معاوية حين بدأ بانشاء الأسطول

الإسلامي على الروم وسكان بلاد الشام الساحلية الذين حذقوا في صناعة السفن ومهروا فيها . وكانت أهم دور الصناعة في بلاد الشام : عكا وصور وطرابلس ، كما اشتهرت منذ منتصف القرن الثامن للهجرة : بيروت وحيفا . وتذكر بعض المصادر التاريخية أن أول دار صناعة بنيت في الإسلام كانت في خلافة عبد الملك بن مروان ، إذ أمر عامله على أفريقية ~~عيسى بن~~ النعمان ~~بن~~ بالتخاذ دار صناعة في تونس لإنشاء الآلات البحرية . وإذا صح هذا القول فإن معاوية مؤسس الأسطول العربي لم ينشئ دوراً جديدة للصناعة بل اعتمد على القدية منها الموجودة في بلاد الشام واكتفى فقط بتوسيعها وتحسينها .

وكانت في مصر دور قديمة للصناعة ، إذ ذكر أن معاوية لما غزا أول مرة قبرص ساعده أسطول مصري . إلا أن أول صناعة انشئت في مصر كانت في جزيرة الروضة سنة ( ٥٥٤ هـ ) وظلت الصناعة فيها حتى آخر عهد الطولونيين وأول حكم الأخشيديين الذين نقلوها إلى القسطنطينية . وقد أنشأ المعز داراً للصناعة في القسطنطينية . كما اشتهرت هذه الصناعة قبل القرن السادس للهجرة : القاهرة والاسكندرية ودمياط ، وعيذاب على ساحل البحر الأحمر . وفي المغرب : طرابلس وتونس وسوسة ووهران وسلا وطنجة والصويرة ( مוגادور ) والرباط . وفي الأندلس : اشتهرت بها دانية والمرية وشلبطش ( غرب اشبيلية ) ومالقة . وفي خليج البصرة : البصرة وهرمز وسيراف وعمان .

وقد اعتمد العرب لما أنشؤوا أسطولهم في البحر المتوسط على سكان البلاد المحتلة في صناعة السفن أو في الملاحة . ثم ظهر منهم صناع تفتنوا في عمل السفن البحرية واشتهر أشخاص برعوا في الثقافة البحرية . وكانوا يصنعون السفن على أشكال وأنواع متعددة وأحجام مختلفة ، ومنها ما جعل جزؤها السايح في الماء يشبه الحوت في عومه ، كما أشار ابن خلدون إلى

ذلك بقوله «...» وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار  
سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة  
الماء، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسماك لتحريك الرياح وربما  
أعنت بحركة المقاذيف كما الاسطول، ..

هذا من حيث شكلها العام، أما طريقة بنائها فكانت تختلف حسب  
المناطق والبحار والعادات، فسن البحر المتوسط كانت ذات دفتين وهي  
لا تصنع إلا في هذا البحر وتستعمل فيها المسامير كما يقول ابن جبير .  
وهي أكبر من مراكب المحيط تحمل بضعة آلاف من الرجال وتقطع  
البحر من غربه إلى شرقه في ستة وثلاثين يوماً .

وكانت سفن البحر الأحمر (اسمها جلبات جمع جلبه ) تصنع في  
عذاب على الساحل المصري وتقاط الأخشاب بحال اللب لانهم لا يستعملون  
فيها المسامير ويضعون خلالها دمرأ من عيدان النخل ثم يطلون الأخشاب  
بالشحوم . ويعمل القزويني عدم استعمال المراكب ذات المسامير في هذا  
البحر إلى خوف الملاحين من جذب جبال المغناطيس للمراكب وهي  
جبال كثيرة قد علا الماء عليها وقيعان سفن هذا البحر عرض دون  
تعميق حتى لا تصطدم بصخوره الكبيرة . ولتفادي خطر تحطمها لا يسافر  
فيها إلا نهاراً لأنهم أن الرمان يبقى دائماً في مقدم المركب ينتبه إلى الاحجار .  
أما سفن المحيط الهندي والخليج العربي فإن ماركو بولو يصفها بأنها من  
أسوأ صنّف ، وذلك لأنه لا يستعمل المسامير في بنائها وإنما تنقب  
الالواح بعناية قرب أطرافها ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب  
نصل بعضها ببعض بنوع من اللب ولا يطل بعد ذلك بالقار بل بوزيت  
يتخذ من دهن الحوت . وهذه السفن ذات طبقة واحدة وشراع واحد  
في معظم الأحيان .



**السفن الحربية وأشهر أنواعها :** إن المراكب التي استعملها العرب في حروبهم كثيرة تتفاوت حجماً وشكلاً وقوة ، منها ما هو من أصل عربي ومنها ما هو أعجمي .

١ - **السفينة :** وهو اسم عام للمراكب وردت في الشعر الجاهلي والقرآن قال تعالى : « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ . »

٢ - **الشونة :** جمعها شواني . ( وذكرت باسم شيني وشينية ) وهي أكبر أنواع السفن وأكثرها استعمالاً . تقام فيها الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم . وكانت أم القطع في الأسطول العربي ، متوسط حمولتها ( ١٥٠ ) رجلاً ونجذف بأكثر من مائة مجذاف . وصفها أحمد بن محمد بن حنبل في قصيدة خاطب بها أحد أعمام بني زريق بالمقرب الثاني فقال :

انشأت شواني طائفة	وبنيت على ماء مدناً
ببروج قتال نجوما	في شمم شواهدنا قننا
ترمي ببروج ان ظهرت	لعدو محروقة بطننا
وبنقط ابيض نجبه	ماء ، وبه تذكى السكنا

٣ - **البرجة :** سفينة حربية كبيرة هندية الأصل ( بيرة ) .  
 ٤ - **الفرقود :** جمعها قراقير وهي من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكراع للأسطول . أصل اسمها بالاسبانية ( كاراكا ) .

٥ - **الصنفل :** وهي مراكب حربية كبيرة مسطحة لحل المقاتلة والسلاح والمؤن وهي لاتينية الأصل يسميها العرب أيضاً الشلندي ( جمعها شلنديات ) . وكانت تسمى في الأندلس باسم الاجفان الغزوية او الغزوانية .  
**المسطح :** جمعها مسطحات وهي من سفن الأسطول العربي الكبيرة

الحجم ، وتحمل الاسلحة للاسطول ، وسميت بالاندلس باسم الحماله .

٧- الطراد : أو الطريدة ( جمعها طرائد ) سفينة صغيرة سريعة السير والجري تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتتسع لاربعين فارساً . وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يسهل على الخيل الصعود اليها والتزول منها .

٨- الحراقة : ( جمعها حراريق ) فيها منجنقات تلقى منها النيران على العدو . وكان للخليفة الامين خمس حراقات في نهر دجلة على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس . وعرفت ايضاً في الاندلس وعند الاغالبه والفاطميين . وصفها الشاعر الاندلسي ابو عبد الله بن الحداد بقوله :

ذات هدب من المجاديف حاك هدب بك لدفعه إسعاد

حم فوقها من البيض نار كل من ارسلت عليه رماد

٩- العشاري : جمعها عشاريات ( أعجمية ) أكثر ما كانت تعرف هذه المراكب في النيل وسميت في العصر المملوكي الحراقات وسمي بعضها باسم اللطاف ، وبعضها باسم السماويات ، لأنها مكشوفة للسما . واطلق عليها اسماء ألوانها فعرفت بالذهبي والفضي والاحمر والاصفر واللازوردي وأكثرها كان خصوصاً .. يمكن الاغنياء والحكام للتزهة في النيل .

١٠- السميريات : جمع سميرية من سفن البحر والنهر وهي معدة لحمل آلات الحرب والايلاح والمقاتلة والرماة والملاحين . فيها أربعون مجذافاً كما يذكر الطبري .

١١- الغراب : ( جمعها أغربة ) مقدمتها على شكل رأس الغراب .

١٢- الحربية ( جمعها حرايب وحريات ) : نوع من الشواني ، لكذا

اصغر حجماً ، وتمتاز بسرعتها وخفة حركتها . واستخدمت في الاندلس والمغرب ومصر الفاطمية . وصفها ابن حديد بقوله :

مخوضون بجرأ كل حين اليهم . يبحر يكون الموج فيه فوارساً  
وحربية ترمي بمحرق فقط . فيغش سعوط الموت فيها المعاطس

وأما حربية ترمي بنقط . لاختفاء النفوس له استعار  
كان المهمل في الانبوب منه الى شيء الوجوه له ابتدار  
كان منافس البركان فيها لأهوال الجحيم بها اعتبار  
نحاس ينبري منه شواظ لارواح العلوج به بوار

١٣ - البطسة ( جمعها بطس ) : مراكب كبيرة الحجم مكونة من عدة طوابق ، ومزودة بعدد كبير من القلوع يصل أحيانا الى أربعين قلوعاً تستخدم لنقل الميرة والأسلحة والمقاتلة وقد تصل سعتها الى ٧٠٠ راكب عدا الحملة .

١٤ - الفيظاني : مركب عرف في مصر الفاطمية ، لحمل الركاب والبضائع ومثل العجزي .

١٥ - الجلبة ( جمعها جلاب وجلات ) : وقد سبق ان ذكرنا انها من سفن البحر الاحمر ، ويذكر ابن جبير انه لم يكن يستعمل فيها مسبار البتة ، اما هي مخططة بأمراس من القنبار ( قشر جوز النارجيل ) مقي بالسمن او بدهن الخروع او بدهن سمك القرش وهو احسنها .

اسلحة الاسطول : إن أشهر معدات السفن الحربية عند العرب هي الأسلحة البرية ويضاف إليها :

١ - الكلايب : تلقى على مركب العدو عند الاقتراب منه فيوقفونه ثم يشدونهم إليهم ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاقلون . ويمكن ابطال فعل الكلايب بفأس ثقيلة من فولاذ تضرب بها تلك الكلايب فتقطع .

٢ - الباسليقات : هي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد ، تكسر كل ما تقع عليه لشدة دفعها .

٣ - التوابيت : هي صناديق مفتوحة من أعلاها توضع في أعلى السواري يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في محلاة معلقة بجانب الصندوق . فيرمون العدو بالحجارة وهم مستوردون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط أو جرار النورة ( وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ ) يرمون بها مراكب الاعداء فتعمي الرجال بخبارها ، وقد تلتهم عليهم إذا تبددت . أو يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين فإنه يزلق أقدامهم .

٤ - اللجام : أداة كالفأس طويلة محددة الرأس جداً وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها السطام فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فيجتالون لطنع المراكب فيغرقها وتنصب المياه فيها .

٥ - النار اليونانية : هي مزيج من كبريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها في مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعل أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو

قطع من الكتان الملوث بالنفط . وهذه النار تشتعل في الماء والهواء . وهي في الأصل من اختراع السوريين ، تعلمه البيزنطيون بواسطة رجل من بعلبك اسمه كالينكوس في القرن السابع للميلاد أثناء محاولات العرب المسلمين فتح القسطنطينية ثم استخدمه المسلمون وأساطيلهم .

واستعمل المسلمون ( النفط البحري ) ويجهز من القطران والكبريت ومواد أخرى ملتهبة ، تزداد اشتعالاً عند ملامستها الماء بدل أن تنطفئ . ويقذف بآلة تسمى النفاطة ، كما كانوا يلقيونها أحياناً بالسهم والنشاب والمنجنيق . قال في وصفها ابن حمديس :

وما للماء بالاطفاء حكم عليه لدى الوقود ولا اقتدار

٦ - وسائل الدفاع : ومن وسائل الدفاع عندما أنهم كانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنظرون لدفع أذى النفط .

وكانوا في الليل لا يشعلون ناراً ولا يتوكون فيها ديكاً . أما في النهار فكانوا يسدلون قلوياً زرقاء كيلا تظهر عن بعد

امرة الاسطول : كان لكل سفينة قائد ورئيس . فالقائد يدير أمر سلاحه وحربه وجنوده ، ورئيس يشرف على الملاحين ويدير أمر جري السفينة بالرياح أو بالمجاديف . وكان يدعى الربان في البحر الأحمر والمعلم في المحيط الهندي . وفي السفينة أيضاً المنادي ومهمته تبليغ أوامر الربان إلى الملاحين بصوته .

وكان يعين على جميع قطع الاسطول أمير يدعى أمير البحر أو أمير الماء . وكان يعلق فانوس على مركب أمير البحر فتهدي به بقية السفن وتقلع باقلامه وترسو بارسائه .

اشهر المعارك العربية : كانت الحروب والغزوات البحرية بين العرب والافرنج لا تنقطع أبداً في أدوار القوة والضعف لكلا الطرفين . وذكرنا سابقاً كيف أنها بدأت منذ عهد معاوية الذي نظم الشواني والعوائف برأ وبحراً لغزو بلاد الروم . إلا انه كان لبعض المعارك التي حصلت بين الطرفين من الأهمية الكبرى والنتائج الخطيرة ما يدفعنا إلى ذكرها (١)

(١) - فتح قبرص : سنة ( ٥٢٨ / ٦٤٩ م ) من قبل معاوية . لهذه الغزوة أهميتها لأنها أول محاولة انتصر فيها العرب . وازدادوا بعدها رغبة في ركوب البحر واندفاعاً لتقوية أسطولهم .

٢ - فتح ارواد وصقلية ورودرس وجزر بحر ايجة وكريت وقد تم ذلك كله بفضل أسطول الشام الذي نظمه معاوية .

(٣) - معركة ذات الصواري : في سنة ( ٥٣٤ ) جهز قسطنطين ابن هرقل أسطولاً يعد خمسمائة مركب وقيل ستمائة . وقصد مصر . فخرج إليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر بأسطوله المؤلف من ( ٢٠٠ ) سفينة كما اقبل معاوية بنفسه بأسطوله لمساعدته . وتلاقيا مع قسطنطين واشتبكا في معركة هائلة دون خوف أو وجل رغم قلة عددهم . وكانت السفن تقاتل بصورة افردية ، الا ان العرب أدركوا بعد ذلك أن هذه الحطة قد تؤدي إلى تحطيم أسطولهم برمنه فاجمعوا أمرهم على التكتل وتطويق أسطول الاعداء ، ثم انقضوا عليهم بالسيف والنار حتى انتصروا عليهم انتصاراً باهراً وحطموا أسطولهم شر تحطيم وانهمزم قسطنطين جريحاً .

(١) راجع : انور الرفاعي : الانسان العربي والتاريخ ص ٢٠٧ وما بعدها بحث : أعمال الجند العربي البحرية في عهد بني أمية . ففيه وصف لهذه المعارك البحرية .

وسميت هذه المعركة بذات الصواري لكثرة المراكب التي اشتركت فيها .  
ومن نتائج هذه الموقعة الكبرى ان ازدادت قوة العرب المعنوية وادركوا  
ان العبرة ليست بالعدد انما بالتكتل والاستبسال وتنظيم الخطط .

٤ - حصار القسطنطينة : برأ وبحراً عدة مرات بما يدل على تفوق  
الاسطول الاسلامي بقدرته على اجتياز البحار الرومية دون خشية من  
أساطيل الروم .

٥ - غزو الاندلس : غزا طارق بن زياد الاندلس سنة ( ٥٩٢ ) في  
أربع سفن ، ورغم أن الفتح كان برأ أكثر منه بحراً ، الا ان إزال القوى العربية  
بعد اجتيازها المضيق ووصولها سالمة الى الير الأوروبي كان له أعظم الأثر  
في تأمين الفتح ومتابعة ارسال الامدادات .

٦ - غزو جزر البحر المتوسط والاستيلاء عليها : غزا العرب معظم  
جزر البحر المتوسط واستولوا عليها في فترات متقطعة وأستبكوا للحصول  
عليها في مواقع عديدة تذكرها المصادر التاريخية انما بدون تفصيل . وكانت  
أعظمها تلك التي حصلت في سبيل الاستيلاء على جزيرة صقلية التي لم يستطع  
العرب احتلالها إلا بعد غزوات عديدة ومعارك شديدة سنة ( ٥٢١٢ )  
وأهم الجزر التي استولى عليها العرب هي : ميورقة ومنورقة وسردينية  
وصقلية ومالطة واقريطش وقبرص وكورسيكا . وترددوا على الجزر الخالدات  
(قناريا) كما استولوا على مدينة جنوة وغزوا سواحل فرنسا وإيطاليا .  
وقد تم معظم ذلك بواسطة اسطولي الشام ومصر واسطول الاغالبة الذي  
يعد من أعظم الأساطيل العربية .

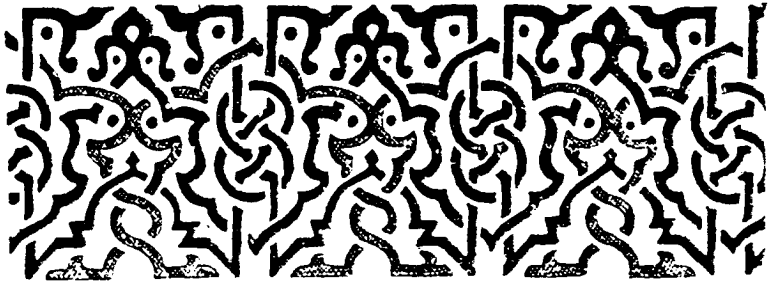
٧ - غزو الساحل الهندي : في سنة ( ١٥٩ هـ ) وجه المهدي حملة  
في البحر إلى بلاد الهند تعد ( ٩٢٠٠ ) رجلاً منهم ( ٧٠٠ ) من أهل الشام

مع قائدهم ، مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند فتغلبوا على حاميتها وأسطولها وأشعلوا فيها النيران والنفط .

**تراث العرب في الملاحة :** اعتمد العرب المسلمون على سكان البلاد التي فتحوها وعلى البيزنطيين في تعلم أصول الملاحة . ولكنهم ما لبثوا أن انتقلوا إلى حين الابتكار والاختراع وأصبحوا أساتذة أوربا في الملاحة ، يدلنا على ذلك كثرة المصطلحات العربية البحرية التي اقتبسها الأوروبيون ، الأمر الذي دفع المؤرخ فون كزيمر إلى القول : « وما يوضح أن الأسطول العربي كان نموذجاً لأساطيل الأقطار الأوروبية أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوب أوروبا . نذكر من بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ جبل العربي . وكلمة Arsenal أو Darsenal المأخوذة عن لفظ دار الصناعة . وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ غراب العربية و Admiral المأخوذة عن أمير البحر .

وأهم شيء أخذه الأوروبيون عن العرب ( الحُك ) أي الابرة المغناطيسية . وهي ذات فائدة كبرى في الملاحة . وإذا اختلفت الروايات وتضاربت الآراء ممن أوجد أو اكتشف المادة المغناطيسية . فكانت كل من إيطاليا وفرنسا وإنكلترا واسكندنافيا تدعي أنها نفسها صاحبة الفضل الأول بايجادها . فان مما لا شك فيه أنها من مكتشفات الصين وأخذها عنهم العرب . ويذكر أحمد بن ماجد ( القرن ١٥ الميلادي ) في كتابه « الفوائد في أصول البحر والقواعد » « ... ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحُك بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم نودع في كتاب .. » وابن ماجد هو الذي قاد الملاح البرتغالي ( فاسكو دوغاما ) في بحار الهند وأطلعته على كثير من الآلات البحرية العربية التي كان يستعملها كالأسطرلاب والمغناطيس وغيرها .





## الفصل الرابع عشر

### النظام المالي

بيت المال : إن المال هو العصب الحساس في كل دولة قائمة ، ولا يمكن لدولة أن تقوم وليس لها مال تصرفه على شؤونها ولا موارد تجمع منها حاجاتها المالية ، وقد حدد الاسلام بعض موارد الدولة المالية ، وكانت تجمع في مكان يقال له بيت المال وهو أشبه بمخزينة الدولة العامة أو بوزارة المالية في العصر الحاضر ، وأول من أنشأ بيت المال هو الخليفة عمر ، إذ كان الرسول عليه السلام وأبو بكر من بعده ، يوزعان الموارد في حينها ، فلما تدفقت الاموال أيام عمر وكثر المستحقون منها ، وزاد عدد المجاهدين ، وتنوعت الموارد العينية ، أمر عمر ، عملاً باقتراح الوليد بن هشام باتخاذ بيت للمال . رغم معارضة الامام علي ، وعين عبد الله بن الارقم أميناً له ، كما عين عبد الرحمن بن عبيد القاري ومعيقيب مساعدين له ... وجعل لكل ولاية أميناً لبيت المال ، له اختصاص مستقل عن عمل الوالي والقاضي ، ورتب لكل بيت حرساً لحراسته ... ويروى أن مشادة وقعت في عهد عثمان بين سعد بن أبي وقاص والي الكوفة وقد عرف بأسرافه ، وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال ، ورفع الامر إلى الخليفة الذي أبدى أمين بيت المال ضد الوالي .

وكان بيت المال يعتبر في عصر الراشدين ملكاً للمسلمين عامة ، لكل منهم نصيب فيه ، وينال كل محارب أو موظف مقدراً معيناً في كل شهر . ولكن الأمويين اعتبروه ملكاً لهم يتصرفون به كيف يشاؤون ، فتوى معاوية يهب خراج مصر إلى عمرو بن العاص طيلة حياته ، أو يفرق الأموال بلا حساب لاكتساب الأنصار ، وتبعه الأمويون والعباسيون الذين صاروا ينفقون ، أموال بيت المال حسب أهوائهم ، ثم حدثت روايت الخلفاء وسائر الموظفين فيما بعد ، وأصبح الخليفة أو الوالي لا يستطيع أن يتصرف بأكثر مما حدد له ، وتصرف بقية الأموال على شؤون الولاية أو مركز الخلافة .

ومنذ العهد الأموي طرأ تغيير واضح على النظام المالي في الامبراطورية الاسلامية ، ففصل معاوية « الصوافي » عن بيت المال وجعلها للخليفة ، واصل الصوافي في فارس : « كل أرض لكسرى أو لأهله ، وكل من فرت عن أرضه ، وقتل في المعركة ، وكل مغيض ماء أو أجمة ... » وهي تختلف عن الفيه . وعمم معاوية الصوافي على جميع أنحاء الامبراطورية ، فأمن لنفسه ولاسرتة ولخزانة الخليفة مورداً ضخماً من المال . فقد ذكر أبو يوسف في كتاب « الخراج » ان صوافي العراق وحدها بلغت سبعة ملايين درهم سنوياً .

وزاد الامويون في الضرائب نوعاً وكماً .

**موارد بيت المال :** إن موارد بيت المال الأساسية في صدر الاسلام وعصر الفتوح هي :

الخراج . العشر . الزكاة . الجزية . الغنيمة . الفيه . وموارد ثانوية أخرى .

١ - الخراج : هو أقدم انواع الضرائب ، عرف منذ أيام الفراعنة وربما قبل ذلك . وسبب وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان ، والأهالي يتمتعون بربعها على أن يدفعوا للحكومة حصة من ذلك الربع وهو الخراج . وكان الرومان ضريبة الأرض TRIBUTUM Soil وللفرس ضريبة مشابهة تسمى الخراج ، كما كان لهاتين الدولتين ضرائب معينة على أراضي مملكتهم التي حررها المسلمون مثل مصر والشام والعراق وفارس وغيرها . وترك المسلمون دواوين الخراج من حيث ادارتها على ما كانت عليه زمن الروم والفرس .

والخراج عند المسلمين هو مقدار من المال أو الحاصلات يفرض على الاراضي التي صولح الاعاجم عليها وصاروا ذمة . ويؤخذ الخراج :

أ - عن الأراضي التي فتحها المسلمون غنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين بعد أن عوضهم عن نصيبهم فيها .

وقد استن عمر بن الخطاب هذه السنة ، وبقيت عليها الدولة الاسلامية حتى عهودها الأخيرة ، وهي الملكية العامة للأرض المفتوحة ، فقد أعلن بعد جدل ونقاش مع الصحابة أن الأرض المفتوحة هي ملك لجميع المسلمين وليست ملكاً للمقاتلين منهم فقط ، ولذا ابقى عليها أهلها مقابل «خراج» يدفعونه للدولة . فالأرض إذن وهي وسيلة الانتاج الاساسية آنذاك غدت « ملكاً للأمة » .

ب - عن الاراضي التي افاء الله بها المسلمين أي استحوذوا عليها دون قتال .

ج - عن الاراضي الموات التي أحيها المسلمون وكانت في أرض خراج ولم يحتقر لها بئر أو يستنبط لها قناة .

د - عن اراضي شبه الجزيرة لان العرب من عبدة الاوثان فيها ، حكمهم القتل أو الاسلام ، ولاتقبل منهم الجزية ( كتاب الخراج لأبي يوسف ) .  
ويستوفى الخراج على نوعين : اما مبلغاً مقدراً من المال ، او حصة معينة مما تنتجه الارض . وبعض الأراضي يؤخذ منها مال في وقت ويؤخذ منها غلة في وقت آخر . أما مقداره فكان غير ثابت يرتفع حيناً ويقل حيناً آخر بحسب الاسعار والازمنة وحاجة الدولة . فرض النبي ﷺ على يهود خيبر نصف محصولهم ، فكان يبعث اليهم عبد الله بن رواحة فيقسم المحصول ويخيرهم أي النصفين شاؤوا . وكذلك فعل الهادي في منطقة السواد ، فكان يأخذ منها ستة أعشار منتوجها ( وهذا اقصى مبلغ فرض ) ثم جعلها الرشيد النصف فقط وخفضها المأمون إلى أربعة أعشار .

وكان الخراج يحصى بعد المحصول ، وكانت السنة المالية للخراج هي السنة الشمسية وليست السنة القمرية ، ، لارتباط الزراعة بالنظام الشمسي والفصول . واعتبر بدء هذه السنة في العراق وما وراءه من أرضين كفارس وغيرها ، هو أول يوم من السنة عند الساسانيين وهو يوم نيروز ، لكن هذا لا ينطبق مع السنة الشمسية ، فأجريت عليه عدة تعديلات كان أتمها ماجرى في عهد الخليفة المقتدر ( ٢٩٥ - ٣١٠هـ ) .

وكان الخراج يقوم على أساس مساحة القرية كلها ، أو على أساس المساحة المزروعة ، أو على أساس تقويم الانتاج . وقد عرف نظام تقويم الخراج على أساس مبلغ اجمالي للقرية أو الولاية باسم « التكملة » ، وقد أبطلها المقتدر لما في ذلك من اجحاف بحق الفلاحين في السنين العجاف حين يجبرون على تأدية نفس المبالغ التي دفعوها في السنين الحسنة ، على اختلاف القسط والحصب في المنطقة نفسها .

ويظهر أن جمع هذه الضريبة استمرت حتى العصر العباسي الأول في ايدي الملتزمين ، الذين كانوا يعمدون إلى جمع ما دفعوه والأرباح بشئ الطرق . فلما كان عصر الرشيد ووضع قاضيه أبو يوسف كتاب الخراج ، حرّم أبو يوسف تحريماً تاماً عملية بيع وشراء الضريبة المفروضة على الارض ، وابعأ أبو يوسف هذا النظام بشروط اوردها في كتابه منها إذا اقترح اهل القرية ، قيام نفر من أهل الثقة من بينهم بجمع الضرائب ودفعها للدولة باسمهم .. وعرف نظام الالتزام بالتقيل ، واسم الملتزم « المقبل » ثم استعملت كلمة الملتزم في العصور المتأخرة .

٢ - العشر : وهو ضريبة على الاراضي مقداره عشر غلتها مالا أو عيناً . والاراضي التي تدفع العشر هي :

أ - الارض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب .

ب - الارض التي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة عليهم .

ج - الارض الموات التي احياها المسلمون وكانت في ارض عشر او استنبط لها قناة أو احتقر لها بئر .

ويقول القاضي أبو يوسف ان الاراضي التي يقطعها الخليفة لاحد ، فان كانت في ارض خراج دفعت خراجاً ، وان كانت في ارض عشر دفعت عشرأ . ولا يمكن للخليفة تحويل الخراج إلى عشر او ان يفرض عليها عشرأ ونصفاً او عشرين او اكثر .

٣ - الزكاة : الزكاة ضريبة فرضها الله على المسلمين وهي أحد أركان الاسلام التعبدية الخمسة ، فاذا امتنع المسلم عن ادائها فقد هدم ركناً أساسياً من اركان الاسلام ، وقد ذكر الفقهاء إن من منع الزكاة معتقداً وجوبها اخذت منه قهراً .

ومن اسكر وجوبها هو مرتد تجرى عليه احكام المرتدين . وقد اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة كما فعل ابو بكر يوم قال : « والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . وكانت الدولة تتولى جمعها وانفاقها ، فأخرجها عثمان بن عفان من اطاريت المال ليتصرف بها المسلم حراً وفريضة عليه ، شأنها في ذلك شأن الصلاة والحج .

وذكر الفقهاء اقوالاً شتى في اصل الكلمة فهي اما :

آ - من زكا الشيء اذا غما وزاد . يقال زكا الزرع إذا كثر وزاد .  
ورجل زكي اي زائد الخير . والزكاة التي تؤخذ عن المال لا تنقصه انما تنميه بالبركة او بالاجر الذي يثاب به صاحبه .

ب - او من الشاء الجليل ويقال زكي القاضي الشاهد . فكان من يعطي الزكاة يحصل على الشاء الجليل .

ح - او من التطهير فكان الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيها للمساكين ، ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء . قال الله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزككهم بها » . ومصادر الزكاة خمسة :

١ - زكاة السوائم او المواشي : أي الإبل والغنم والبقر . ولا زكاة في الخيل والبغال والحمير الا إذا كانت للتجارة ففهي زكاة التجارة . ولا تؤخذ الزكاة عن المواشي إلا اذا حال عليها الحول ، كما لا تؤخذ إذا علفها صاحبها . وتختلف نسبتها باختلاف نوع الماشية وعددها فالإبل بين ( ٥ - ٢٥ ) يؤخذ شاة عن كل خمسة منها . وبين ( ٢٦ - ٧٥ ) يؤخذ ناقة واحدة تختلف نسبتها باختلاف عدد الإبل ، اي تكون نسبتها اكبر كلما زاد

العدد . اما الغنم ( ضأناً ومعزاً ) فيؤخذ منها شاة اذا كان عددها بين ( ٤٠ - ١٢٠ ) ثم يكون في كل مئة شاة واحدة . اما البقر فلا يؤخذ منها الا اذا بلغ عددها ( ٣٠ ) فيؤخذ منها تبيع او تبعة ( الذي يتبع أمه وهو ما أوفى سنة ) ، واذا كانت ( ٤٠ ) يؤخذ مسن ( ما أوفى سنتين ) ثم اذا كانت ( ٦٠ ) فضعف ما يؤخذ عن الثلاثين .

ب - زكاة النقد ( الذهب والفضة ) : لا يدفع زكاة عنها الا اذا حال عليها حول وبلغا النصاب أي ٢٠٠ درهم للفضة و ٢٠ مثقالاً للذهب ( اي ما يقرب من ١٣ ليرة عثمانية ذهب ) ويكون مقدار الزكاة واحداً من أربعين ، اي ٢،٥ بالمائة .

ح - زكاة التجارة : يؤخذ عنها ٢،٥ بالمائة بشرط ان تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة وان يحول عليها الحول .

د - زكاة المعادن والركاز : ( اي المعادن الغفل والكنز ) فاذا وجد في ارض الحرب ففيها الخمس ( اي مثل الغنائم ) واذا كانا في ارض السلم ففيها الزكاة اي ٢،٥ بالمائة .

هـ - زكاة الزرع والثمار : لا يدفع عنها زكاة الا اذا بلغا حداً معيناً . وحكم زكاتها العشر اذا كانت الارض تسقى بالمطر او المياه الجارية . ونصف العشر اذا كانت تسقى بالدلاء او بواسطة اخرى تكلف نفقات .

مصرف الزكاة : تصرف الزكاة حسب قوله تعالى : « إنا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . الفقراء هم الذين لا شيء لهم . والمساكين هم الذين لهم مالا يكفيهم وهم افضل

حالاً من الفقراء . ويقول القاضي ابو يوسف عن عمر بن الخطاب ان  
المساكين هم فقراء اهل الذمة . والعاملون عليها هم القاتنون بجبايتها  
وتقريبها . والمؤلفة قلوبهم هم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف  
اذاهم عن المسلمين او لترغيبهم في الاسلام . والرقاب اي شراء العبيد  
وعتقهم . والفارمون هم المدينون فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم في سبيل الله ،  
اي يعطى للغزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم . وابناء السبيل  
هم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

ومن هذه الآية نستدل أن الزكاة خصصت لما يسمى بلغة العصر  
« الشؤون الاجتماعية » لانها تتفق على الطبقات الاجتماعية التي تستحق العطف  
والمساعدة . فالفقير هو من لا يملك نصاب الزكاة ، والمساكين هو الفقير المحتاج  
المتعفف والسائل . والمساكين في رأي ابي حنيفة اشد حاجة من الفقير .  
ويشمل هذا الباب المسلمين والمعوزين من اهل الكتاب ، ويستدل الفقهاء على  
ذلك من عمل عمر بن الخطاب حين رأى ذمياً مكفوفاً مطروحاً على باب  
المدينة فأجبره عليه رزقاً مستمراً وقال لحازن بيت المال : ابحث عن هذا  
من الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « انما الصدقات للفقراء والمساكين »  
وقصد بذلك اهل الكتاب ذوي الامراض المزمنة والعاهات المانعة من  
الكسب .. والعاملون عليها الذين يتولون جمعها ويوزعونها على مستحقها ،  
والمصرف الرابع اعطي لجماعة من الناس تأليفاً لقلوبهم او تأليفاً لقلوب  
ذويهم من قبيل الدعوة الى الاسلام او الدفاع عنه .. في عهد الرسول عليه  
السلام . وتوقف العمل به في عهد عمر لان زوال السبب اقتضى زوال  
السبب ، وهكذا رأى الفقهاء ان الحكم فيه بات ينقذ ان وجدت الحاجة  
اليه فيجب تنفيذه في عصرنا هذا في الدعاية للاسلام وبيان حقائقه لمن يجهلون.



اما فك الرقاب فيقصد به تحرير الارقاء ، فكان من اول واثبت الدعوات لتحرير الرقيق . والصنف السادس هم الغارمون اي الذين ركبهم دين ولا فاء عندهم . والمصرف السابع : في سبيل الله وقد فسرهما المسلمون بما يعم كل مصالح المسلمين . والمصرف الاخير : ابن السبيل وهو من انقطعت به الاسباب وكان في سفر .

والزكاة لها في العربية مدلول مزدوج : الاول انها تزكية وتطهير للروح والثاني انها تزكية وتنمية للمال . فلها هدف روحي تعبدى ، ولها هدف اقتصادي فقهي .

٤ - الجزية : ليست من محدثات الاسلام . لقد وضعها اليونان على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس ق . م مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقين . ووضعها الرومان على الامم التي اخضعها وعرفت عندهم باسم ضريبة الرأس Tributum Capitis وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذ . كما كان الفرس ايضا يأخذون الجزية من رعاياهم وعرفت عندهم باسم الجزية Gezit .

والجزية مبلغ من المال يدفعه اهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم . وهي مقابل الزكاة عند المسلمين حتى يتساوى الفريقان في دفع الضرائب . وتسقط عنهم الجزية اذا اسلموا . وهي مفروضة على جميع الذكور الذميين القادرين على دفعها فلا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين بالسن الذين لا يستطيعون العمل ولا من العبيان والمقعدين والمجانين ، ولا من رجال الدين الا اذا كانوا اغنياء . اي انها فرضت على كل الاشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد .

اما مقدار الجزية فلم يكن ثابتاً زمن النبي واي بكر . ثم عيناها

ولكنها عدلت بعد ذلك وتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم فكانت (٤٨) درهما على الاغنياء تدفع شهرياً و (٢٤) على متوسطي الحال و (١٢) على الفقراء .

٥ - الفنيمة : هي ما يكسبه المسلمون في الحرب من الاعداء . وهي على اربعة اقسام : امري وسبي وارضين واموال . فالامري هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الاسر . واختلف في حكمهم منها قبول الفدية عنهم او قتلهم أو أن يمن الخليفة عليهم بالاطلاق . اما السبي فهم النساء والاطفال الذين يقعون في الاسر فلا يجوز قتلهم . اما الارض فقد تقدم ذكرها في بحث الحجاج والعشر . اما الاموال فاربعة اخماسها للمقاتلين وخمس للرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... وذلك حسبما جاء في كتابه العزيز : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وقد فاضل النبي ﷺ بين الفارس والراجل انما اختلف فيما بعد في قدر تفضيله . قال ابو حنيفة : يعطان للفارس سهان والراجل سهم . ورأى الشافعي ان يكون ثلاثة اسهم للفارس .

٦ - الفبيء : هو كل مال سهم وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال .. ويدخل فيه الحجاج والعشر والجزية وغيزها من واردات بيت المال . ويصرف خمسه حسب الآبة الكريمة : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » « سورة الحشر » اما اربعة اخماس الفبيء الباقية كانت تقسم في صدر الاسلام على الجند والاعمال الحربية لشراء الاسلحة وغيرها حتى دون عمر الدواوين وعين ارزاق الجند فاصبح الفبيء بوضع في بيت المال .

فمن أراضي الفيء مثلاً في الشام والعراق ومصر الضياع الخاصة التي هجرها ملاكها الهاربون ، او الاراضي التي كانت ملكاً للحكومات السابقة . أو الضياع التي صودرت بسبب اثرة الفتن ضد المسلمين ، أو الاراضي العامة التي لا صاحب لها كالغابات والمروج .. واضيف إلى مثل هذه الاحوال ، في فارس ، الاراضي التي كانت وفقاً على معابد النار . ومع الزمن ، صرف الدخل من الفيء على الاعمال والاشغال العامة ، كحفر القنوات ، وإقامة السدود على الانهار ، وتشيد الخزانات وتعبيد وترميم الطرق ...

ولادراك الفرق بين أراضي الفيء وأراضي الخراج ، يكفي أن نعتبر ان أراضي الفيء ملك للدولة ، وأن أراضي الخراج من القطاع الخاص ، ملك لاصحابها من الشعب وتأخذ الدولة من أملاكها مجموع حصة المالك وضريبة الانتاج ، بينما تأخذ الدولة من املاك الشعب فقط ضريبة الانتاج .

٧ - الواردات الاخرى : ويدخل ضمن واردات بيت المال سوى ما ذكرنا :

١ - المكوس (-المشور او ضرائب الجمرك) : وهي ضريبة عن كل تجارة واردة في البحر أو البر مهما يكن نوعها . ولانعلم مقدار ما كان يجمع منها إذ أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهذه الضريبة لا تؤخذ إلا إذا انتقل التاجر من بلاده إلى بلاد أخرى . أي إذا انتقل الشامي إلى العراق أو مصر وهكذا .

ب - اعشار السفن : هي ضريبة على السفن التي تمر ببعض الثغور فيؤخذ منها العشر عيناً . وكانت تبلغ أموالاً كثيرة في بعض الاحيان . وقد بلغ ضمان اعشار السفن في عدن في القرن الرابع هـ ( ٢٠٠,٠٠٠ ) دينار وفي القرن السادس هـ ( ١١٤,٠٠٠ ) دينار . وكان الاندلسيون يأخذون ضريبة

من السفن في ذهابها وإيابها عبر بوغاز جبل طارق عند مدينة طريف . ومنها اشتقت كلمة Tariff التي تدل عند الافرنج على الرسوم التي تؤخذ على البضائع أو تدل على الكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان .

ح - العشور : وهي عشر بضائع التجار غير المسلمين حين ينقلون بضائعهم من بلاد خارجة عن سلطات المسلمين إلى بلادهم أشبه بالركوس أو الضرائب الجمركية في الوقت الحاضر ، وكانت أحياناً تقل عن العشر أو تزيد حسب الظروف ، كما أن مما يجدر ذكره أن العشر يؤخذ على التاجر وتجارته مرة في العام ، لا في كل مرة يدخل فيها البلاد ويخرج منها كما تدفع الركوس في الوقت الحاضر ، إلا إذا اتفق على ذلك واشترط على التجار . وكان مما نبه المسلمين إلى فرضها ، وقد كان اهل مكة في الجاهلية يجبون العشور على المتاجر التي تمر بمدينةهم ، ان والي الكوفة أبا موسى الأشعري ، كتب إلى الخليفة عمر يخبره ان تجار المسلمين الذين يتاجرون خارج المناطق الاسلامية يدفعون ضريبة مقدارها ١٠٪ على سلع متاجرم فأجابه عمر ، بالمعاملة بالمثل ، والقيام بجباية ضريبة مماثلة على الاجانب الذين يتاجرون في البلاد الاسلامية . ويروي أبو يوسف في كتابه الخراج ، ان المسلمين لم يأخذوا ضريبة العشر على البضائع التي تقل قيمتها عن مائتي درهم ، وهذا يذكرنا بانظمة الجمارك الحالية ، وما يتعلق بها بحملة المسافرين معهم حين يفتشون عند اجتيازهم الحدود ، ولم يجبوها منهم أي ضريبة على ما يحملون من متاع ، وان كانت العشور على سلع التجارة التي تنقلها قوافل التجار ... كما كان المسلمون أيضاً يتناولون العشر من السفن التجارية التي تمر بوانتهم الكبرى على سبيل المرور والراحة والتعب فيها كمرافئ اليمن ومضيق جبل طارق ، وهو أشبه بما تدفعه السفن حالياً من ضرائب ، عند مرورها من توعة السويس أو امتبارها من مرفأ كبير .

وأول ما بدأ فرض العشور أي الجمارك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ويروي قصة ذلك القاضي أبو يوسف : بان جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب : دعنا ندخل أروضك تجاراً وتعشرونا ( أي تأخذ العشور ) . فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فاستأذوا عليه به ، فكان أول من عشر أهل الحرب ، وبعث زياد بن حدير على عشور أهل العراق والشام .

وحدث في زمن عمر بن الخطاب كما يروي أبو يوسف : أن رجلاً من نصارى تغلب مرّ على زياد بن حدير بفرس قومت بعشرين ألفاً ، فأخذ منه زياد ألفاً ، ثم مرّ راجعاً في سنته فقال زياد : اعطني ألفاً أخرى . فقال التغلبي : كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً ؟ قال زياد : نعم . فسار التغلبي إلى الخليفة عمر ، فوافاه بمكة وهو في بيته فاستأذن عليه . فقال : من انت : قال : رجل من نصارى العرب ، وقص عليه قصته . فقال عمر : كفيت . ولم يزد على ذلك . فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على ان يعطيه ألفاً أخرى . فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه وفيه : من مرّ عليك فأخذت منه جدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً . فقال التغلبي : قد والله كانت نفسي طيبة ان اعطيك ألفاً . وإني أشهد الله اني على دين الرجل الذي بعث اليك الكتاب . واصبح كتاب عمر هذا قاعدة تحصيل العشور ، وقد اختلفت قيمتها باختلاف مذهب صاحب البضاعة ، نستدل على ذلك من قول انس ابن سيرين حيث قال : « أرادوا أن يستعملوني على عشور الابلّة ( مرفأ على شط العرب ) فأبيت ، فلقيني أنس بن مالك فقال : ما يمنعك ؟ فقلت : العشور اخبت ما عمل عليه الناس . فقال لي : لا تفعل . عمر صنع فجعل على أهل الاسلام ربع العشر ، وعلى أهل الذمة نصف العشر ،

وعلى المشركين ممن ليس لهم ذمة العشر . وهكذا نلاحظ ان عمر لم يأخذ من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليها من الزكاة ... كما يروى أن نسبة العشر تعدلت مع الزمن ، وبالنسبة لأهل الحرب أي للبلاد غير الاسلامية المجاورة لها ، قاعدة المعاملة بالمثل ، فيدفع التجار من هذه البلاد نفس النسبة التي يدفعها التجار المسلمون حين يدخلون ديارهم للتجارة .

**د - اخماس المعادن :** والمعادن على نوعين الظاهرة والباطنة . فالظاهرة التي تبدو على وجه الارض كالكحل والملح والقار والنفط لا يؤخذ عنها شيء . اما الباطنة فكانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس .

**هـ - غلة المستغلات :** وهو ما يجني لبيت المال من أسواق ومنازل وطواحين ابتناها الناس في ارض السلطان فيؤدون عنها أجرة . وبلغت في سامراء ( ١٠ ) ملايين درهم في السنة .

**و - غلة دار الضرب :** هو ما يخص لبيت المال من دار الضرب بنسبة واحد من مئة على ما يضرب من نقود للشعب . وقد بلغت في الاندلس في عهد الامويين ( ٢٠٠٠٠٠ ) دينار في السنة .

**ز - الاموال التي ليس لها مستحق :** كاللقطة ومال من يموت وليس له وارث .

**ح - فيما يخرج من البحر :** كالخليفة والعنبر . ويرى ابو حنيفة أنها تكون بمنزلة السمك أي لا يؤخذ منها شيء . أما القاضي أبو يوسف فيرى أن يؤخذ منها الخمس كما أفنى بذلك عمر بن الخطاب .

**الواردات غير المشروعة :** أورد ابو يوسف في كتاب الخراج عدداً من من الضرائب التي طلب إلى الشعب الامتناع عن تأديتها مما يدل على أن

بعض جباة الضرائب والمتزمن كانوا يفرضونها على الناس . فقد ذكر ابو يوسف بانه لا يطلب من دافعي الخراج إطعام جامعي الضرائب او دفع اجور الكيل ، ولا اضافات في كمية الضريبة في السنين الحصة ذات المحصول الممتاز ، ولا أجور الحمل ، او اثمان القراطيس التي تسجل فيها الواردات وتعليقات الحكومة ، ولا اجور المراسلات ، ولا أجور الاشخاص الذين ينتقلون بين مركز الولاية والقرى النائية .

وحض ابو يوسف الناس على عدم السكوت امام ظلم جامعي الضرائب وسوء معاملتهم ، وذكر أمثلة جباة اوقفوا الفلاحين أباماً في الشمس على أبوابهم بانتظار دورهم في الدفع ، أو ضربوا الفلاحين بقسوة ... واقترح بعد هذا كله قيام نظام للمراقبة ، وتعيين «عيون» للولاة والخليفة يقدمون التقارير عن كل مخالفة من هذا النوع ليمنع عن الفلاحين ، الجهاد ، والذين يخافون سطو رجال الحكم ، ان يتقدموا مباشرة بالشكوى عن كل سوء محل بهم .

**طرق الجباية :** ( جباية الخراج والعشر والجزية ) . كانت على ثلاثة أنواع:

١ - **الطريقة المباشرة :** وذلك ان الخليفة كان يعين إلى جانب الوالي صاحب الخراج لجمع خراج وعشر الارض والجزية . ولا يكون للوالي عليه أي سلطة . الا أن الولاة كانوا أحياناً يضمنون الخراج كما فعل يحيى ابن برمك وغيره .

٢ - **طريقة التضمن او التلزم :** وذلك ان الدولة تعلن عن رغبتها في تضمين الخراج لمناطق مختلفة فيجتمع الناس من الاغنياء والمتنفذين ويلتزم كل منهم منطقة من مناطق الخراج بمال معين يقع عليه بالزيادة . أما إذا كانت الأرض من أملاك الدولة فان الملتزم يضمن بلدة أو قرية فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي .

٢ - طريقة المقاسمة : وهو نظام وضعه عمر بن الخطاب وذلك

أنه كان يحصى أموال الولاة قبل توليتهم ثم يلزمهم عند اعتزالهم بدفع نصف الاموال التي جمعوها أثناء ولايتهم والتي لا تسمع بها رواتبهم . وقد فعل ذلك مع معاوية وعمر بن العاص . كما لجأ الأمويون إلى طريقة الاستخراج او التكتشيف وذلك باجراء تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الادارية، وكانوا يعذبون ليقروا بالأموال التي جمعوها وادعوها عند أهلهم وأصدقائهم . وكان مثل هذا التحقيق يتجاوز أحياناً الحدود المشروعة ويصبح وسيلة الانتقام والأخذ بالثأر وجمع المال .

وقد بلغت واردات الدولة العباسية في عصر المأمون حوالي (٤٠٠) مليون درهم . إلا أنها أخذت تتناقص مع الزمن حتى أصبحت نصف هذا المبلغ تقريباً .

**نفقات الدولة :** لقد نص القرآن الكريم على أوجه صرف بعض موارد بيت المال كالغنيمة والفيء والزكاة مما ذكرناه في حينه . أما بقية واردات الدولة فكانت تنفق في سبيل تأمين مصالح الحكومة من نفقات للخليفة ورواتب للقضاة والولاة والعمال وغيرهم من الموظفين ، واعطيات الجند وتأمين المعدات الحربية وكري الأنهار واصلاح مجاريها وحفر الترع واقامة الجسور وإطعام المسجونين والامرى ودفن من يموت منهم واقامة المستشفيات وغير ذلك . ويعود تنظيم العطاء ، وهو احد اوجه نفقات الدولة الرئيسية الى عمر بن الخطاب الذي استهدف به مصلحة المجتمع الاسلامي العامة الدائمة ، دون مصلحة مجرد المقاتلين الذين حصلوا على الغنائم او ساهموا بالجهاد ، فأمر بتوزيع واردات المقاطعات التي تم ضمها للامبراطورية الاسلامية الغنية في عهده على كافة المقاتلة سواء من ساهم بالقتال او من كان مستعداً للمشاركة في المعارك المقبلة . وفي المصادر العربية



تفاصيل وافية عن الاسس التي اتبعها عمر في توزيع العطاء في المدينة المنورة ، وفي بقية المدن والامصار . ففي عاصمة المسلمين جعل عطاء الناس بحسب اسبقيتهم للاسلام ، فمن اسلم قبل بدر كان عطاؤه اكبر من اسلم بعد بدر ، وهذا عطاؤه اكثر من عطاء من اسلم بعد الحديبية . . . ( وفي الطبري وابي يوسف شرح وافٍ لذلك ) اما في العراق والشام ومصر فجعل لقائنة المعارك الكبرى النصيب الاوفى ، ثم يتدنى النصيب كلما قلت المساهمة في القتال ، ولم يجعل سكان البلاد الاصليين من نصيبهم في العطاء اي من حقهم في اموال الدولة . . . وپروى ان احد المسلمين انتقد يوماً ما عمر ، حين وزع جميع ما ورد على بيت المال فقال له : يا امير المؤمنين ! لو تحركت في بيوت الاموال عدة فقال عمر : كلمة اقاهم الشيطان على فبك . وقاني الله شرها . وهي قنة لمن بعدي . وبالفعل فان من جاء بعد عمر من خلفاء امويين وعباسيين لم يتصرفوا بموارد بيت المال ، بل احتفظوا دائماً بمبالغ ضخمة للتوابع وما تحبته الايام .

والغريب ان بعض الخلفاء ، كانوا يزيدون عطاء الناس يوم توليهم الحكم ، او عند استفارهم لامر جليل ، ولمرة واحدة ، فكان ذلك بمثابة مكافآت تشجيعية او تقديرية او كسباً لعطف العامة وولائها ، وقد فعل ذلك عثمان وعلي ومعاوية ويزيد وقلدم من اتى بعدهم من خلفاء . وكان على اهل العطاء مقابل ذلك ان يجهزوا انفسهم بالسلاح ويندعوا للقتال .

وقد بلغت نفقات الدولة العباسية في السنة زمن المأمون ( ٥٠ ) مليون درهم . وبذلك يتبقى ( ٣٥٠ ) مليون درهم وفراً في بيت المال . والدولة التي يتبقى لديها كل سنة مثل هذا المبلغ العظيم تعد في غاية الثروة .

ولكن ذلك الوضع تبدل كثيراً فيما بعد اذ زادت النفقات كثيراً

في أدوار الانحطاط بسبب إسراف الخلفاء وزيادة الرواتب وتخفيف الضرائب المختلفة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى تفهقرت الواردات بتفقر الدولة وانحطت بانحطاطها فلم يبق في بيت المال الا مبالغ بسيطة ثم صار الامر في أيام المطيع بالله سنة ( ٥٣٦١ ) الى ان يبيع ثيابه وأنقاض داره ليدفع ( ٤٠٠٠٠٠ ) درهم طلبت منه للبعد في أثناء الفتنة ببغداد.

**النقد :** كنا تكلمنا في بحث الخلافة أنه كان من شارات الخلافة ضرب النقود وأول من سك النقود العربية وجعل استعمالها اجبارياً هو عبد الملك بن مروان . اما قبل ذلك فكانوا يتعاملون بالنقود الفارسية والبيزنطية والعربية .

وكانت النقود من الذهب والفضة والنحاس . فالدينار كانت من الذهب ( الدينار لفظ لاتيني الاصل مشتق من Deni اي عشرة ) . وكان يساوي وزن درهم وثلاثة اسباع ، أما قيمته فتراوح بين ( ١٣ ) و ( ١٥ ) درهم فضة أو أكثر ، وكانت الدراهم من الفضة ووزن الدرهم من الفضة ( ٥٠ ) حبة . ويساوي الدرهم ستة دوايق ويصنع الدوايق من النحاس ومرجع قيمة هذه النقود كلها الى الوزن كما لاحظت .

وكان يكتب على هذه النقود اسم الله والنبى ﷺ على أحد الوجهين وعلى الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة .

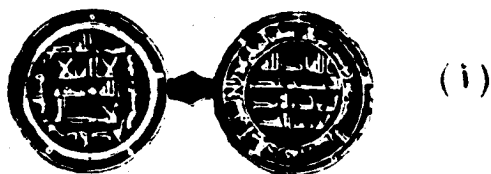
وتذكر المصادر وجود نقود عربية قبل عهد عبد الملك . يقول المؤرخ الالماني مولر أن خالد بن الوليد ضرب في طبرية دنانير على رسم وشكل اندنانير الرومية تماماً وعلى أحد وجهيها اسم خالد باليونانية وذلك سنة ( ٥١٥ ) كما يقول أيضاً أن معاوية ضرب نقوداً ذهبية على مثال الدينار الفارسي وعليها اسمه . وتوجد نماذج لكلا النوعين .

ويذكر المقرئ أن أول من ضرب النقود في الإسلام عمر بن الخطاب سنة ( ١٨ هـ ) على مثال النقود الفارسية ، وجعل عمر وزن الدرهم ١٤ قيراطاً أو سبعة أعشار المقيال ، وهو الحد الوسطي لوزن الدراهم التي كانت سائدة الاستعمال في أنحاء البلاد إذ وجد أن بعضها يزن ٢٠ قيراطاً ، وبعضها ١٢ ، وبعضها ١٠ قيراطاً وأكثرها مزور ، فأخذ رقماً وسطاً ليحمله أساس عملته الجديدة . وكان ذلك سنة ١٨ هـ كما وجد عمر النسبة بين الدرهم والدينار جعلها  $\frac{1}{10}$  وأصدر عثمان بعده دراهم منقوشاً عليها « الله أكبر » .

كما أن الولاة كانوا يضربون النقود وخاصة في بلاد فارس . ويوجد نماذج منها يرجع تاريخها إلى سنتي ( ٢٨ ) و ( ٣٨ ) .

**دار الضرب :** ولقد أوجدت دور لضرب النقود في العواصم الإسلامية وفي مراكز الولايات ، وكانت دور الضرب تتناول واحداً في المئة عن كمية الأموال التي تضربها للشعب كأجر للعمل ، وثمان للوقود ، ولو علمنا أن غلة دار الضرب بلغت في عهد أحد الخلفاء في القرن الرابع الهجري ٢٠٠ ألف دينار في العام لأدركنا كمية السبائك التي يقدمها الناس لسكها نقوداً ، وكمية النقود المتداولة بين أيدي الناس وغناهم ..

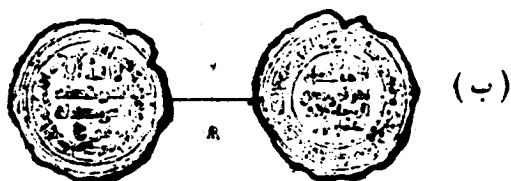
وكثيراً ما كان التزييف يتطرق إلى النقود المتداولة رغم وجود قوانين من عهد عبد الملك تعاقب المزييفين بأشد العقوبات ، فيضطر أولو الأمر عند ظهور أموال مزيفة إلى جمعها وضرب نقود جديدة ، من ذلك ما يذكر ابن الأثير في عهد إمرة الأمراء ببغداد ، أن ناصر الدولة الحمداني « نظر في العيار فرآه ناقصاً فأمر بإصلاح الدينار فضرب ديناراً سماها البريزية



(١)

شكل - ٢٢ -

٢ - درهم ضرب في الاندلس في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ وعليه : ( في المركز ) « الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ( في الطوق ) : « محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .



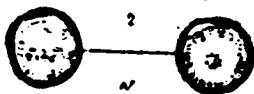
(ب)

شكل - ٢٣ -

ب - درهم آخر ضرب في الاندلس سنة ١٧٠ هـ كتب عليه : ( في المركز ) : « الامام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله » . ( في الطوق ) : « محمد رسول الله ارسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وعلى الوجه الآخر ( في المركز ) : « لا اله الا الله وحده لا شريك له » ( في الطوق ) ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة ١٧٠ هـ وعلى الوجه الآخر ( في المركز ) : « بسم الله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له » ( في الطوق ) : « ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة سبعين ومية »

شكل - ٢٤ -

تقود عربية ضربت في شمالي افريقيا والاندلس كتبت بلغتين عربية ولاتينية ، يعتقد المستشرق آجيو المشرف على ديوان الاوسمة في باريز انها ضربت من قبل القواد المسلمين في اول عهدهم بهذه البلاد . والكتابة اللاتينية تشمل نصوصاً دينية اسلامية .



خير من غيرها ، فكان الدينار بعشرة دراهم فيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً .

وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة . يؤخذ طابع من حديد تنقش عليه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ثم توزن المعادن ويوضع الطابع فوق كل قطعة ويضرب عليها بمطرقة ثقيلة حتى تظهر الكتابة عليها . ويقول ابن خلدون ان كلمة السكة كانت تطلق على طابع الحديد ثم نقل هذا المعنى الى النقوش التي على النقود ثم أصبح يطلق على وظيفة وعمل ضرب النقود والنظر على استيفاء حاجاته وشروطه .



شكل - ٢٥ -

وجه دينار اموي ضرب سنة ٨٠ هـ منقوش بكتابة كوفية نصها في الوسط : « الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ... وفي الطوق « ضرب هذا الدينار سنة ثمانين » والدينار محفوظ في المتحف العراقي ببغداد .

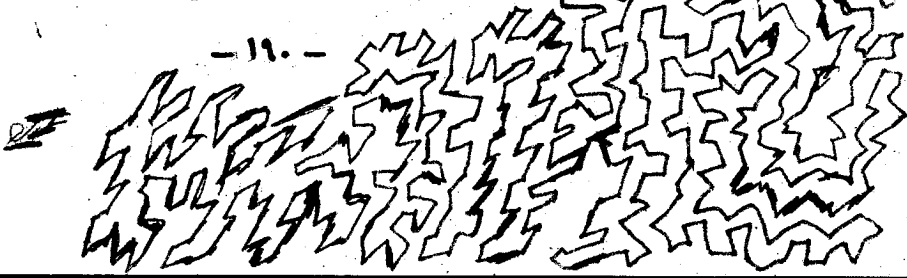


المجتمع القبلي

الاجتماعي

المجتمع القبلي : كان المجتمع العربي في الجاهلية ، بنتيجة تأثير البيئة الطبيعية ، يحوي نوعين متقابلين من الحياة حياة البدو الرحل في الوسط وفي نجد خاصة ، وحياة الزراع المستقرين على الاطراف أي في الحجاز واليمن وحضرموت وعمان . وقد قام التنظيم الاجتماعي للحضر من العرب كما للبدو ( الأعراب ) على أساس القبيلة<sup>(١)</sup> وكل الشعوب في اطوار تكونها الاولى مرت بالطور القبلي . ومعظم مظاهر التنظيم القبلي مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل امة ولها قوانينها العامة التي لا تنقل قيمة وتنظيماً عن قوانين اي نوع من أنواع الحياة الاخرى ثم تغادرها الامة إلى المرحلة المدنية ، فينظم المجتمع اما على أساس الفرد الحر مثلاً كما في اليونان ، أو على

(١) نستعمل كلمة قبيلة بالمعنى الذي تقابل به كلمة عشيرة . وهي في الاصل خاص لاحد اقسام المجتمع البدوي غلب على اسماء الاقسام الاخرى : فهناك ما هو اكبر منها وما هو اصغر . وهي بالترتيب الشعب ( كعدنان ) والقبيلة ( كربيعة ومضر ) والعمارة ( بكريش ) والبطن ( كعبد مناف ) والفخذ ( كهاشم ) والفصيل ( كبنو طالب ) .



اساس العائلة كما فعل الرومان او على اساس الملك الاله كما فعلت مصر القديمة ، أو على جمهور المؤمنين كما صار إليه المجتمع المسلم .

والمجتمع العربي الجاهلي كان يتألف من عرب القبائل المختلفة . وهم جميعاً احرار ومتساوون في الحق والقيمة وتقوم الرابطة القبلية على الدم ، اي شجرة النسب الواحد . والعصية القبلية شديدة تظهر في كل مناسبة وتنعكس في مثل قولهم : « انصر اخاك ظالماً أو مظلوماً » وقولهم :

لا يسألون أخام حين يندبهم للناثبات على ما قال برهانا  
وشيوخ القبيلة يتزعمها بالنسب أو بالغنى أو الشجاعة أو الرأي . وسلطته مطلقة إلا انه مع ذلك يشاور في امور الحرب والحكومة كبار القبيلة . وله على القبيلة حقوق الرئاسة التي جمعها قول الشاعر :

لك المربع منا والصفابا وحكمك والنشطة والفضول<sup>(١)</sup>

والعائلة في القبيلة يمثلها ربها وهو جندي فيها لا يملك سوى خيمته وله على اولاده حق الوأد والحرمان من الارث والخلع ( التبرؤ ) وله حق الطلاق والزواج كيف شاء .

ويتبع القبيلة طبقة الموالي وهم من دخلوا في ولاء القبيلة إما لان قبائلهم نبذتهم أو لأنهم تركوها أو كانوا عبيداً فأعتقوا .... كما يتبع العائلة العبيد الارقاء وهم من غير العرب دوماً . وقد دخلوا في ملك اصحابهم بالشراء أو بالامر في الحروب أو لسداد دين . ويظهر ان عدد الرقيق لم يكن كبيراً لدى العرب في الجاهلية . ولعلنا نستطيع أن نضيف الى هذا كله جماعة وجدت خارج القبائل والمجتمع القبلي بمن عرفهم العرب

---

(١) أي ربع الغنيمة . وما يصفيه . وما يحكم ازاله . وما يصيونه في الطريق الى الغزو . وما يفضل من الغنيمة مما لا تصح قسمته .

باسم الصعاليك او الذؤبان وقد اشتهر منهم عدد لهم مكانتهم الخاصة في الادب العربي والتاريخ الجاهلي .

ولم يكن تنظيم الحضرة الاجتماعي في القرى والمدن العربية والواحات ، يختلف عن تنظيم الاعراب القبلى سوى ان الملكية موطدة فيهم بينما ترى المرعى والماء والارض مشاعة عند البدو للجميع .

**القضاء في الجاهلية :** القضاء هو من الامور المعروفة المقدسة عند كل الامم مهما بلغت درجتها في الحضارة رقياً او انحطاطاً ، لان الخصومة من لوازم الطبيعة البشرية . فلو لم يكن هناك وازع للقوي عن الضعيف لاختل النظام وعمت الفوضى يشير الى ذلك قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » .

كانت منازعات العرب في الجاهلية محدودة معروفة لاتتعدى شجارهم على مراعيهم او مناهلهم التي يشربون ، ومنافراتهم على الرئاسة وتنافسهم في الشرف والثروة الى غير ذلك . وهو عصر سادت فيه العادات والتقاليد . وكان من عادة العرب ان يطيعوا يباغت من انفسهم قوانينهم المستمدة من العرف والعادة ومصدرها تجاربهم ومعتقداتهم ، او مقتبسة من جاورهم من الشعوب كالفرس والروم او ممن احتكوا بهم كاليهود والمسيحيين .

وكان لكل قبيلة شيخ هو سيدها بيده السلطان على افرادها روعي في اختياره الشجاعة وكبر السن وكثرة التجارب وغزارة العلم وسداد الرأي . وكان هو قاضها يحكم بين افرادها وفق عرفها وتقاليدها .

هذا بالنسبة للقبيلة . أما بالنسبة للعرب عامة فقد اشتهر عدد كبير من الحكام كان يلجأ اليهم المتخاصمون منهم : اكثم بن صيفي وعبد المطلب ابن هاشم جد الرسول وقس بن ساعدة الابرادي وابن أبي الصلت وزهير ابن أبي سلمى . ومن النساء حذام بنت الريان . التي قيل فيها :



إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام  
وكثيرات غيرها .

ولم يكن حكم القاضي فاصلا في النزاع وانما كان للقوة القدح المعلى  
في انهاء الخلاف . وقد يجر حكم الحكم لاحد القبيلتين الى اشعال نار العدا  
والبغضاء والانتقام بين القبيلتين المتنازعتين وقد يتعداهما الى قبائل اخرى  
كما حصل بين الاوس والخزرج ، وعبس وذبيان ، وربيعة ومضر وغيرها .  
أما منازعات الافراد داخل القبيلة الواحدة فان حكم الشيخ فيها حكم  
نهائي ملزم .

ومن عادات العرب أن يلجؤوا أيضا في منازعاتهم الى الكاهن لاعتقادهم  
أنه يستطيع اظهار الحق بمعرفته لان له تابعا من الجن يطلع به على كل  
شيء . أو الى العراف الذي يعلم الامور عن طريق الفراسة والقرائن .

كما كانوا يحتكمون ايضا الى الازلام وهي سبعة محفوظة عند سادن  
الكعبة كتب على الاول منها ( أمرني ربي ) وعلى الثانية ( نهاني ربي ) وكان  
يستقسم بهما في حالة التفكير في سفر او تجارة او زواج او اي امر  
مستقبل فان خرج الاول اقدموا وان خرج الثاني احجموا .

وقد كتب على السادس ( العقل ) والسابع ( الغفل ) فان لم يثبتوا  
القاتل احضروا المشتبه به - م فمن خرج عليه قدح العقل الزموا الدية .

**حلف الفضول :** ومن أشهر الحوادث التي حصلت في الجاهلية لأخذ  
الحق من الظالم وانصاف الضعيف حلف الفضول . وذلك ان وقع خلاف  
بين العاص بن وائل ورجل من زبير اشترى العاص منه سلعة وماطله في  
الدفع فلما عيل صبر الرجل جاهر بظلامته حول الكعبة بين رجال من قريش .

فاجتمعت قرى في دار عبد الله بن جدعان وعقدت حلف الفضول وقد شهدته النبي عليه السلام . وقرروا ان يشتركو في رفع الظلم واخذ الحق من القوي والغريب من القاطن . وبذلك نستطيع ان نقول ان النظام الذي عرف في الاسلام باسم نظام النظر في المظالم عرفه العرب في جاهليتهم .

**تشكل المجتمع الاسلامي :** لم يكن قد مضى على العرب المسلمين أكثر من سنين معدودة بعد الهجرة حين خرجوا من الجزيرة وحرروا مجتمعات الشام ومصر وليبيا من الحكم البيزنطي ، والعراق من الحكم الساساني ، ونشروا نفوذهم على ايران الفارسية . ولم يمض بعد ذلك كبير وقت حتى امتد نفوذ الدولة الاسلامية على مملكة تمتد في آسيا من تركستان واطراف الهند إلى ايران ثم العراق والشام وأواسط آسيا الصغرى ثم الجزيرة العربية ، كما تشمل من افريقيا : مصر وشمالي السودان وبرقة وطرابلس والمغرب العربي كله ، ومن اوربا : شبه جزيرة ايبيريا وصقلية وقسم من جنوبي ايطاليا . وقد كانت عناصر السكان في هذه البلاد مختلفة متباينة لا في الاصل فحسب ولكن في الحياة الاجتماعية وفي الثقافة الفكرية والانجاهات الاقتصادية عدا تبان التاريخ واللغات والميول : **فالجزيرة العربية** كانت مهد العرب ومركز فرعيهم من قحطانيين ( في الجنوب غالباً ) وعدنانين ( في الشمال ) مع عناصر محدودة جداً من الفرس والحش في الجنوب . وفي **الشام** : كان السكان خليطاً من بقايا العرب القدماء كالأراميين في الداخل<sup>(١)</sup> والفينيقيين في الساحل كما تتوضع بينهم في نقاط معينة من البلاد ( كقبسارية انطاكية و مثلاً ) عناصر هلينة ورومانية غربية ، وتنتزج بهم فيما بين جنوب فلسطين

---

(١) تسمى الاراميون بعد النصرانية باسم السريان نسبة الى سوريا .

إلى الجزيرة العليا حيث منابع نهر دجلة عناصر عربية بدوية وحضرية أهمها  
الغساسنة الذين ورثوا الانباط والتدمريين ، وكانت تنتشر في بعض المدن  
بمجموعات يهودية صغيرة مغلقة .

وفي العراق كانت كتلة السكان الاساسية مكونة ، خلال العصور ،  
من العرب القدماء وهم ورثة الآشوريين في الشمال والكلدانيين في الجنوب  
مع عناصر فارسية أهم مركز لها المدائن (عاصمة الساسانيين) ، وعناصر سريانية  
بين الحيرة وحراث ، وعناصر عربية أخرى بدوية وحضرية تملأ ما بين  
الأبلة والجزيرية العليا وأهمها بنو الحزم في الجنوب وبنو تغلب في الشمال .

أما فارس فيختلف التركيب الجنسي فيها اختلافاً أساسياً ولكن العناصر  
المسيطرة هي العناصر التي ندعوها لغوياً باسم الآريين وأهمها الفرس . وأما في  
التركستان فالعناصر التركية من الجنس المغولي الاصفر هي السائدة .

فاذا انتقلنا الى مصر وجدنا ذلك المزيج المصري القديم الذي يدعونه  
بالقبط ( والمؤلف من عناصر عربية قديمة وحامية معاً ) مع مجموعات محدودة  
من الرومان - اليونان في الاسكندرية خاصة وتظهر العناصر الزنجية في  
السودان .

وفي المغرب تظهر العناصر التي يدعونها لغوياً بالحامية : وهي البربر .  
وبينا بعض المجموعات الاجنبية من بقايا الفاندال ( الجرمن ) والرومان  
وبقايا القارطاجين الذين يعودون في أصولهم الجنسية الى العرب القدماء .  
كما نرى في اسبانيا خليطاً من العناصر التي يتكون منها السكان الاصليون من  
الاسبان ، محكومين من قبل مجموعة القوط الغربيين ( الويز يقوط ) .

ويتوزع بعد هذا كله مجموعات معينة ، مغلقة وصغيرة ، من اليهود في الشام واليمن ومصر والمغرب واسبانيا .

وقد خرج العرب من جزيرتهم فانساحوا في هذه الرقعة الواسعة من البلاد على شكل موجة أولية جرت أيام الفتح الاول في عهد عمر وعثمان وقد توضع معظمها في الشام والعراق ومصر . ثم استمر خروج العرب من الجزيرة واستمر توضعهم في انحاء العالم الذي فتحوه حتى نهاية العهد الاموي . ولئن قلت هذه الهجرة بعد ذلك فانها لم تنقطع لاسيما نحو المغرب ( كتغريبة بني هلال ) .

وهكذا نجد عدداً كبيراً من القبائل العربية يستقر في أبعد انحاء المملكة العربية أي في خراسان وفي الاندلس والمغرب كما يستقر في فارس وفي العراق والشام ومصر .

وتنتقل هذه القبائل العربية من حياة البداوة إلى الحياة الحضرية المستقرة . وبالرغم من ان المجتمع العربي الاسلامي فوجيء منذ أوائل القرن الثالث للهجرة بهجرة بدوية اخرى من أتراك تركستان تركت أثراً واضحاً في آسيا الصغرى فقط ، إلا أنها لم تؤثر غير تأثير محدود جداً في ايران والهلل الحبيب ومصر ، ولم تستطع الوصول إلى الجزيرة العربية ولا إلى شمالي افريقيا والاندلس . وهكذا بقيت الصبغة التي حملها العرب المسلمون إلى هذا العالم الواسع هي الغالبة في معظم المناطق .

فالعرب الذين توطنوا في الهلال الحبيب ومصر والمغرب لم يجدوا أي صعوبة في التوضع وفي الاندماج بعناصر السكان الموجودة في هذه المناطق ومعظمها تتفق معهم في الاصل أو في اصول اللغة وتضافرت عوامل عدة لجعل هذه العناصر تستعرب نهائياً :

**اولها :** انتشار اللغة العربية بجانب الدين الاسلامي انتشاراً تدريجياً مستمراً خلال القرنين الاولين للهجرة خاصة .

**ثانيها :** اختلاط العرب جنسياً بالزواج والمصاهرة والتسري ؛ واجتماعياً بالمساكنة والمعاملة مع العناصر الاخرى فتغلبوا عليها .

**ثالثها :** الحكم العربي واستئثار العناصر العربية بقوة الحكم وشرف حل الديانة الاسلامية للناس . ، ما اخضع لها العناصر الاخرى وجعلها تقر لها بالفضل وتحاول ادعاء النسب العربي بأي شكل .

على ان العناصر العربية التي توضع في خراسان وفارس وتركستان لم تستطع ان تتغلب على المجموعتين الآرية والمغولية فذابت فيها منذ القرن الرابع الهجري كما أنها اخرجت من الاندلس بعد انهيار الحكم العربي هناك في القرن الثامن الهجري ( الخامس عشر م ) ، واستوصلت بمختلف الوسائل ، فلم يبق سوى الآثار الرائعة والتأثيرات العميقة التي لحصها الشاعر الاسباني المعاصر ( فيلاسباسا ) في قوله : لو حكت أحداً جلده لظهر تحته الجلد العربي .

وعلى اي حال فقد خرج من مجموع تلك العناصر المشتبكة التي ذكرناها : مجتمع اسلامي - عربي تماماً في بعض المواضع ومستعرب ثقافياً أي دينياً ولغوياً في بعض المواضع الاخرى .

## ٢ - طبقات المجتمع الاسلامي وتطورها :

قبل البدء في دراسة المجتمع الاسلامي وتطوره يحسن ان ننتبه إلى ملاحظات ثلاث :

**اولهما :** ان طبقات المجتمع الاسلامي لم تكن طبقات مغلقة أي

ماوصلت مرة الى درجة اقامة الحدود التي لا تخرق بين الناس . ولكنها  
تكونت تبعاً لبعض الاعتبارات المتحولة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية .

**الثانية :** ان هذه الطبقات كانت تنشأ في عصر وتموت في آخر ، ولم  
تحافظ واحدة منها لاعلى بقائها ولا على مرتبتها الاجتماعية خلال التطور .

**الثالثة :** انا سنوجه اهتمامنا لدراسة المجتمع الاسلامي الحضري وخاصة  
كما ظهر في العراق والشام ومصر والاندلس ؛ على انه يجب الان نرى ان  
مجموعات بدوية كثيرة بقيت تعيش حياتها ، على طريقها الاجتماعية الخاصة  
في قلب الجزيرة العربية ويران وتركستان وفي صحاري مصر وليبيا  
وبلاد المغرب .

### **- المجتمع الاسلامي في عهد الرسول ومطلع العهد الراشدي :**

اعلن الاسلام منذ ايامه الاولى تحطيم النظام الاجتماعي بين العرب ، وقرر  
للعرب نظاماً آخر يقوم على اسس اخرى ، وقد رمز الدين الجديد لهذا  
الانقلاب بكلمتي : الجاهلية والاسلام ، وما يجتفي وراء الكلمتين من معان  
ومثل .

حطم الاسلام اولاً رابطة المجتمع القبلي القائمة على الدم والنسب ، واحل  
محله رابطة الايمان والاشتراك في الدين الواحد . وهي رابطة واسعة  
مفتوحة الاطراف لكل من يؤمن بالاسلام . وتواترت الآيات والاحاديث  
التي تؤكد اخوة المؤمنين وتساويهم وتفاضلهم بالتقوى : « انما المؤمنون  
اخوة » .

« يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل  
لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، « المؤمنون سواسية كأسنان المشط » ،  
« لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والدين » .

وقد نظم الاسلام المجتمع الاسلامي فدعا إلى مكارم الأخلاق ،

رائدة لجميع المسلمين ، وجعل الخوف من الله في السر والعلانية أصلاً  
للعاملة ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية ، كما جعل المسلمين  
سواسية ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، لافرق بين عربي مسلم وأعجمي مسلم ،  
كما جاء في الآيات والاحاديث المذكورة ، ورفع شأن المرأة فنظم أمر  
زواجها وطلاقها وميراثها وحقوقها ، وإن أبقي الإسلام على نظم الرق ،  
فقد حسن معاملة الرقيق وفتح الطريق لتحريره بأبواب عدة شجع فيها  
المؤمنين على الاستغناء عنه . . ووضع أصول المعاملات ، وبين علاقات  
الأفراد بعضهم مع بعض ومع أولي الأمر ، وأوجب الزكاة وحدد أوجه  
صرفها في أمور تساعد فيها الفقير والمحتاج والمسكين وابن السبيل ، وأطلق  
يد ذوي اليسار بالصدقات يتقربون بها إلى الله ، وأوجب الأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر .

وكان المجتمع الاسلامي في عهد الرسول عليه السلام ، من العرب ،  
الذين عاصروا الثورة الاجتماعية الاسلامية ، فلما خرج العرب في عصر  
الراشدين من حدود الجزيرة الى الهلال الخصيب ووادي النيل ، ثم انساحوا  
إلى ما بعد ذلك كثرت العناصر التي صارت تؤلف المجتمع الاسلامي ،  
ولكن العربية بقيت غالبية ، في الدم واللغة على الأقل ، إذ كان في  
الشام والعراق ومصر عرب قبل الإسلام ، يتكلمون العربية ويرتبطون  
بأبناء الجزيرة بصلة الرحم ويتصلون بهم عن طريق التجارة المستمرة ،  
والوفود القادمة من الجزيرة إلى الاطراف وعن طريق الشعراء . ولم يكن  
أبناء هذه البلاد من غير العرب غرباء عن العرب وعن لغتهم ، فقد كانوا  
على اتصال دائم بهم ، حين يقدمون مع قوافل التجارة ، وكان لعرب الحجاز  
مراكز خاصة بهم ، فغزة كانت مقراً لبعض تجار قریش ، وبصرى  
الشام تحتفظ لهم في سوقها بامكنة خاصة ؛ والحيرة عربية بدمها ولحمها ،

وصحراء مصر الشرقية ومدنها الرئيسية خاصة بالعرب . وما قصة عمرو بن العاص ، حين كان شابا في مصر ، قبل الاسلام ، الا دليل على ارتياد العرب هذه الديار وصلتهم الوثيقة بأهلها ..

واللغة العربية نفسها ، لم تكن غريبة على الجماهرة الغالبة في هذه المناطق الجديدة ولم يكن تعلمها صعباً على الناس الذين انضمت بلادهم الى الدولة العربية الناشئة ، لان اللغة العربية احدى اللغات السامية ، وأكثر اللغات المحلية كانت وريثة اللغات السامية القديمة التي كان يتكلم بها ابناء الدول العربية القديمة ، عدا مراكز في المدن غلبت عليها اليونانية في الشام ومصر ، والفارسية في العراق ، وكان ابناء هذه المراكز أسرع العناصر اقبالاً على تعلم العربية للاحتفاظ بمركزهم الاجتماعي والمالي والادبي والسياسي الذي كان لهم ، وكان الذين دخلوا في الاسلام من جميع الطوائف والأجناس مالوا إلى تعلم العربية لعامل آخر ، هو حفظ القرآن واداء الصلاة ، فسرعان ، لعوامل متعددة ، ان سيطرت العربية في انحاء الامبراطورية الجديدة ، ونتج عن التزاوج الحصب بين العرب القادمين من الجزيرة ، وسكان البلاد الجديدة ، جيل جديد ، ينتمي من حيث الدم إلى الجنس العربي ، وهكذا تعربت الدولة ، كما غلب عليها ، الاسلام ، وإن بقيت اقلية من أهل الكتاب حافظت على عقائدها أو مذهبها الدينية السابقة . وحتى العادات والتقاليد وأنظمة الحكم ، التي أقبل عليها عرب الجزيرة يقتبسونها ويمارسونها فانها تقاربت لاجتماع عدد من مختلف الأجناس في بيت واحد ، فقد عمل التزاوج بغير العربيات والتسري بالرقق عمله في التقريب الاجتماعي والفكري ، كما عمل انتقال القبائل العربية الى مختلف المناطق على مثل ذلك من تقارب وتفاعل ..

لم تكن حركة التحرير والفتوح العربية قد انتهت حين بدأ دخول



جماعات مختلفة من الاعاجم في الاسلام فتغير بذلك وصف المجتمع العربي المسلم ، وظهر فيه التمييز بين المسلم العربي والمسلم الاعجمي الذي اضحى يدعى بالملوى . بمعنى الذين أسلموا على يد العرب واتبعوهم وأصبحوا حلفاء لهم . وسرعان ما عادت بهذا الشكل إلى الوجود ، منذ مطالع العصر الاموي ، فكرة العصية والنسب ، وعاد معها النزاع القبلي الجاهلي ما بين بن ( قحطانيين ) و قيس ( عدنانين ) وما بين امويين ( بني أمية ) وهاشمين ( آل علي ) ...

على ان هذه الرجعة الى الجاهلية لم تلغ الاساس الديني في المجتمع ولكنها تواءمت معه ، وهكذا اضحنا نرى في المجتمع الاموي خاصة ظهور عدد من الطبقات ذات فروع مختلفة ، تنقسم على مستويات مختلفة أيضاً : فهناك اولاً العرب وفيهم الحكم والقيادة والاولية الاجتماعية : ومنهم طبقة آل البيت وطبقة الصحابة وطبقة الفاتحين ( بمن حضر القادسية او اليرموك ) وطبقة الحكام الامويين وطبقة التابعين وتابعي التابعين .. الخ كما تميزت فيهم مجموعتان متناحرتان : القيسيون والهاشميون .

وعنك ثانياً الموالي : وهم الاعاجم المسلمون وجلهم من الفرس وقد نبغ منهم العديد من علماء الدين ، وأسندت اليهم مناصب القضاء وغيرها ، بينما انصرف كثير منهم إلى الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة .

ثالثاً طبقة العبيد : التي كثرت كثرة كبيرة جداً نتيجة الفتوح . وكلهم غير مسلمين ، في الاصل ومن كان منهم مسلماً فاسلامه كان بعد الرق . أما غير المسلمين فكانوا طبقة واحدة : تدعى اهل الذمة . وتشمل المسيحيين واليهود كما توسع مفهومها فشمّل اصحاب الديانات غير السماوية أحياناً . وقد تمتع النصارى العرب خاصة بالمكانة نفسها التي كانت لباقى العرب يدلنا على ذلك مكانة الاخطل الشاعر مثلاً .

## المجتمع في العصر العباسي :

تعدلت طبقات المجتمع في مطالع العصر العباسي لصالح الفرس خاصة بسبب اعتماد الخلافة العباسية عليهم في البدء ، وتوازت طبقتا العرب والفرس في السلم الاجتماعي ؛ على ان العصر العباسي سرعان ما أثنى ببطقة حاكمة ثالثة هي المماليك الاتراك الذين تسربوا من التركستان الى الجيش ثم الى البلاط حتى سيطروا على مصائر الخلافة . واضمحلت في غمرة النزاع العام والاختلاط المستمر العنصرية القومية ، بينما كان التطور الاقتصادي يصهر الفروق الاجتماعية لاسيما في العراق ليخلق مجتمعا مدينا جديداً يقوم التمايز الاجتماعي فيه على اساس المال من جهة وسلطة الحكم من جهة اخرى . وهكذا ظهرت بصورة خاصة في الشرق طبقتان اساسيتان :

**الخاصة :** وهم عدا الخليفة افراد البيت المالك وكبار القواد ورجال الدولة وكبار التجار والقضاة ، والاقطاعيون والموسرون واتباع هذه الطبقة من جند وخدم وعبيد وخصيان وشعراء .

**العامة :** وهم بقية أفراد المجتمع وطبقاته من التجار الصغار والصناع والمزارعين والباعة والفنانين والاحداث ( الملبيشا البلدية ) .

وقد وجدت نتيجة فساد التنظيم الاجتماعي طبقة خارج الطبقات الاجتماعية من الفقراء منها الشطار والعيارون ونجد صدى هؤلاء واضحا في التاريخ العباسي وفي قصص الف ليلة وليلة . ويضاف بالطبع الى هذه الطبقات طبقة **الذميين** وقد كانت ذات حرية وتقدم في شؤون العلم والاقتصاد وقد اتسع مفهومها في هذا العصر فشملت بجانب النصارى واليهود والمجوس : الصابئة .

ولئن تطور المجتمع الاسلامي في العصور العباسية المتأخرة وفي العصر

الملوكي تطوراً واسعاً وعميقاً فقد بقي محافظاً على طبقاته الأساسية وان  
برز في الطبقة الأولى الممالك أصحاب القوة العسكرية .

**المجتمع الاسلامي في الاندلس :** وقد اتبع تطوره نهجاً مختلفاً

بعض الاختلاف عن المجتمع في الشرق ، فقد برزت فيه اول الامر طبقة  
الحكام ، ثم ظهرت بجانبها طبقة المولدين من الاسبان المسلمين وطبقة  
المستعربين وهم من لم يسلم من الاسبان ، وقد كانت لهم حكومتهم وادارتهم  
يمثلهم لدى دار الخليفة .





## المجتمع العربي الاسلامي

### ١ - الموالي

**الموالي :** لكلمة « مولى » في اللغة معان عديدة : فهي تعني الرب والمالك ، وتعني ابن العم والعصبة كلها ، وتطلق على الناصر والخليف والصاحب والجار والشريك وعلى السيد وعلى من يعتق من العبيد . على ان الشرع الاسلامي اختص الكلمة بمعنيين فقط هما مولى العتاقة ومولى الموالاة على ما كان معروفاً في العهد الجاهلي ثم أضحت الكلمة ، بعد الفتوح الاسلامية ، ذات معنى اصطلاحى خاص يعني : كل من اسلم من غير العرب . وقد سمي العرب هؤلاء باسماء أخرى منها : حمراء ، اعاجم ، علوج .

**( ١ ) الموالي في عهد الراشدين والامويين :** لقد سوى الاسلام بين الناس فلم يفرق الرسول ﷺ في سياسته بين العرب والموالي ، واتبع أبو بكر نهجه نفسه ولم يرض حتى بتفضيل ذوي السابقة في الاسلام في العطاء قائلاً : « إنما ذلك شيء ثوابه على الله . وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » وجاء عمر بن الخطاب فافقر تمايز الناس بعضهم على بعض بسابقتهم في الاسلام وبلانهم فيه ، ولقد أذن مرة للموالي كصهيب وبلال « من موالى الرسول ، قبل أن يأذن لبعض سادات قريش » كأي سفيان ، فأما غضب هذا وقال : يأذن هؤلاء العبيد ويتركنا على باب . أسكته أصحابه .

على أن عهد النسوية هذا انتهى فجأة بمصرع « عمر » على يد أحد الموالى . فبدأ استيقاظ العصية العربية في النفوس ، وجاء عهد عثمان فزاد في قوتها بما ثار بين الامويين والهاشميين أو بين قريش والعرب أو بين العرب والعجم

من نزاع وخصومة ، فلما ولي الخلافة علي ، لم يستطع أن ينهه من هذه العصية بل كان عمله على مكافحتها سبباً من أسباب انصراف بعض العرب عنه . ولما جاء العهد الأموي توطدت في نفوس العرب فكرة أفضلتهم على الناس جميعاً لأسباب عدة : لأنهم أولاً (مادة الاسلام) : فيهم ظهر الدين ومنهم كان رسول الله وهم السابقون إلى الاسلام والمتفضلون على غيرهم بنشره ونقلهم من الكفر إلى الايمان . ولغتهم هي لغة القرآن .

ولأن العرب ثانياً فتحوا بلاد الموالي بالسيف وهزموا دولتي الفرس والروم عنوة ومنوا عليهم بعدم الأسر والرق . وهدوهم إلى الايمان والاسلام وآخراً لأن حكم الدولة كان في العرب فالحليفة والولاة والقواد وحمله الدين كانوا منهم . ويمكن أن نضيف إلى هذا أيضاً أن الموالي أنفسهم أقروا للعرب بالفضل وتركوا لهم المكان الأول في المجتمع . وزادت العصية القبلية التي ثارت خلال العهد الأموي بين القيسيين واليمانيين في ايضاح الفرق بين العرب والموالي ؛ كما أن سياسة الأمويين العربية أغضبت الفئة المؤمنة من عرب وموالي ، لأنهم رأوا في هذه السياسة بعداً عن الهدف الديني للفتح العربي ، وتميزاً بين رعية بساوي بينها الإسلام .

ب) رد فعل الموالي : وقد ارتضى الموالي أول الأمر مكانهم هذا من العرب بفعل العاطفة الدينية من جهة ، ولأن معظمهم لم يكن أحسن حالاً تحت الحكم الساساني والبيزنطي من جهة أخرى ، بالإضافة إلى أن أشرف الفرس (الدهاقين) في ايران نالوا امتيازات اقتصادية أنستهم ما خسروه سياسياً . على أن أسباباً عدة كانت تعمل على إثارة نعمة الموالي على الحكم الأموي حتى اضحووا عدة جاهزة لكل حركة من الحركات السياسية والدينية المعارضة ولكل فتنة ضد الحكم الأموي .

لم يكن الاحتقار الاجتماعي الذي أظهره بعض الأمويين نحوهم

(٢)

هو السبب الوحيد في تلك النعمة، فان أكثر الأمويين اساءوا إلى الموالي ايضا في سياستهم المالية التي تقوم على الابتزاز بصورة عامة، فقد فرضوا الضرائب الاضافية واتخذوا منهم من الولايات وسيلة للثراء واخذوا الجزية من لانجب عليهم، وتلاعبوا بالعطاء نقصاً وحرماناً. وقد حاول عمر بن عبد العزيز الإصلاح ففرغت خزانة الدولة من جهة ومات صريعاً فنقضت اصلاحاته من جهة اخرى. وشعر الناس، فيما بين الإصلاح ونقضه بأن لهم حقوقاً مضمومة. ثم ان انتشار الاسلام وفهم الناس لمبادئه في اخوة الايمان والتفاضل بالتقوى يصطدم عملياً بالسياسة الاموية العربية. واثق اتحل بعض الموالي النسب العربي تقرباً للعرب فان الكثرة الغالبة منهم كانت تفضل على ذلك تطبيق السياسة الإسلامية الحقة.

ولا شك أن الروح القومية قد لعبت دورها أيضاً لدى الموالي لاسيما لدى الفرس في إيران، وقد استيقظت هذه الروح بأشكال دينية أحييت بعض الافكار والعقائد الفارسية القديمة والبسها أحياناً الثوب الاسلامي. وهكذا فان المؤمن من الموالي وضعيف الايمان وغير المؤمن كانوا سواء في كره الحكم الأموي.

وأخيراً فان الأحزاب السياسية المتناوئة للأمويين من خوارج وشيعة عملت بصورة مباشرة على إيضاح الظلم الاجتماعي والمالي والسياسي الذي يحيق بالموالي وقد استجاب هؤلاء خاصة للدعوة الشيعية العلنية والسرية (العباسية) على السواء أملاً في الخلاص من ذلك الظلم.

لهذه الاسباب جميعاً انجى الموالي لمقاومة الحكم القائم فقاوموه كحكم أموي و كحكم عربي و كحكم إسلامي أيضاً و سلكوا في ذلك مسالك شتى :

(١) دفع إيمان الكثير منهم بالإسلام، وذوبانه في الدعوة إلى دراسته والتعمق في تعاليمه، فبرز في الناحية العلمية - الدينية ومرعان ما بلغ بعض

المسالك  
المواهب

الموالي في ذلك شأواً بعيداً إذ أضحي معظم الفقهاء والعلماء في كل الامصار منهم كربيعة الرأي شيخ الامام مالك وفقه المدينة ، ومجاهد عالم مكة وزميله عطاء بن رباح ثم سعيد بن جبير عالم الكوفة . والحسن البصري عالم البصرة ، ويزيد بن حبيب مفتي مصر ومكحول بن عبد الله في الشام . ثم حماد الراوية وسيبويه والسائب بن فروخ الشاعر ، وقد أفاد الموالى من ذلك فائدتين إحداهما السمو الاجتماعي عن طريق العلم والثانية أن بعضاً منهم قد دس على الاسلام مبادئ غريبة عنه من الديانات القديمة

٢) ثم اتجه بعض الموالى إلى مناوأة العصية العربية بعصية اخرى عرفت باسم الشعوية وهي نضال اجتماعي وفكري دافع به الموالى عن أنفسهم فيعظم أخذ يناقش تساوي العرب مع جميع الأمم ويعرف هؤلاء بأهل « التسوية » وأكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم على السواء كانوا يرون التسوية تنسجم مع مبادئ الاسلام ، وربما جاء اسم الشعوية من حبهم بالآية الكريمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . كما كانت الاحاديث النبوية ترفدهم بمادة غريبة في الدفاع عن رأيهم هذا .

وبعض الموالى ، ممن لم يدخل الايمان في قلوبهم ، أو ممن غلبت عليهم النزعة القومية اخذوا يفضلون جميع الامم على العرب ويفخرون بأصلهم الاعجمي بينما يرمون العرب بمختلف المثالب . وقد ظهرت هذه النزعة في السنوات الثلاثين الاخيرة من العهد الاموي حتى ان شاعراً من الموالى تَجَرَأَ على انشاد هشام بن عبد الملك شعراً في ذلك ( جازاه عليه بان غطه في الماء ونفاه إلى الحجاز ) .

وقد حاربت الشعوية العرب بأشكال مختلفة ، فهاجت مزاييمهم من شعر وبلاغة ، وعابتهم في حوزهم واستندت إلى عالمية الاسلام فسلبتهم الفخر به ، ثم

أكثر الشعوب من التأليف في مثالب العرب ومناقب العجم وصنفوا في ذلك تصانيف شتى منها الكثير من المختلق الموضوع ولئن رد العرب والمتعصبون لهم على ذلك بثله فإن هذه الحركة التي امتدت قرابة قرن (القرن الثاني الهجري) والتي ظهرت سافرة في العصر العباسي الأول تركت في الأدب العربي وفي التاريخ الإسلامي وفي الدين ومختلف العلوم العربية بقايا كثيرة من التشويه والافساد .

٣) وانجبه الموالي بالإضافة إلى هذين الاتجاهين الفكريين إلى السيف والثورة أيضاً . فقد كان جل أصحاب المختار الثقفي منهم . كما كانوا مادة جيش ابن الأشعث في ثورته على الحجاج وبني أمية . وثاروا مع الحارث ابن سريج في خراسان ثم اجتمعوا حول الدعوة العباسية السرية مع من اجتمع حولها .

وبرز منهم أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني اللذان ساهما مساهمة أساسية مع جموع كثيرة من الموالي الفرس في نقض الحكم الأموي وإقامة الحكم العباسي .

وبعد بعض المؤرخين قيام الدولة العباسية ، نصرأ للفرس على العرب ، والواقع لا يؤيد ذلك . فقد ظلت الخلافة عربية . وامتدت مكافحة المتنفيين من الفرس عهداً طويلاً في العصر العباسي الأول وصرع كبارهم على أيدي العباسيين كابي سلمة وابي مسلم والبرامكة ولكن جماهير الموالي من الفرس نفقت على العباسيين لأسباب في إيران وقامت بحركات ثورية عديدة منذ زمن المنصور . على أن الموالي كسبوا بصورة عامة ، الخلاص من السياسة العربية الأموية ، والجهار بمقاومة العرب والفخر عليهم ، كما اعترف لهم



بالحقوق السياسية فصاروا يولون الوظائف الكبرى ، من ولاية وقيادة  
ووزارة ؛ مما جعل مكانهم ، بالنسبة للعصر الاموي-تعتبر نصراً كبيراً .  
ولهذا استمر الصراع بينهم وبين العرب قائماً أيام العباسيين وتجادب البلاط  
العباسي حزبان : فارسي خراساني وعربي ، ما لبث أن برزا للعداء السافر العلني  
في الفتنة الاخوية بين الأمين والمأمون . ومع هذا فقد انصرف المأمون  
عن الاتجاه للفرس منذ استقر في العاصمة بغداد . فلما ولي الخلافة أخوه  
المعتصم وبدأ يعتمد هو والحلفاء من بعده على عصبية جديدة من الترك كان  
ذلك ايذاناً بظهور النزعة العالمية في الامبراطورية الاسلامية التي لم تعد  
مملكة عباسية ، ولكنها أضحت دولاً عدة يربطها الولاء الاسمي للخليفة العباسي  
واضحى المؤرخون يسمونها باسم : مملكة الاسلام .



## من طبقات المجتمع العربي الاسلامي

### اهل الذمة

في الاسلام عدة اسماء تطلق على الجماعات غير المسلمة : فالكافرون اسم عام يطلق على كل منكر للرسالة الاسلامية ، والمشركون هم من لا يؤمنون بوحداية الله ، واهل الكتاب هم اصحاب الكتب المقدسة من النصارى واليهود ، وقد الحق بهم في زمن عمر المجوس ( الزرادشتيون ) وفي زمن المأمون الصابئة ( عبدة النجوم ) . أما الاسم الذي عم استعماله للدلالة على غير المسلمين وبصورة خاصة على النصارى واليهود ، فهو اهل الذمة أي الذين يعيشون في ذمة المسلمين وحمايتهم .

( ١ ) توزع اهل الذمة في العالم الاسلامي : ظهر الدين الاسلامي في الجزيرة العربية ، ومعظم من فيها على الشرك وبعضهم يهود ، وقليل منهم على النصرانية ، فلما توفي الرسول كان الشرك قد انتهى رسمياً بين العرب . ولكن اليهود رغم اضحلال امرهم والنصارى معهم كانوا لا يزالون موجودين . وبالرغم من أن عمر بن الخطاب حاول بعد الفتح الاسلامي ان يحلهم عن الجزيرة كلها فلا يدع فيها الا العربي المسلم الا أن جماعة كبيرة من اليهود بقيت بصورة خاصة في اليمن .

وأما البلاد التي فتحت ، فكانت المسيحية هي الدين السائد في العراق والشام ومصر منها وفي بعض الشمال الافريقي واسبانيا بينا ايراث تدب بالديانات الفارسية من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وكانت مجموعات اليهود موزعة توزيعاً مختلفاً في انحاء عديدة من البلاد . وقد استطاع الاسلام ان

يُكسب اليه تدريجياً معظم عناصر السكان خلال القرون الثلاثة الاولى للدولة الاسلامية ، غير أن مجموعات كثيرة اخرى بقيت على دينها الاصلي : لاسيا اقباط مصر ، والمارونيون في لبنان ، والتغالبية في الجزيرة ، والسريان في العراق وكلهم بقي على النصرانية وقسم من سكان الجبال في شمال غربي ايران الذين احتفظوا بعقائدهم المجوسية الاولى ولم يدخلوا الاسلام الا متأخرين ( حوالي القرن الخامس ) .

أما اليهود فقد وجدت جاليات منهم في الأندلس ومراكش وفي تونس ووجد في القاهرة ( في القرن الرابع ) سبعة آلاف وفي الاسكندرية ثلاثة آلاف وفي دمشق أكثر من ذلك وفي حلب خمسة آلاف ، وفي الموصل عشرة آلاف وفي بغداد الف وفي القدس أربعة فقط . كما وجد في اليمن وفارس وتركستان ويقدر السائح اليهودي ( بنيامين تودلا ) عددهم في القرن السادس بحوالي / ٣٠٠ / ألف عدا من في المغرب .

**ب ) موقف الرسول والشرع الاسلامي من النعميين :** كان على الرسول ﷺ منذ بدأ الدعوة للاسلام ان يحدد موقفه من الاديان الأخرى القائمة . فاما الوثنيات والاديان المشركة فقد حاربها جهاراً وكسب الرسول ﷺ في السنوات الأخيرة من حياته كل أصحابها في انحاء الجزيرة العربية . وأما أهل الكتاب من نصارى ويهود فقد كانت علائقه معهم مختلفة رغم قيامها على أساس وطيد ثابت من المحبة والتسامح ، فالنصارى ظلوا ذوي المقام الأول عند المسلمين .

أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى ملك الحبشة المسيحي لاجئين إليه فأحسن وقادتهم ورفض تسليمهم إلى القرشيين حين طلبوهم . وكبار النصارى الذين دعاهم الرسول للاسلام ردوا عليه رداً حسناً ، وأهداه المقوقس صاحب مصر

جارية وبغلة . وانا لنجد صدق هذه العلائق الطيبة في القرآن الكريم  
إذا جاء فيه :

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بان  
منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » كما أيد القرآن المبادئ الكبرى  
في المسيحية .

وأما اليهود فقد كان لهم وضع آخر ، ذلك أنهم كرهوا هجرة الرسول  
إلى يثرب التي ينزلون فيها ، فبدؤوا بمجادلون المسلمين الجدل العنيف ؛ ولما بدأ  
ظهور الدولة الإسلامية أخذوا يكيدون لها ويتآمرون مع أعدائها : فكان  
موقفهم عدائياً من المسلمين عقب هزيمة أحد وقد خانوهم في اللحظات  
الحرجة من غزوة الخندق وثاروا على الرسول في حصونهم بمنطقة خيبر ،  
ثم حاولوا إضافة الى ذلك قتله وتسميمه ولهذا أخرجهم من يثرب مرة بعد مرة  
وحاربهم حتى أخضعهم . وانعكس ذلك العداء واضحاً في آيات القرآن  
الكريم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »

ومع هذا فقد أمر المسلمون بحسن ومجادلة الكتابيين من يهود ونصارى  
على السواء : فقد جاء في القرآن الكريم :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم  
وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له  
مسلمون » . وقد رويت عن النبي ﷺ أحاديث بحسن معاملة الكتابيين  
منها « احفظوني في ذمتي » ومنها « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق  
طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة ومن  
قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة » .

وما جاء في القرآن الكريم سوى آية وحيدة بتكليف أهل الذمة « أن يعطوا الجزية عن يد ، لأسباب أوضحها الفقهاء فيما بعد .

وتبعاً لهذه الروح كانت معاملة الراشدين لأهل الذمة معاملة في منتهى الود . فقد أمر أبو بكر جيوشه الذاهبة لفتح الشام بحسن معاملة الرهبان واحترام البيع ( الاديرة والكنائس ) كما قاد عمر بن الخطاب يهودياً شيخاً بنفسه فأعطاه من بيت المال ثلثا يطلب صدقة الناس ، واشترى من الذميين أرضهم حين رأى اجلاءهم عن الجزيرة وأوصى أهل الشام والعراق بهم خيراً .

غير أن الذي يهنا في عهد الراشدين ليست هذه المعاملات الفردية ولكن موقف الدولة الاسلامية جميعاً من تلك الكتل الكبيرة من الذميين الذين دخلوا في حوزتها بعد الفتح العربي الكبير . فقد اضطر عمر بن الخطاب أن يجدد علاقته معها تحديداً واضحاً وهذا ما أوجد « سياسة العهود » في الاسلام .

وقد وردت نصوص عديدة لعهود مختلفة منحها الرسول ﷺ أو الخليفة الثاني أو غيرهما لأهل أيلة أو أهل إيلياء ( القدس ) أو دمشق أو لأقباط مصر . . الخ وهي تحدد حقوق الذميين وواجباتهم في الدولة الاسلامية . وقد تعهدوا الفقهاء بالكثير من الشرح والذكر والتفصيل . وسواء صحت هذه العهود في خطوطها الكبرى أو في تفاصيلها أو لم تصح ، فإنها خلاصة تاريخ طويل من العلاقات بين الدول الاسلامية وبين مجموعة كبيرة من رعاياها غير المسلمين وهي تعين لنا مكان أهل الذمة الشرعي في الاسلام .

ويتلخص ما جاء في تلك العهود بأن الذميين حق الامان في الدولة الاسلامية ( وله شروطه وقيدوه ) على نفوسهم وأموالهم وحق الحماية الدينية

في الاعتقاد وممارسة الشعائر . وحق السكن ومزاولة الاعمال المختلفة إلا أنهم مقيدون في تغيير الدين فلا تغيير الا للدخول في الاسلام ، ولا يسمح بزواج المسلمة من غير المسلم ، وهناك خلاف كبير بين الفقهاء حول قتل المسلم بالذمي وحول الديات .

أما واجبات الذمي فهي دفع الجزية وعدم الاجتماع على قتال المسلمين وعدم قتل المسلم عن دينه وعدم قطع الطريق عليه او قتله أو معونة المشركين عليه في قتال أو نجس أو إيواء اعداء الدولة وعدم التعرض لكتاب الله أو نبيه أو للاسلام بما لا ينبغي .

**ح ) اهل الذمة والدولة الاسلامية :** برغم الصفة الدينية التي حملتها الدولة الاسلامية فانها في موقفها من الذمين لم تكن دولة دينية بمعنى الكلمة: ونذر أن نظرت اليهم الا كمواطنين ورعاياها :

فأما عن موقف الدولة من الكنيسة فانها لم تعترف بها على ما يظهر الا في أواخر القرن الاول للهجرة ، ولكن منذ ذلك الوقت عادت للبطاركة مكانتهم الرسمية ولرؤساء اليهود كذلك . فصار الذميون ينتخبون رؤسائهم بانفسهم وكان الخلفاء أحيانا يصدرن المراسيم باقرار انتخابهم كأنهم موظفون حكوميون .

كما كانوا يعتبرونهم الممثلين الرسميين لطوائفهم . وجاء وقت كان فيه الناس يقفون في دار الخلافة ببغداد لحاحام اليهود الاكبر الملقب « بسيدنا » كما كان يلقب الحاخام في القاهرة الفاطمية بسيد السادات « سارها تساريم » وترك الدولة لهؤلاء الرؤساء الدينيين حق القضاء بين رعاياهم كما كانت هي بدورها تفصل في خصوماتهم .

**وقد استخدمت الدولة في وظائفها اهل الذمة على نطاق واسع أحيانا :** ولئن كان عمر بن الخطاب قد كره استخدام اليهود فان الخلفاء من بعده قد

استعملوا الذمين في مختلف وظائف الدولة حتى الوزارة . وقد اشتهر من موظفي الذمة في العهد الاموي سرجون الرومي ، كاتب معاوية ، واثاسيوس الرهاوي رئيس الدواوين في مصر أيام عبد الملك والذي كان ينعت بالكاتب الافخم ، وأما في العهد العباسي فنجد يهودياً اسمه موسى يكون أحد اثنين يوليها المنصور الخراج ، ونجد عدداً كبيراً من الكتاب النصارى في بلاط الخليفة ، كما نجد منهم بعض الوزراء كعبدون بن صاعد ، ونصر بن هارون ( القرن الرابع ) وفعل مثل ذلك الفاطميون فمن وزراءهم عيسى بن نسطورس النصراني مثلاً ومن كتابهم منشا اليهودي . وظل العرف بذلك جارياً في العهد الايوبي ثم المملوكي . على ان هذا لم يمنع رفض بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز ، والمتوكل استخدام أهل الذمة كما أنه من المؤكد تماماً أنه لم يتول أحد منهم وظيفة الجباية والكتابة في المغرب والاندلس .

وأما في الضرائب فقد كانت الجزية أهم ما يجبي من الذمين ، وقد اختلفت مقاديرها اختلافاً كبيراً حسب العصور والاماكن ، واختلفت القواعد في فرضها والاعفاء منها ، كما اختلف نوعها ، فكانت تدفع نقداً أو غللاً . وقد كان الذميون يحملون مع المسلمين أعباء ضرائب أخرى متعددة : على الارض والحوانيت وغير ذلك . على ان المضايقات المالية كانت تستعمل كنوع من العقاب لبعض الذمين . وقد أبقى بعض الامويين الجزية على الذمة كتدبير مالي للحفاظ على موارد الخزينة .

( د ) **أهل الذمة في المجتمع الاسلامي :** برغم الموقف الشرعي المسموح الواضح فان علاقات الذمين بالمجتمع الاسلامي لم تنحصر على نسق واحد خلال العهد الاسلامي الطويل وفي بقاء الاسلام المختلفة لانها كانت

تتأثر أحياناً بالاضطرابات الداخلية أو بأهواء الحكام أو بالاحداث الخارجية . وكثير من القيود أو الاضطرابات انما كانت تظهر بفترة وجيزة ثم تلغى كما حدث في عهد الرشيد والمتوكل والحاكم بأمر الله ولم يكن ذلك الا في عصور الانحطاط بعد الحروب الصليبية ، على ان حسن المعاملة كانت هي الصفة الدائمة . وقد تمتع بها بصورة خاصة منذ الايام الاولى للحكم الاسلامي ، النصارى من العرب كبنى تغلب فكان الاخطل الشاعر يدخل على عبد الملك بن مروان وفي عنقه صليب ذهبي ولحيته تقطر خراً فلا يمنع من ذلك !

وبالرغم مما تذكره العهود المنقولة من عدم السماح للذمين ببناء الكنائس الجديدة في الاسلام ، فالذي يظهر من استقراء الحوادث التاريخية ان الكنائس ظلت تبنى وظل للذمة بصورة خاصة حق الاحتفاظ بما كان منها قائماً زمن الفتح وحق ترميمها . وقد بينها بعض المسلمين كالذي كان من خالد القسري سنة ١٠٥ هـ في إقامة كنيسة لأمه في الكوفة . وليس ثمة من اشارة او قرار لمنع استحداث الكنائس في العهد الاسلامي حتى أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأول من تشدد في ذلك المتوكل ( أواسط القرن الثالث هـ ) ولم ينتقل الأمر إلى العامة وتبدأ بعض الاعتداءات إلا بعد ذلك وفي فترات الهياج الشعبي فقط .

وقد ذكروا أن عهود الفتح تمتنع الذمين من إظهار الشعائر الدينية عامة في أمصار المسلمين ، إلا أنه حتى بعض أئمة الفقهاء لم يتشددوا في ذلك لاسيما في البلاد التي يكثر فيها الذمة . وكانت النواقيس تقرع والمواكب الدينية تسير بالرايات والصلبان والمجامر دون اعتراض إلى أن يبدو للغلبة أو الأمير أو الحاكم المحلي أن يمنع ذلك . بل أن تكرر أعمال المنع



من وقت لآخر دليل على أن العادة جرت بالتسامح في ذلك . ولدنيا أوصاف كثيرة لاحتفالات الاعياد النصرانية خاصة في مصر وفي العراق وفارس . وكانت هذه الاعياد أحياناً فرصة لهو لجميع الناس .

على أن الذميين تميزوا في معظم العهود بنوع معين من اللباس وبوضع منطقة أو نحوها ، وقد كانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم في العهد الاسلامي الاول ، ولعل أول من بدأ الأمر به عمر بن عبد العزيز ثم سمع الناس عن ملابس الذميين زمن الرشيد ثم المتوكل بغية عدم التشبه بالمسلمين في اللباس والركوب . ثم سمع الناس بذلك في أوامر الحاكم بأمر الله الفاطمي وفي عهد السلاجقة وآل زنكي .

وقد تخصص الذميون ببعض الأعمال في المجتمع الإسلامي ، فإذا استثنينا جمهورهم التي كانت تعمل في جميع الأعمال العادية من زراعة وصناعة وتجارة فإن معظم الصياغة والجهابذة في الشام والعراق كانوا من اليهود . كما احتكر اليهود تجارة الرقيق والحصان بين أوروبا والحبشة وتجارة اللؤلؤ في الخليج العربي . أما الطب فكان مهنة نصرانية . والكثرة العظمى من أطباء الخلفاء كانوا من النصارى وكذلك معظم التراجم في العصر العباسي الأول كما كان منهم الأدباء والشعراء والعلماء .

\*\*\*\*\*  
\*\*\*\*\*  
\*\*\*\*\*

من طبقات

المجتمع العربي الاسلامي

الرقيق

الرق في اللغة الضعف ، وفي اصطلاح الفقهاء « عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر » والرقيق كلمة عامة تطلق على من فقد حريته من الناس وأصبح ملك غيره . ولكنهم كانوا يدعون المسترق الأبيض مملوكاً والأسود عبداً، والنساء البيض جوارى، والسود إماء، وهناك كذلك طائفة الحصان .

١ ( الرق في الاسلام : لم يبلغ الاسلام نظام الرق الذي عرفته جميع الأمم قبل الاسلام وبعده وظل قائماً في كل مكان حتى ما قبل قرن من الزمن . إلا أنه لم يهمل الارقاء ، فاعتبر حرية الانسان هي الأصل ، والرق أمر آعارضاً، ولهذا حرم استرقاق المسلم المولود من أبوين حريين، واشتروط في استرقاق غير المسلم أن يؤمر في حرب شرعية بعد الانذار والاشهار. وعمل على مساعدة الارقاء في التحرر بأوجه كثيرة: ففك الرقاب يأتي كفارة عن اليمين الحانث أو عن الافطار في رمضان أو وفاء بنذر أو تقرباً إلى الله أو تكفيراً عن ذنب أو التماساً للمثوبة .

كما خصص الاسلام من  $\frac{1}{8}$  أموال الزكاة لفك الرقاب .

وقد سهل الاسلام سبيل التحرر فمكن للعبد أن يشتري نفسه من سيده على مبلغ من المال يؤديه في أجل محدود ( وهذه هي المكاتبه ) وقد أجمع الفقهاء على أنها مستحبة ويراها بعضهم واجبة متى دعا العبد سيده إليها . ويمكن تحرير العبد ( بالتدبير ) وهي أن يوصي السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته .

وأوصى الاسلام أخيراً بحسن معاملة الرقيق وقد جاء في القرآن الكريم :  
« وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى ... وما ملكت أيمانكم ، إن الله  
لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . وجاء في الحديث الشريف : « اتقوا الله  
فيما ملكت أيمانكم » ، « إخوانكم خولكم ( أي خدمكم ) جعلهم الله تحت  
أيدبكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه بما ياكل ويلبسه بما يلبس  
ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » . وكانت آخر  
وصاياه ﷺ « الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، وقد روي عن علي بن أبي طالب  
قوله : « اني لأستحي أن أستعبد إنساناً يقول ربي الله » . وقد كان من  
اختصاص القضاة الحكم بتحرير العبد متى ثبت أن سيده يعامله معاملة قاسية  
بالإضافة الى أن السيد لا يملك بيع جاريته ولا هبتها متى صارت « أم ولد »  
منه يعترف به . ومتى توفي أضحت حرة . وتبين قيمة هذه الاحكام  
اذا قورنت بما كانت عليه أحوال الرقيق لدى جميع الامم في مختلف  
العصور لاسيما لدى اليونان والرومان ولدى الغرب في القرون الوسطى .

ويقول الدكتور امين الحولي :

- مثالية القرآن تحرم الرق وتعدده سوءة من سوءات المجتمع .
- المدنية الحديثة تحرم الرق قولاً وتمارسه فعلاً .
- الاسلام سبق هيئة الامم في تنظيم حقوق الانسان
- لقد كان الرق واقعاً قديماً متصلاً ، رأى العرب من حولهم مارأوا ،  
وعرف العرب منه في جزيرتهم ما عرفوا .. وسلك القرآن نحوه مسلكه  
الثابت الواضح من التدبير الواقعي : يعترف بالواقع المشهود الى حد ما .  
ثم يضي بلفظ قسوته ، ويصلح بالتدريج اخطائه .. ثم ينه الى المثال

الراقي ويغري الانسانية منه بكل ماتمكنها به ظروفها ويعينها عليه  
تقدمها ورقها . . .

وفي اطار من نفعات مثالية القرآن ، تدرج الواقعية في مقاومة الرق ،  
والضجر به ، والعمل للقضاء عليه ، فبعد الحث الديني على فك الرقاب ،  
ووعد الثواب الاخروي الكبير عليه ، في معنى يحسم المماثلة البشرية بين  
السادة والمسودين اذ تقول التوصية الدينية ان من يفك رقبة بالعتق يخلص  
من العذاب .. ويوجب الدين تحرير الرقاب في اعمال كثيرة يعرض لها  
الناس في معاملاتهم الحيوية ، وعبادتهم الدينية ، فهو يوجب تحرير الرقبة  
على انه جزاء متعين ، عند الافطار عمداً في رمضان مادام عند المفطر  
رقاب محكومة .. وهو كذلك جزاء متعين في احوال من عقوبة القتل ،  
وفي ضرب من الاختلاف بين الزوجين بما يسمى الظهار .. كما ان تحرير  
الرقبة جزاء تخييري عند الحنث باليمين .. الخ ثم يمتد التدبير العملي لتحرير  
الرقاب الى نظام عام يلزم الدولة برصد اعتماد في ميزانيتها من مورد ثابت  
هو الزكاة ، يصرف منها ١٢،٥ ٪ لتحرير الرقاب كما هو نص القرآن ..

وهكذا تدرجت الواقعية المعترفة بالرق الى بث الكراهية لهذا الرق  
بقوة وعنف .. ثم الى الترويج في التحرير .. ثم الى الزام الافراد به .. ثم  
الى الزام الدولة ، في نظام مالي ثابت .. فهيات بذلك كله الى مثالية تنكر  
الرق ونحرمة وتبتر جذوره .

### ب ( احوال الرقيق في العصور الاسلامية :

كان الاسر والشراء ووفاء الدين هي مصادر الرق في العهد الجاهلي ، ثم  
أصبح الامر خلال الفتوح الاسلامية هو المصدر الرئيسي وان ظل الشراء  
مصدراً آخر ، وأضيف اليه أن بعض خراج الولايات كان يرسل عبيداً !

ولم يكن الرقيق كثير العدد عند العرب الجاهليين ولا في صدر الاسلام ، ولكنه كثر كثرة هائلة أثناء الفتوح الكبرى والفتوح التي تلتها ، فأي أسير وقع في يد المسلمين من الكفار المحاربين صار غنمة ، واعتبر مالاً يوزع على المحاربين بالتخمين . وقد غالى بعض القواد فكان يستعبد كل من تقع يده عليه من الاعداء محارباً أو غير محارب حتى النساء . وهكذا : عاد موسى بن نصير من الاندلس بثلاثمائة الف رأس من السبي بعث خمسمائة الى الوليد بن عبد الملك ولم يسمع بسبي كهذا السبي ، ويسع الاسير بدرهم في واقعة بالاندلس سنة ٨٩١ م بينا يبيع البعير بخمسة دراهم . وكان ينادى على الامري عشرة عشرة بعد معركة عمورية زمن المعتصم وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم . وبلغت غنائم صاحب غزنة ( في القرن الخامس هـ ) مائة الف نفس من الهند ! وكثر الرقيق بهذا الشكل فدخل كل بيت من بلاطات الخلفاء الى بيوت كبراء الدولة وتجارها والى اوساط الناس والجند . وبينما كان لدى الرشيد الف جارية عدا الخدم ومن اليهم جعل المعتصم من ماله الاتراك جيشاً يستند اليه . وكذلك فعل الايوبيون . وكان من الامور العادية أن يوجد لدى عامة الجند عبد أو أكثر ولا يعد الرجل غنياً ما لم يكتن بعض العبيد في داره وخدمته .

وكان للنخاسة أسواق خاصة في كل بلد من البلاد الاسلامية تدعى أحياناً دار الرقيق كما في بغداد . وعليها مشرف حكومي هو « قيم الرقيق » واشتهر من اسواق الرقيق الابيض سمرقند . وكان للنخاسين عملاً ومهنة وشهرتهم وقوافلهم ، كما كانت النخاسة صنعة قائمة بذاتها . وأهم من كان يعمل بها في البحر الابيض المتوسط : اليهود ويدعون الرهدانية . اما الثمن الرقيق فكانت تختلف باختلاف جنسه وعمره ونوعه من ذكر او انثى وقابليته للعمل وكثرته او قلته .

وقد تنوعت اجناس الرقيق في الاسلام بتنوع البلاد التي كان يؤتى به منها . فهناك الزوج السودان والحبش ومعظمهم من شرقي افريقيا ، واوسطها وهناك الترك من مناطق تركستان ، والصقالبة من روسيا وقد بلغ من شهرتهم في الاندلس ان اوضحت كلمة صقليتي تعني العبد ومن هنا دخلت اللغات الاجنبية كلمة Slave و Esclave . هذا عدا الفرس من الارقاء والبربر والروم والهند والشراكسة والارمن وعدا المولدين .

وقد اخذ المسلمون عن البيزنطيين عادة استخدام الحصيان من الرقيق منع ان الشرع الاسلامي في جانب تحريمهم . والحصاء ليست عادة عربية بل هي شرقية . وكانت شائعة في العراق كذلك زمن الآشوريين والبابليين . وقد نهى الرسول عليه السلام عن الحصاء فقال : « حصاء أمتي الصوم . والصوم وجاء » . وللحصاء اغراض ( البيهقي في المحاسن والمساوي ) ابرزها استخدام الحصيان في دور النساء غير عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهل استخدموا الحصيان في دورهم ، وكان معاوية بن ابي سفيان اول من اتخذ الحصيان لخدمته ( السيوطي : تاريخ الخلفاء ) ويذكر الجاحظ ان الحصي كان منتشراً بين العبيد والاحرار وبين العرب والعجم واغلب الحصيان كانوا من الصقالبة وعمليات الجب كانت تجري لهم في فرنسا غالباً يقوم بها اليهود ليربحوا ثمنهم الغالية .

واشتهر كل نوع من الرقيق بعمل ، فالزواج كانوا يعملون في اقسى الاعمال وفي الزراعة حتى لقد تجمعت منهم جموع كبرى في السواد ثارت فيما بين سنتي ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ ثورة الزنج المعروفة وخربت البصرة . واستعمل الترك والصقالبة للخدمة من البيوت لحن قوامهم وهيتهم ومن هنا تسرب الترك من بلاطات الخلفاء ، الى الجيش والقيادة واستولوا على

الدولة ، وعرف الهنود بالصناعات ، على ان اهم عمل قام به الرقيق وكان له اثره العميق في التاريخ الاسلامي ، هو دخول الارقاء في العمل العسكري واذا كان اول من استعملهم في ذلك هو المعتصم فأول من افسح لهم المجال للجميع بين القيادة والادارة هو الخليفة الواثق فتسلطوا على الكرسي الخلافي واقتتلوا معه ومن اجله ، ولم يقتصر ذلك على الخلافة العباسية بل حدث مثل ذلك في الخلافة الفاطمية وحدث ما في الاندلس . واستطاع الممالك عن طريق شجرة الدر المملوكة ، وزوجة آخر سلاطين الأيوبيين ، أن يستأثروا دون بني أيوب بحكم الدولة الاسلامية فيما بين مصر والشام والعراق والحجاز وبقي الأمر في أيديهم ، يتداولونه بنوع غريب من الوراثة ما يزيد عن ثلاثة قرون . حتى انتهى السلطان سليم العثماني حكمهم في سنة ١٥١٧ .

**ج ( الجواري ) :** ( الاماء ، السراري ، السبايل ، القيان ) : هن الاناث من الرقيق وإنما نفرد لهن بعض البحث لما كان لهن من شأن في التاريخ الاسلامي وأثر في الحضارة الاسلامية .

وقد كثرت الجواري في العالم الاسلامي منذ أيام الفتوح الأولى لأن الفاتحين اعتبروا السبايا من النساء غنيمَةً أيضاً فتقاسموهن ثم شاع شراء الجواري وتهادين وكثر فيهن امهات الاولاد حتى دخلن كل بيت وقال عربي مرة :

إن أولاد السراري كثرت يارب فينا

رب أدخلني بلداً لا أرى فيها هجيناً

غير أن الهجاء كثروا في العصر العباسي حتى إننا لا نجد بين خلفاء بني العباس جيعاً من ولد من أبوين عربيين سوى ثلاثة : السفاح والمهدي والأمين ، وأمهات باقي الخلفاء من الجواري : فأم المنصور سلامة البربرية ، وأم الرشيد الخيزران من خرشنه وأم المأمون فارسية تدعى مراجل ، وأم المعتصم تركية اسمها

ماردة ، وأم المستعين صقيلة وأم المستضيء أرمنية . وهذا نستطيع أن نقيس مقدار تغلغل الجوّاري في البيت الاسلامي . على أنهم كن يتّمتعن بحريّتهم المطلقة في عقيدتهم وتقاليدهم الاجتماعية . وكثير منهم كن يحتفظن بـرموزهن الدينية على صدورهن وبعيدن في أعيادهن .

وقد اختلفت أجناس الجوّاري وتفرّد كل جنس بزاياء وألفت في ذلك الكتب فالهنديات عرفن بالوداعة ، ومولدات المدينة بالميل للسرور والغناء ، والبربريات بكثرة النسل ، والسودانيات بالرقص ، والشركسيات والروميات بالجمال . الخ .

واستغل النخاسون ميل الناس لاقتناء الجوّاري فاخذوا يعنون بهم العناية التي تريد في قيمتهن أضعافاً مضاعفة : كانوا يعلمونهن فنون الأدب والحديث ورواية الشعر أو تلاوة القرآن وقوله . فان كانت الجارية على شيء من حسن الصوت تعلمت الغناء والضرب على بعض الآلات الموسيقية . فكان هذا باباً من أبواب الكسب الواسعة إذ ذاك ، ومن اشتهر بتعليم الجوّاري ابراهيم الموصلّي المغني الذي ألف شركة لهذا العمل ، فربما ابتاع الجارية بمائة دينار فاذا علمها باعها بألف ، وقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار فلما علمها ابراهيم المهدي الغناء باعها بثلاثة آلاف دينار . واشترى الرشيد جارية بتسعة وثلاثين ألف دينار . واشهر هؤلاء القيان عريب المغنية وسلامة ودنانير في الشرق وولادة في الاندلس .

وقد كان للجوّاري أثرهن الكبير في الحياة الاسلامية : فقد كن ذوات أثر أحياناً في سياسة الدولة فالحيزران أم المهادي غضبت عليه حين أراد الحد من نفوذها وعملت على التخلص منه ؛ وشغب التركية أم المقتدر كانت المتصرفة بالدولة تصدر المراسيم وتجلس للمظالم حتى عرفت بالسيدة . وأم



المستعين الصقلية كانت تتصرف مع اثنين من الخدم الاتراك بكل ما يرد  
ليت المال !

وقد برز أثر الجوارى في مزج الدماء والخلط بين الاجناس المختلفة  
وبين التقاليد والعادات الاجتماعية المختلفة أيضاً . هذا إلى أنهن نشرن الشعور  
البدعي في المجتمع الاسلامي ونذوق الجمال والظرف وأنواع البدع ( المودة )  
كالعصائب والزناوير ونجميع الشعر . كما عملن على تقدم فن الغناء ونشره .  
وكان لهن أثرهن في الايجاء للادباء وفن الانتاج الادبي .



شكل - ٢٧ -  
راقصات في صورة على جدار  
أحد قصور الأمويين .



شكل - ٢٨ -

رجل وزوجته يجلسان الى الطعام ولم يهملوا الورود والفاكهة والطيور المفردة . وهي جزء من رسوم بديعة في نسيج عراقي من القرن السابع الهجري



شكل - ٢٩ -  
مفني يمزف على العود

## من طبقات المجتمع العربي الاسلامي المرأة في الاسلام

(١) المرأة العربية في الجاهلية : من الخطأ إعطاء حكم مطلق عن المرأة العربية في الجاهلية لأن مكانتها الاجتماعية كانت تختلف باختلاف الزمن ونوع الحياة ، والنسب والمواهب .. الخ على انا نستطيع القول ان المرأة كانت تعطى بصورة عامة المكان الثاني في المجتمع البدوي لان القيم الاجتماعية عند الاعراب مبنية على أسس لا يمكن للمرأة بحكم عوامل كثيرة فيزيولوجية واجتماعية أن تحوزها . فكان عمل النساء دوماً الاحتطاب وجمع المال وحوك الثياب والحجاء . فاذا كانت الحرب خرجن يشجعن الرجال وينقرون على الدف ويضمدن الجراح . ومتى امتازت امرأة بشيء مما يميز الرجال ارتفعت مكانتها كالرجل وهكذا وجدت بين نساء العرب شاعرات وقاجرات وكاهنات ذوات شرف وسيادة وشهرة كزرقاء اليمامة ... وقد ارتقى مقام المرأة في المجتمع العربي الحضري حتى الى الوصول الى الحكم في الناس كبلقيس ملكة سبأ .

وقد اشتركت عوامل دينية من جهة واقتصادية من جهة أخرى للخط من قيمة المرأة في بعض المجتمعات الجاهلية حتى كان الناس يكرهون ولادة البنات قال تعالى : « واذا بشر أحدم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشره . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب . ألا سلوا ما يحكمون » . ووصل الامر بهذا الكره الى ظهور « الواد » عند العرب : وهو ظاهرة لم تكن عامة في القبائل ولكن في

بعضها فقط ولدى فقراء القبيلة وحدهم وفي سني القحط والاملاق فحسب .  
ويمكن ان نفهم هذا الانحطاط في قيمة المرأة اذا تذكرنا أن بين عقائد  
الجاهلية ما كان يجعل الانثى من خلق الشيطان - كما يلاحظ ذلك من  
آيات القرآن الكريم - ولعل سبب اللجوء أحياناً نادرة الى الواد هو تعرض  
المجتمع الجاهلي تعرضاً شديداً للقحط والفقر وخرودة تحديد النسل مع فقر  
البيئة . وما كان الواد خوفاً من العار كما يقولون ، ولكن « ... خشية  
املاق » كما جاء في القرآن الكريم .

وكانت المرأة الجاهلية في بعض القبائل تحرم الارث والمهر وقد قالوا :  
« لا يرثن الا من يحمل السيف » بل قد يرثها الوارث كما يرث المتاع .  
ولم يكونوا الى هذا كله يسوون بين الرجل والمرأة في الدية والدماء .

ب ( الاسلام والمرأة : أول ما أعطاه الاسلام للمرأة هو المساواة مع الرجل :  
قال تعالى « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ، وقال « هو الذي خلقكم من  
نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقد تكررت معاني هذه  
الآيات في عدة سور .

وحمل الاسلام على من يحزن لولادة الانثى كما حرم الواد نهائياً  
« ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ان تقتلهم كان  
خطئاً كبيراً » .

واعطى الاسلام المرأة حصة من الميراث ففرض لها نصيباً فيه هو نصف نصيب  
الرجل . « وللذكر مثل حظ الانثيين » وجعل المهر حقاً خالصاً لها  
« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » أمر بحسن معاملة المرأة « وعاشروهن بالمعروف » .  
ولعل أهم ما منحه الاسلام للمرأة وسبق به أي تشريع عالمي الى  
اليوم أنه أعطاهما الشخصية الحقوقية الكاملة : أي حق التصرف بما تملك

سواء كانت زوجاً أو أماً أو بنتاً : وسوى الشرع بينها وبين الرجل في الولاية على المال والعقود حتى لقد أجاز لها بعض الفقهاء ولاية القضاء أيضاً . وجعل الشرع لها حق قبول الزواج ورفضه كما أعطاهما حق الطلاق إذا اشتترطه . وأوصى بها وبحسن معاملتها كما « وبالوالدين احساناً » وكزوج لأنها سكن الزجل ، وكابنة إذ جعل البر بها من البر بالله . وأما اباحة الطلاق للمسلم فالرغم من الضروريات الاجتماعية التي تبرزه فمن المعروف شرعاً أنه « أبغض الحلال الى الله الطلاق . » كما وقَّده الاسلام بشروط وقيود كثيرة تجعل منه الحل الاخير حين لا يكون من الفراق بد . وأما قضية تعدد الزوجات الى أربعة فواضح من منطوق الآية الكريمة التي سمحت بذلك أن المقصود بها المساواة الاجتماعية للابامى ، كما أن هذا التعدد مقيد من جهة أخرى بضرورة « العدل » بين الزوجات ، هذا « العدل » الذي نص القرآن الكريم نفسه على عدم إمكانه . فكانه جعل ذلك ممنوعاً إلا في حالات وظروف معينة .

**ج) المرأة في صدر الاسلام :** بين الأوضاع الجاهلية التي جاهد الرسول ﷺ جهاداً كبيراً لقلبها : وضع المرأة . وما منح الشرع لها من مكانة وحقوق ، بين الرسول ذلك بالمثل الطيب والسنة الملمزة ، فقد عرف عنه بين الصحابة أنه كان لين الجانب مع زوجاته ، سهل المقادة . حتى كن يراجعنه في كثير من أمره وصرن في ذلك قدوة لباقي النساء فاذا انكر زوج حق زوجته في مراجعة - كما فعل مرة عمر بن الخطاب - احتجت عليه بعمل الرسول فانكسر وسكت !

وأثر عن الرسول وصايا كثيرة بالمرأة أما كانت أم زوجاً أم بنتاً كما أولى بها جنساً : جاءه رجل يسأله عن أحق الناس بحسن معاملته فقال أمك وأثر ذلك ثلاث مرات . وكان يقول اللجنة تحت أقدام الامهات . خيركم

خيركم لأهله . وقال أيضاً : « ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء » كما قال : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً » .

ولقد كان لهذا كله أثره العميق في حسن موقف المرأة في صدر الاسلام مما شجعهن على المطالبة بأجر كأجر الرجل في الجهاد لقاء قيامهن بالبيت . ولقد اجتمعت النساء وانتدبن عنهن إحداهن اسماء بنت يزيد الانصارية فأتت الرسول تسأله عن ذلك فأقر لهن بذلك الاجر ! وأثر ذلك ثمرته في التسوية بين الرجل والمرأة حتى قالت عائشة ام المؤمنين « إنما النساء شقائق الرجال » فلم ينكر عليها ذلك أحد .

وكانت أمهات المؤمنين زعمات النساء في المكانة بعد وفاة النبي ، وكانت رعاية الخلفاء الراشدين لهن تعزز من مكانة المرأة في الاسلام كما كانت معرفتهن بالرسول وبالدين تزيد في تلك المكانة . ولقد روت عائشة حديث رسول الله في حياته حتى قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وكانت مرجع الناس بعد وفاته ، رجع اليها أبو بكر وعمر وعثمان في دقائق المسائل . كما هرع الناس الى أمهات المؤمنين أيام الفتنة على عثمان يسألونهن التدخل في السياسة ، وحمل الخليفة على تغيير خطته .

وإذا نحن عددنا شهيرات النساء في صدر الاسلام فلاشك أنا نعد في مقدمتهن أمهات المؤمنين : خديجة الكبرى بنت خويلد الاسدي التي يدين لها الاسلام بالشيء الكثير ، وعائشة الصديقة بنت أبي بكر التي كانت الى علمها وفضلها تتزعم حزباً كبيراً من الصحابة أيام عثمان وعلي . وهناك حفصة بنت عمر الفاروق وزينب بنت خزيمة التي كانت تكنى في الجاهلية بأم المساكين . أما باقي النساء فقد برز منهن أسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين وأم عبد الله بن الزبير ، وليلى الاخيلية ، فارسة المعارك ،

والحنساء الشاعرة التي تنشد النبي شعرها والتي قالت حين بلغها مصرع أولادها الاربعة في الجهاد : « الحمد لله الذي شرفني بشهادتهم » .

**د) المرأة في العصر الاموي :** احتفظت المرأة العربية أيام الامويين بمكانتها الاجتماعية الفضلى الا في الاماكن التي كثر فيها الجوارى وهات السهم ، واختلطت تقاليد العرب فيها بتقاليد الاعاجم كالعراق مثلاً فقد ظهر بعض الهوان في امرها . ولهذا فاننا نظل نعتز في العصر الاموي على نماذج المرأة التي وجدناها في صدر الاسلام وما تتميز به من استقلال في الرأي واختلاط بالناس وعلم وأدب ومجالس حافلة . فميسون زوجة معاوية فضلت على قصر الخضراء في الشام خيمتها في البادية وسكينة بنت الحسين ، كانت دارها ( صالوناً ) للادباء والشعر . . الخ على أن الغزل الذي انقطع زمن الراشدين وعاقب عليه عمر الفاروق انتشر انتشاراً واسعاً حتى لم يكن كبار العلماء في مدينة الرسول ليجدوا حرجاً في سماعه وروايته . وظهر في الناس ذلك الحب البريء الذي اشتهر في بني عذرة ونسب اليهم .

ومن مشاهير النساء في العصر الاموي ( عقيلتا قريش ) سكينة بنت الحسين حفيدة النبي وعائشة بنت طلحة ، الصحابي المعروف ، وكلاهما كانتا على جمال رائع وأدب غزير ورواية للشعر ودار كل منهما ندوة تجالسان فيها الاجلة من قريش والمبرزين من الشعراء . وهناك أم البنين ، زوجة عبد الملك بن مروان وقد أنبت الحجاج على قسوته ، وأم الحوير رابعة العدوية البصرية من أوائل المتصوفات والمتصوفين في الاسلام . هذا عدا عزة وثينة ويلي ، ممن شنب بين شعراء الغزل المشهورون في العهد الاموي .

**هـ) المرأة في العصر العباسي ( الحجاب ) :** أدى تقشي الترف والمفاصد

في العصور العباسية وكثرة اختلاط الأمم وعاداتها وكثرة الجوارى والسوارى ،  
الى تدني مكانة المرأة تدنياً مستمراً . ففي مطلع أيام العباسيين لم يكن  
هناك من فرق بين المرأة الأموية والعباسية فقد استمرت النساء ، من  
الطبقات العليا أو العامة على ما كان لهن من حرية وقيمة ونفوذ فيناظرون  
الرجال في الادب والشعر ويرافقهم الى الحرب ويباريهن في الموسيقى  
والغناء والنظم . على أن نظرة الناس الى المرأة كانت تتغير تغيراً مستمراً  
حتى إذا كانت أيام البويهيين والسلاجقة أضحت نظرة مهينة رافقت أفكار  
الناس حتى نهاية عصور الانحطاط ومطلع العصر الحديث ، وتعكس لنا  
قصص ألف ليلة وألف ليلة تلك النظرة السيئة إذ تجعل من المرأة مثال المكر  
والدسائس ومستودع الفساد والأفكار السافلة . وقد جاء في رسالة بعث  
بها صديق ( من القرن الرابع الهجري ) لصديقه يعزيه بابتته : « انت الى التهنئة  
أقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من  
المكروهات . ونحن في زمن إذا قدم أحداً فيه على الحرمة فقد استكمل  
النعمة وإذا زف كريمة الى القبر فقد بلغ أمنيته من الصبر ، ! وتمثلت  
هذه النظرة لدى أبي العلاء المعري مثلاً من المفكرين وفي الامثال والحكم  
والقصص التي أخذ بتناقلها الناس في التحذير من المرأة وسوء سريرتها في  
تلك العصور . وكان من لوازم هذه النظرة المنحطة أن عزلت المرأة  
شيئاً فشيئاً عن المجتمع ونشأ بذلك الحجاب .

والحجاب بمعنى ستر الوجه عادة قديمة في الناس ، عرفها الرومان  
واليونان وعرفها الغرب في العصور الوسطى . كما عرفها العرب في الجاهلية  
فكان لديهم النصف ، الذي يستر نصف الوجه ، والخمار الذي يغطي الوجه ،  
الا أنه كان من علامات الشرف والنبل ولم يكن عاماً في النساء ، وقد نزل  
الوحي بحجاب امهات المؤمنين لأنهن لسن « كأحد من النساء » أما المؤمنات  
فقد أمرن بأن يضررن بخمرهن ولا يبدين زينتهن ، إلا للرجال الذين حددهم

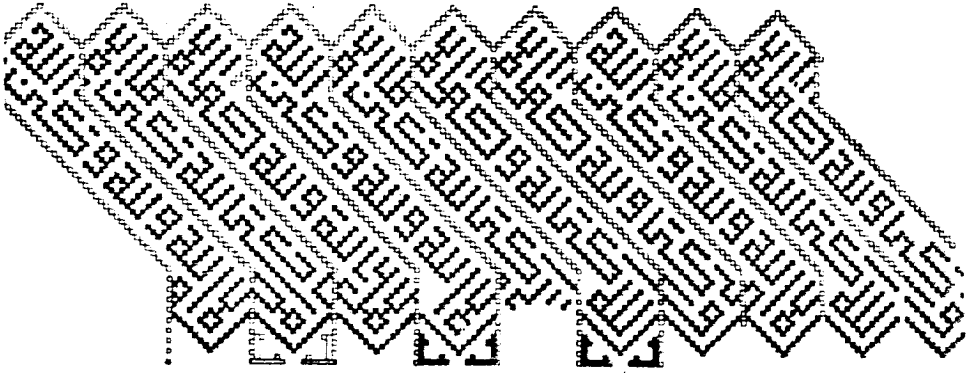


الشرع، وهكذا رسم الدين آداب الظهور في المجتمع . واستمر الامر على ذلك في صدر الاسلام وفي العهد الاموي ، وتوجب الحرائر من النساء في العهد العباسي تمييزاً لمن عن الجواني ولأنهن أرفع من ان تقتحمهن الاعين ، وتطور هذا الحجاب الى الشكل الذي سارت عليه كثير من المجتمعات الاسلامية إلى عصر متأخر . ولا يزال في بعضها .

أما الحجاب بمعنى عزل النساء عن المجتمع ومنعهن من مخالطة الرجل فانه لم يكن موجوداً في الحاهلية ولا عرفه العرب خلال عهد الراشدين . وأول ظاهرة من هذا النوع ظهرت على يد امير مكة ( خالد القسري ) في خلافة سليمان بن عبد الملك فقد فرق بين الرجال والنساء في الطواف حول الكعبة . وقد اقتبس العرب هذه العادة عن الفرس وتفشيت بين المسلمين في أواخر العهد الاموي ، فلما كانت العصور العباسية وشاعت المفاسد الخلقية وكثرت الأفكار السيئة عن المرأة جعل الناس من الحجاب ضمانة للفتنة وغالوا فيه مع تقدم عصور الانحطاط فمنعت المرأة من العمل حتى كان من الفخر أنها لا تخرج من بيتها إلا إلى القبر وحرمت من العلم للدرجة التي آمنت بها أن حبسها من تعاليم الدين وحتى أضحي الحجاب سجنًا حبس نصف المجتمع الاسلامي بطوعه وراء الجدران وحصر عملهن بأمور البيت وتربية الاولاد والعناية بالزوج .

**ومن شهرات النساء في العهد العباسي :** الحيزران زوج المهدي وكانت أول امرأة تدخلت في سياسة الدولة . وزبيدة زوج الرشيد وكانت الى علمها وأدبها تنزع الحزب العربي في البلاط وتبتكر مع عليّة بنت المهدي البدع ( المودة ) للنساء . وهناك كذلك ( بوران ) زوجة المأمون . والسيدة ( شغب ) أم المقتدر التي جلست للمظالم ، ( وقطر الندى ) بنت خمارويه التي أفقر جهازها الرائع الدولة الطولونية . هذا إلى ( شهدة ) الكاتبة التي برزت في القرن السادس وكانت تحاضر في بغداد بالتاريخ والشعر ومعاصرتها أم المؤيد زينب وهي من أشهر الفقهاء ، وتقية بنت أبي الفرج الشاعرة المحدث في عصر صلاح الدين الأيوبي .

**لباس المرأة :** تطور لباس المرأة وتنوع وتعددت أشكاله ، واختلفت أثمانه باختلاف العصور الإسلامية ، والبلدان ؛ ووضع النساء الاجتماعي والغنى المادي . وهو أمر طبيعي ، فلا يمكن أن يصلح لباس معين ، لجميع المناطق المناخية ولا لجميع الفصول ، كما لا يمكن توحيد الزي . ونوع القماش والوصف الذي نعطيه هو وصف عام ، يشذ في كثير من الحالات التي لا يمكن أن تحصى . وكانت نساء الجاهلية بشكل عام تلبس قميصاً أو سترة مفتوحة من الصدر . وفي الإسلام ، أوصى الرسول عليه السلام باستعمال العباءة الطويلة . عند خروج النساء من بيوتهن ، وصرن يلبسن فوق القميص سترة ضيقة في الشتاء لتساعدن على مقاومة البرد ، وقد تطورت العباءة الخارجية في العصر العباسي وصارت بأشكال مختلفة ، ووصلت الينا على الشكل الذي نراه عند العراقيات أو عند الشاميات ، أو عند المصريات أو عند المغربيات . والنساء منذ خلقن يملن إلى الزينة ، وقد أعطاهن الاسلام كل الحرية في اتخاذ الزينة وكن يتباهين بأفخر اللباس وأجل الزينة وأطيب العطر ، فلقد روي أن أخت الرشيد ابتكرت « موضة » هي اتخاذ غطاء للرأس مرصعاً بالجواهر ومحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، وان زبيدة زوجته ، اتخذت المناطق ( الزنانير ) والنعال المرصعة بالجواهر ، واشتهرت ثوباً من الحرير الرفيع الموشى بخيوط الذهب ، يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، وإن جهاز قطر الندى ابنة خوارويه حوى « ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته » ، وأفقر هذا الجهاز والحفلات التي أقيمت لها ، خزانة مصر العامة ، وقد وصف لنا أحد الكتاب حفلة من حفلات الوداع قبل سفرها إلى بغداد ، وذكر أنها ارتدت ثوباً من الحرير الأبيض ، ووضعت على رأسها اكليل من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر ، وعلى أذنيها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفي أصابعها الخواتم وفي معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر ، وزينت وجهها بالأصباغ المختلفة فبدت في أحسن زينة . .



## الفصل السادس عشر النظام الاقتصادي

### ١ - الزراعة

ان عمل الخلفاء في ري الفرات يشبه أعمال الري  
في مصر والولايات المتحدة الامريكية واستراليا في هذا  
المصر .

وليم ويلكوكس ( مهندس معاصر )

ان المسلمين استعملوا جميع انواع الزراعة ، وحملوا كثيرا من النباتات الى صقلية  
واسبانيا ، وربوها في اوربا ، فاحسنوا تربيتها حتى نظنها متوطنة ... ومثل ذلك  
الارز ، والزعفران ، والمنب والشمش والبرتقال والنخل والهلين والبطيخ الاصفر  
والعطر والورد الازرق والاصفر والياسمين والقطن والقصب .

سينيويوس

يهتم المسلمون عند فتح اي بلد بشيئين في وقت معا هما :

بناء المسجد وتنظيم الحقل ..

قول ماثور عند الكتاب

### طبيعة الجزيرة والزراعة في العصر الجاهلي : تدل البحوث والدراسات

التي قام بها السياح والعلماء في بلاد العرب على أن تغييراً كبيراً طرأ على جوها ، وان هذا الجفاف الذي يكتنفها في أزماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الاسلام ، وان ذلك الجفاف كان له تأثير كبير في طبيعة شبه الجزيرة وفي حالة سكانها ، وقسا عليها فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى وجعل أكثر بقاعها صحاري وأثر تأثيراً خطيراً في تاريخ الامة العربية وفي حدوث الهجرات .

ويذكر بعض العلماء ان هذه البقاع الصحراوية كانت في شطر من العصر الجليدي خضراء عامرة آهلة بالسكان . ويقول آخرون ومنهم تويتشل Twitchell ان مستوى سطح الماء قد هبط في شبه جزيرة العرب زهاء ( ٢٧ ) قدماً في خلال ألفي عام . ويرى بورتام طوماس الرحالة الشهير ان آثار السكنى على اطراف الاودية والترسبات التي تمثل قيعان الانهار تدفع إلى الاعتقاد أن هذه الاودية كانت في الحقيقة أنهاراً في يوم من الايام ينبض فيها عرق الحياة وانها كانت تغذي عدداً كبيراً من الاحياء . ويؤيد هذا الاستنتاج ماورد في كتب اليونان والرومان من وجود أنهار طويلة في بلاد العرب كالذي ذكره هيرودوت ودعاه ( كورس ) قال عنه انه من الأنهر العظيمة وانه يصب في البحر الأحمر . كما ذكر بطليموس عن وجود نهر عظيم اسمه ( لار ) كان ينبع من نجران ويتجه شمالاً حتى يصب في الخليج العربي .

وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الاسلام كسد مأرب العظيم والسدود التي قال عنها الشاعر الهمداني :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً

على أن العرب وخاصة في اليمن كان لهم علم بتنظيم أمور الارواء، والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار . ويقول الرحالة (دوتي) أن كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية تدل على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء .

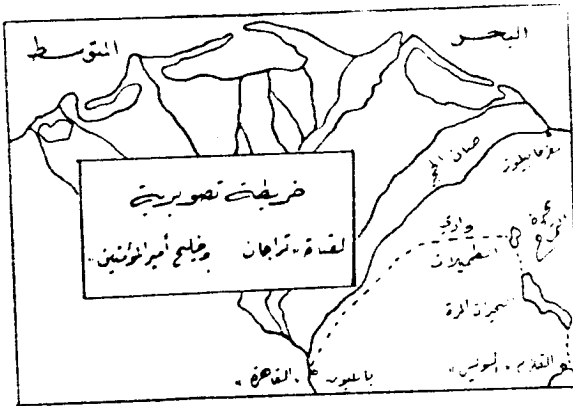
وإذا أضفنا إلى ذلك ما رددته التوراة عن جنة عدن وماورد في النصوص القديمة عن وجود الاخشاب الضخمة في شبه جزيرة العرب وأنواع العطريات وأصناف الأثمار الكثيرة . ومن أن الهانين استثمروا جبالهم وأوديتهم وكانوا أول من زرع في العالم سفوح الجبال على شكل مدرجات . وما عثرت عليه شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثاً من صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض لاستسقاء الماء منها في القطيف والاحساء وأواسط نجد وغيرها ، نستنتج من هذا كله أن الجزيرة العربية كانت آهلة بالسكان وأن العوامل الطبيعية كانت ملائمة لحياة الانسان وأن الزراعة كانت راقية مزدهرة غنية والحاصلات متنوعة متوفرة قبل ان تنتشر فيها الصحارى الحالية .

**الزراعة في العصر الاسلامي :** أما في العصر الاسلامي فقد بقيت الزراعة مزدهرة في اليمن وبعض المناطق الأخرى ، أما في الحجاز فلم تكن منتشرة لقلة المياه وفقر التربة . إلا أنها ازدهرت حينما توفر الماء كما هو الحال في الطائف التي شتهت بغوطة دمشق لكثرة اشجارها المثمرة .

وكانت غالبية السكان تعتمد في حياتها على تربية المواشي والتجارة . وفي عهد النبي (ﷺ) رغم أن المسلمين كانوا منهمكين في تعلم مبادئ الدين وفي توطيد الاسلام في نواحي الجزيرة وفي الدفاع عن حياتهم

وعقيدتهم ، فانهم لم يهملوا زراعتهم وكان الرسول عليه السلام يشجع الزراعة ويقطع الأراضي غير المزروعة لمن يتعدها بالري والاستثمار ودعا ذلك « إحياء الموات » .

هذا في الحجاز وقبل التوسع والفتوحات ، ولكن بعد ان انتشر العرب في الشام والعراق وفارس ومصر خاف عمر بن الخطاب عليهم الميل إلى الرخاء والتقاعد عن الحرب والرغبة في الزراعة والاستقرار بعد أن رأوا خصب الأرض واعتدال المناخ فأمر مناديه أن يذيع على الجنود ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعوا . ويقول ابن خلدون انه اعتمد في ذلك على الحديث القائل : « السكة ( أي المحراث ) ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل » إلا أننا نشك في صحة هذا الحديث لانه يتنافى مع المبدأ الذي سار عليه النبي ﷺ في تشجيع الزراعة وحياء الموات .



### الشكل - ٣٠

مخطط يبين القناة التي كانت تصل بين النيل والبحر الاحمر وعفا عليها الزمن قبل الفتح الاسلامي لمصر ، فلما دخل المسلمون مصر ، كان من اعمالهم العمرانية ان اعدوا حفر القناة واعادوا وصل النيل بالبحر ، وعن طريق هذه القناة نقلت الميرة والمؤن لمساعدة الحجاز في عام الرمادة - عام المجاعة - في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

والعرب الفاتحون وان لم يتعاطوا الزراعة والصناعة ولكن هذا لا يعني  
لنهم املوها . لأن الحياة الاقتصادية ما لبثت ان عادت إلى أفضل مما كانت  
عليه سابقاً بفضل رعايتهم واهتمامهم وانتشار الأمن وتنظيم الري وحماية  
التجارة . نضرب مثلاً على ذلك ما قام به معاوية في الشام وعمر بن العاص  
في مصر من اصلاح الترع والأقنية وتأمين تصدير الفائض من المحصولات .

ولما أفضت الخلافة إلى الامويين واستقروا في الشام وطاب لهم المقام  
فخما وفي سائر الامصار وفضلوها عن الحجاز أغفل العرب وصية عمر فاقتنوا  
الاراضي والاضياع . ويروى ان بعضهم ذكر في احد المجالس جود وكرم  
طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة وكان في المجلس سعيد بن العاص .  
فاجاب هذا : « ان من له مثل النشاستج ( وهي ضيعة في الكوفة اطلحة  
عظيمة كثيرة الدخل ) لحقيق ان يكون جواداً ولو كان لي مثله لعاشكم  
الله به عيشاً رغداً » واهتم الامويون باصلاح وترميم شبكات الري التي وجدوها  
في البلاد المفتوحة وخاصة في الشام ويؤثر عن الخليفة يزيد أنه أمر بحفر مجرى نهر  
يزيد في دمشق لارواء الاراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى .

كما انهم اهتموا بتجفيف المستنقعات ، وقد فعلوا ذلك في البطائح وهي  
مستنقعات في أسفل العراق بين البصرة والكوفة . وقد روى قدامة بن  
جعفر ( توفي سنة ٣٣٧ هـ ) الكاتب البغدادي في كتابه المسمى ( كتاب  
الخراج ) : « ان مساحة المستنقعات قد اتسعت في زمن الحجاج فكتب  
إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بنجر ذلك وانه قد رعى اصلاحها مبلغ  
( ٣٠٠٠٠٠٠٠ ) درهم فاستكثرها الوليد فقال له اخوه مسلمة : « انا انفق  
على سدّها من مالي على ان تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء  
بعد انفاق المال على ايدي ثقاتك » فرضي الوليد بذلك فعصلت مسلمة بذلك  
لأرضون وضياع ، وحفر نهرين سماهما السييين وتآلف الاكرّة والمزارعين وعمر

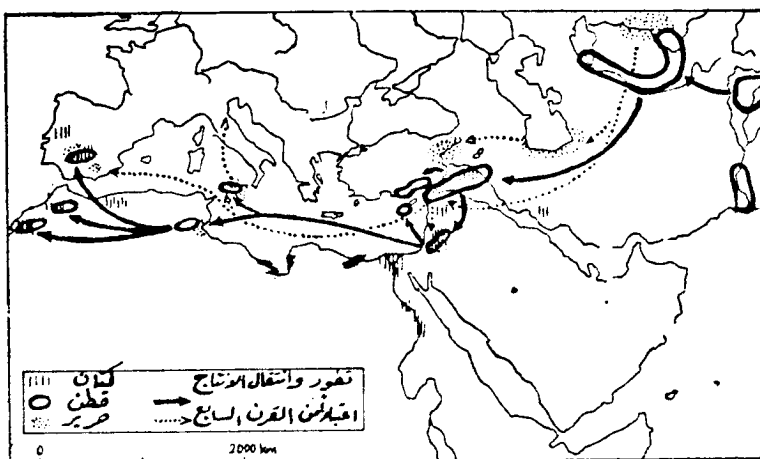
تلك الأرضين واستخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم لهشام بعده مال كثير  
ثم جرى الناس على ذلك إلى أواخر بني أمية .

إلا أن العمال في أواخر عهد الأمويين أخذوا يسيثون إلى أصحاب  
الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها فتشاغل  
الناس عن الزرع فأهملت الأرض وزادها إهمالاً نشوب الفتن والحروب  
في العراق وفارس وسائر أنحاء المملكة الإسلامية ونقم الناس على الحكومة  
وابطلوا الزراعة نكابة فيها ولقمة انتفاعهم بها فأصبح معظم البلاد خراباً  
من الإهمال .

وفي العهد العباسي- لما هدأت حمأة الحروب والفتن وانتشر لواء العدل  
بين الناس واحسنت معاملة أهل الذمة والموالي وامنوا على حقوقهم وأموالهم  
وأرواحهم عاد الناس إلى الاشتغال بالزراعة . وبذل العباسيون أقصى عنايتهم  
في كل ما يتعلق بشؤون الزراعة وراقبوا أمورها مراقبة دقيقة واشرفوا  
على تشييد الجداول وترميمها وعلى جميع أعمال الري التي تتوقف عليها  
الحاصلات الزراعية . وقد كتب أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد  
كتاباً عنوانه إلى الخليفة يبين فيه أن من واجب الحكومة تشييد الجداول  
الجديدة على نفقتها الخاصة لتحسين الزراعة وتنظيف الجداول الحالية وترميمها  
والاشتراك في التعاون مع الشعب في تحمل نفقات صيانتها وتوزيع المياه .  
كما يوصي بتشكيل شرطة نهربية ذات كفاءة بمتازة .

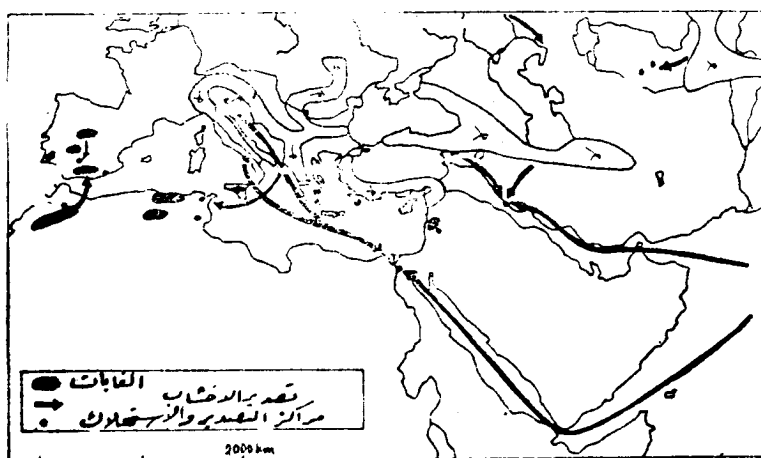
وبلغ اهتمامهم بالري أن اوجدوا له ديواناً خاصاً عرف بديوان الماء  
بلغ عدد المشتغلين فيه عدة آلاف . وقد امتازت منطقة العراق بخصبها  
وكثرة جداولها واثقان الري فيها وقد نالت حظاً وافراً من العناية لوجود





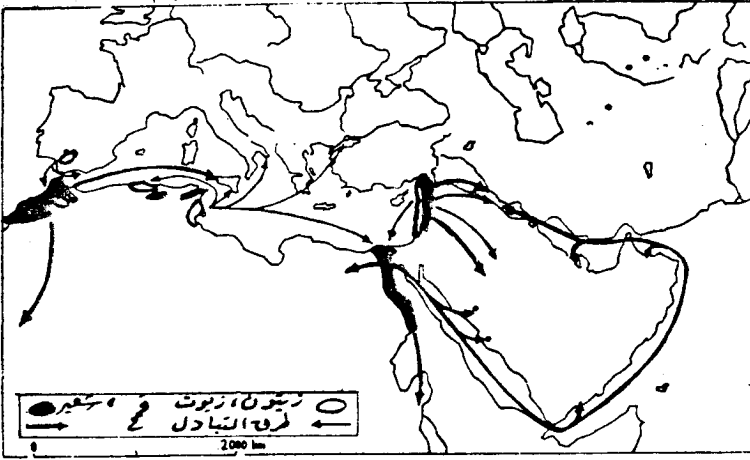
الشكل - ٣١

مناطق زراعة النباتات النسيجية ( القطن والكتان ) ومناطق  
تربية دود القز وانتاج الحرير في الدولة العربية الاسلامية

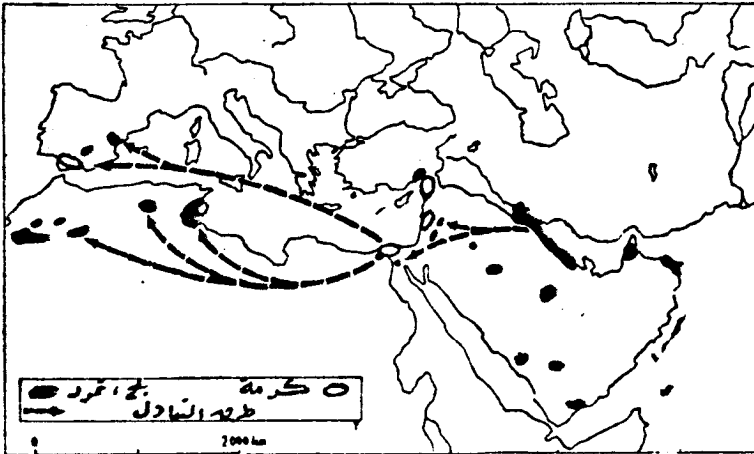


الشكل - ٣٢

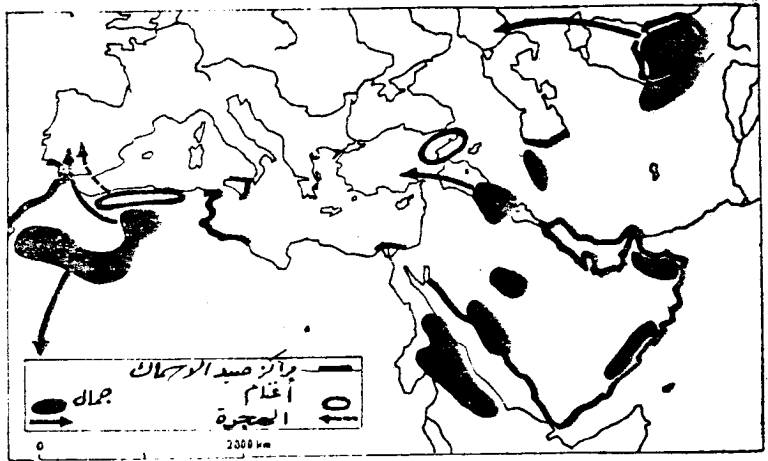
مناطق الغابات وانتاج الاخشاب في الدولة العربية الاسلامية



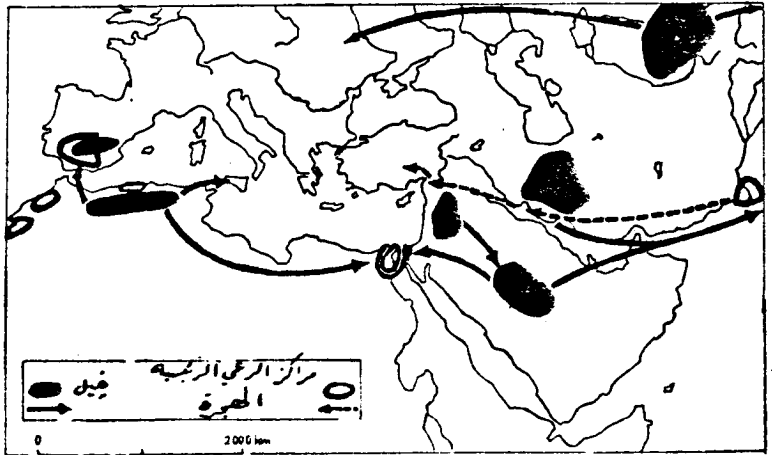
شكل - ٣٣ -  
المناطق الرئيسية لزراعة الحبوب والزيتون في  
الدولة العربية - الإسلامية



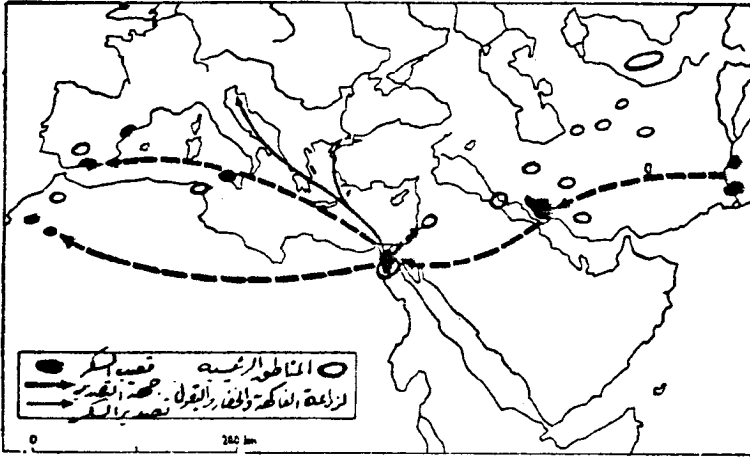
شكل - ٣٤ -  
مناطق زراعة الكروم والتفاح في الدولة العربية الإسلامية



شكل - ٣٥ -  
مراكز الرعي وتنقل الرعاة مع مراكز صيد السمك  
في الدولة العربية الإسلامية

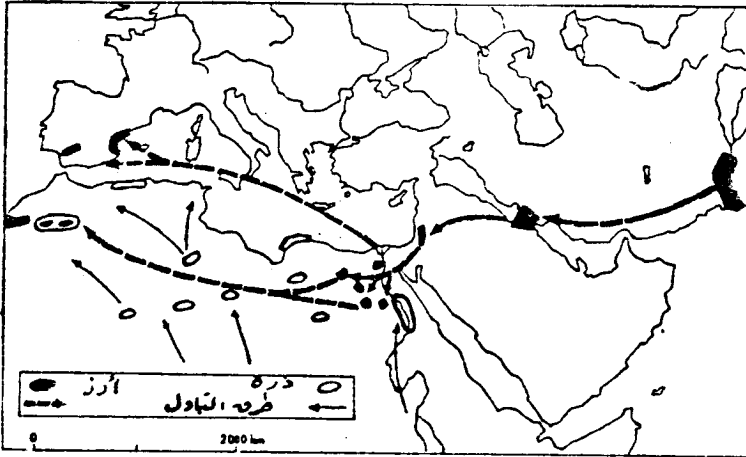


شكل - ٣٦ -  
مراكز تربية الخيول والبقر الرئيسية في الدولة العربية في العهد العباسي



شكل - ٣٧ -

مناطق زراعة الخضار والفواكه والبقول مع مناطق زراعة قصب السكر واستخراجه في الدولة العربية الإسلامية



شكل - ٣٨ -

المناطق الرئيسية لزراعة الليرة والأرز في الدولة العربية الإسلامية

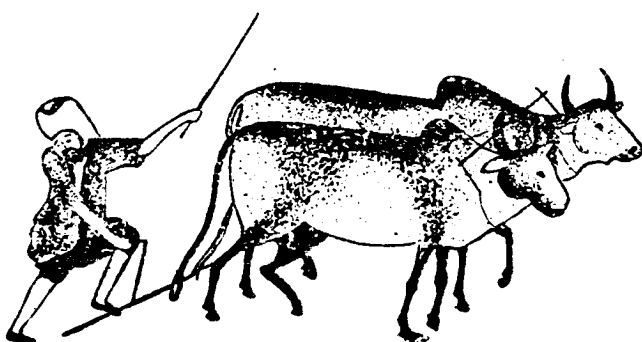
العاصمة فيها . كما أن الخلفاء عمدوا إلى تخفيف المستنقعات في البطائع حيث رشت بنظام ترشيح دقيق . واستثمرت في الزراعة وكثرت حاصلاتها . وقد قال الاصطخري : « أصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز » . وقال غيره : « كان العراق وجنوب فارس يبدوان في ذلك العهد روضة غناء » . وبما يؤكد ذلك ان جباية السواد ، وهو جزء من العراق ، بلغت زمن المعتمد ( ١١٤٥٠٠٠٠٠ ) درهم حسب رواية قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، أي ما يعادل ثلث خراج الدولة بكاملها . ونستطيع ان نقدر قيمة هذا المبلغ إذا علمنا ان خراج مصر والاسكندرية حسب رواية قدامة ابن جعفر بلغ ( ٢٥٠٠٠٠٠ ) دينار أي ( ٣٧٥٠٠٠٠٠ ) درهم .

ومن أشهر المناطق الزراعية عدا سهل المغرب ومصر والشام والرافدين ، منطقة خراسان وبلاد ما وراء النهر . وهي كثيرة الحطب جداً قال عنها ابن حوقل : « لم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى لانك إذا علوت مرتفعاتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء ، مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس المظية أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من أراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرأة » كما قال أيضاً : « والمشار اليه من منزهات الأرض سغد سمرقند ونهر الابله وغوطة دمشق » .

**استثمار الأرض :** ومن أساليبهم في استثمار الأرض الاجبار . او أن تبذر الأرض من قبل صاحبها ثم تعهد إلى فلاح بالمزراعة . أو تبذر ويشرف عليها صاحبها وتحصد من قبل الفلاح وهذا ما يدعي بالخايرة . والفلاح يحتفظ لنفسه في الحالين بجزء معين من المحصول . وهناك أيضاً المغارسة وهي أن

يعطي صاحب الارض أرضه إلى فلاح يغرسها بالأشجار ويستفيد منها خلال سنوات معدودة وينال نصف الأرض المقروسة عند انتهاء مدة العقد . أما المساقاة فهي أن يعطي المالك بستاناً للنخيل ليروي ويسمد ويصان ويحجم من الطيور أو اللصوص مقابل حصة من الثمار بعد جنيها وتجهيفها . ويطبق نفس النظام على الكروم . وفي رأي أغلب الفقهاء أنه لا يمكن أن يطبق النظام على البساتين المكونة من أشجار أخرى . والمالك يقدم الآلات ودواب الحمل وغير ذلك .

أما عن أدواتهم الزراعية فلا يوجد عنها شيء يذكر في المصادر التاريخية . ويوجد كتاب نادر غير مطبوع بعد وهو « كتاب الفلاحة النبطية » لابن وحشية لعل فيه ما يزيد معلوماتنا عن الزراعة وأصولها وأدواتها . وربما تكون أدواتهم شبيهة بالأدوات البسيطة المعروفة الآن في البلاد العربية . نستنتج ذلك من بعض النقوش التي وجدت في اليمن ويبدو في أحدها صورة رجل من أهل اليمن يحرق الأرض بالثيران وفوق الصورة كتابة بالسند . ويلاحظ فيها أن المحراث لا يختلف كثيراً عن المحراث البسيط المستعمل في وقتنا الحاضر .



شكل - ٢٩ -  
صورة اسلامية مرسومة في القرن العاشر الميلادي  
تمثل فلاحاً يحرق الأرض

**الحاصلات الزراعية :** اشتهرت بلاد الامبراطورية العربية بكثرة حاصلاتها وتنوع منتجاتها وجودة أصنافها ويرجع ذلك إلى تعدد أقاليمها واختلاف جوها .

ومن أشهر حاصلات الجبوب فيها : القمح والشعير والأرز والحبوب العلفية  
ومن الأشجار المثمرة والفواكه : النخيل والبن والكرمة والتين والزيتون  
والخوخ والكمثرى والمشمش والجوز والسفرجل والمان والكرز والبطيخ .  
ومن المزروعات الصناعية : القطن وقصب السكر والكتان والنباتات التي  
يستخرج منها مواد الصباغ كالنيلة والقرمز والزعفران والعصفر . كما  
يزرع أيضاً في فارس والشام الورد لاستخراج ماء الورد .

وبلاد الامبراطورية العربية الاسلامية على العموم فقيرة باحراجها واخشابها إلا  
أن بعض المناطق اشتهرت باحراجها كالشام وصعيد مصر والمغرب وخراسان .  
**تربية المواشي :** كان يعنى بتربية المواشي عناية كبرى لأنها مصدر  
رئيسي من مصادر ثروة سكان الامبراطورية . ويعتمدون عليها في غذائهم  
وتنقلهم وصناعاتهم النسيجية . وكانت أهمها : الإبل وهي أكثر المواشي  
نفعاً لسكان الجزيرة والمغرب وفارس إذ لا يقوم مقامها حيوان في الركوب  
وحمل الأثقال في مناطق قليلة العشب نادرة الماء واسعة الأرجاء . وأنواعها  
كثيرة يشتهر منها نوع مريع الجري لا يقل عن الخيل خفة وسرعة . أما  
**الخيول العربية** فهي ذات شهرة عالمية وصفها أحد الرحالة المستشرقين  
( بلغراف ) بقوله : « هي عصابة رشيقة مثال الاناقة في شكلها وهي برؤوسها  
الصغيرة وأحداقها الواجدة وجوانبها المثلثة القصيرة وذيلها المتموجة وقوائها  
الدقيقة المثينة عنوان الجمال ... » . وأكثر ما تربى في سهول العراق والشام  
ونجد . وفي نجد أعزّ الخيول العربية وارثتها . الحمير وهي من الدواب

الشائعة للركوب بين الحضر وأهل المدن . البغال وهي كثيرة في اسبانية والمغرب والمناطق الجبلية . الفنم ( ضأن وماعز ) تربي بكثرة في جميع المناطق وتعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر ثروة البلاد . البقر ويربى في المناطق الغزيرة المياه الكثيرة الأعشاب كما في الشام والعراق . الجاموس جيء به من الهند ويربى في الأماكن التي تكثر فيها المياه والمستنقعات كما في مصر والشام والعراق .

**الزراعة في الاندلس :** اشتهرت بلاد الاندلس بنخب تربتها وجود اقليمها وقابليتها العظيمة للزراعة . إلا أن اضطراب الأمن قبل الفتح العربي وانتشار الفوضى وضعف الحكومة واستبداد رجال الاقطاع وتطاحنهم وتأخر حالة الفلاحين الاقنان أي عبيد الارض ، أدى كل ذلك الى تقهر البلاد وانحطاطها اداريا واقتصاديا . بما سهل مهمة العرب الذين حملوا اليها الحضارة الفكرية والمادية .

**التحسينات التي ادخلها العرب على الزراعة في الاندلس :** ادخل العرب والبربر الى الاندلس كل خبرتهم الزراعية ومهارتهم الفنية التي جلبوها معهم من الشام وشمال افريقيا . ولم يكتفوا بذلك بل درسوا امكانية الارض وملاءمة التربة والطقس لزراع النباتات المختلفة . كما ادخلوا نظام زراعة المدرجات في الجبال . وجسّوا وسائل الري اذ وجدوا المياه ترخر وتفيض في بعض الاوقات وتقل حتى تجف في أوقات اخرى . فحفروا الترع والمصارف العديدة لاستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية . ولا يزال حتى الآن نجد في اسبانيا آثار الاقنية والقناطر والجسور الاسلامية . كما نجد مفردات ومصطلحات عربية كثيرة في لغة الاسبان تتعلق بالري مثل : الناعورة والساقية والسد والبركة والجب والوادي . عدا اسماء النباتات الكثيرة التي ادخلها العرب الى الاندلس ولا يزال بعضها



يعرف باسمائه العربية مثل الارز والقطن وقصب السكر والزعفران والارضي شوكي وكثير من الاشجار المثمرة كالشمش والرمان . وعنها اخذت بقية بلاد اوروبا هذه المزروعات .

**الحاصلات الزراعية :** كانت اهم حاصلات الاندلس :

**الحبوب :** القمح والشعير والارز .

**الاشجار المثمرة :** الكرمة والنخيل والزيتون والرمان والبرتقال والليمون والآس واللوز والتوت .

**المزروعات الصناعية :** قصب السكر والكتان والقطن والقنب والزعفران وكانت **احراجها** كثيرة تشبه احراج بلاد الشام الساحلية وخاصة في منطقة غرناطة .

**تربية المواشي :** كانت تربي في الاندلس جميع أنواع المواشي المعروفة . في المشرق عدا الابل . ولكثرة المراعى في وديان الانهار الكثيرة مثل نهر وادي الكبير ونهر شينيل ( شنجيل والدورو ) ( الحدارة ) ربيت الابقار والحيول والاغنام . أما في المناطق الجبلية فقد اعتنوا بتربية الماعز والبغال .



شكل - ٤٠ -  
فارس عربي مرسوم على صحن خزفي



## ٢- الممارن والصناعة

تمهيد - ثروة شبه جزيرة العرب قبل الاسلام : اشتهرت شبه جزيرة العرب عند القدماء بكثرة معادنها . وقد جاء خبر ذلك في التوراة في قصص داوود وسليمان وبلقيس وفي مواضع متعددة من الحكايات الواردة في اسفار التوراة . وأهم معدن يرد ذكره هو الذهب وتشير الروايات الى أماكنه في الحجاز واليمن وغيرهما . وورد في التوراة أن الاسماعيليين كانوا يستعملون اقراص الذهب . كما ورد ذكر الفضة ومعادن أخرى .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية ان منطقة قنفذة كانت تشتهر بوجود التبر فيها . كما ان الهمداني خصص ابجائاً كاملة لمعادن الجزيرة وخاصة اليمن . فقد ذكر وجود الذهب والفضة والعقيق والحديد فيها . ويكثر وجود الصخور الملحية في الحجاز وعسير وجيزان وفي اليمن التي كانت تصدر كميات كثيرة منه الى الهند . وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية كأنها بلور . والى جودة هذه الصخور الملحية في كثير من أنحاء الجزيرة يجب ان يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التاريخ والادب .

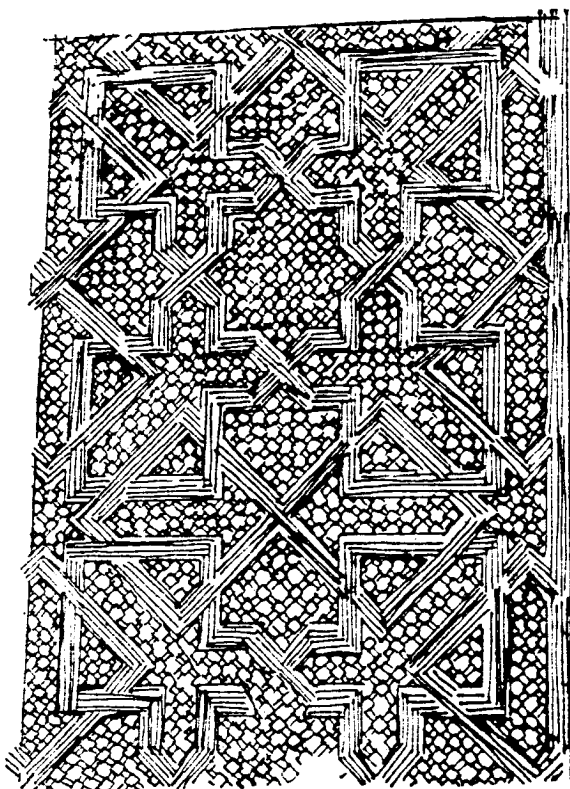
ويوجد في اليمن صخور متبلورة استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل

في النوافذ لتقوم مقام الزجاج . كما أن المناطق المطلة على خليج البصرة كانت تشتهر بمقاص اللؤلؤ .

**المعادن واشهر اماكنها في العصر العباسي :** هذا قبل الاسلام وفي شبه الجزيرة اما بعد الاسلام وخاصة في العصر العباسي فان سكان الدولة أخذوا يستثمرون المعادن من شبه الجزيرة ومن بقية انحاء الامبراطورية في الاندلس والمغرب والشام وعراق وفارس .

وسنعدد الآن أشهر المناطق التي اشتهرت بثروتها المعدنية مع ذكر أنواعها متجهين من الغرب الى الشرق :

- ١- المغرب العربي : الذهب والفضة ومقاص المرجان .
- ٢- مصر والسودان : الذهب والفضة والزبرجد والشب والنظرون
- ٣- الشام : الحديد ( حلب ولبنان ) الحمر . الرخام ( فلسطين ) الكبريت ( الغور ) .
- ٤- الكويت والبحرين وعمان : اللؤلؤ .
- ٥- الحجاز : الذهب
- ٦- اليمن : العقيق والعنبر
- ٧- كرمان : الذهب والفضة والحديد والنحاس والنشادر
- ٨- فارس : الفضة والحديد والرخام والكبريت والنفط والقيز والزئبق والكحل والملح .
- ٩ بلاد ما وراء النهر : الذهب والفضة والزئبق والفحم الحجري .
- ١٠ - خراسان : الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الحتم والنشادر والزئبق .



شكل - ٤١ -

نموذج من صناعة الابواب الخشبية بحشوات من الخشب  
ترتب بأشكال هندسية بديعة . وهذه القطعة من أحد  
ابواب مدرسة المطارين من فاس - المغرب



أناء من الخزف من صناعة دمشق  
محفوظة في متحف برلين - دالم ومصنوع  
في القرن الرابع عشر الميلادي وهو أناء  
خاص بالصيديات . وقد برغ هذا  
الاطار الفني للمرة الأولى في الاندلس  
ثم انتشر في بقية البلاد الإسلامية  
ومن بعد ذلك انتقلت صناعته الى الغرب

شكل - ٤٢ -



شكل - ٤٣ -

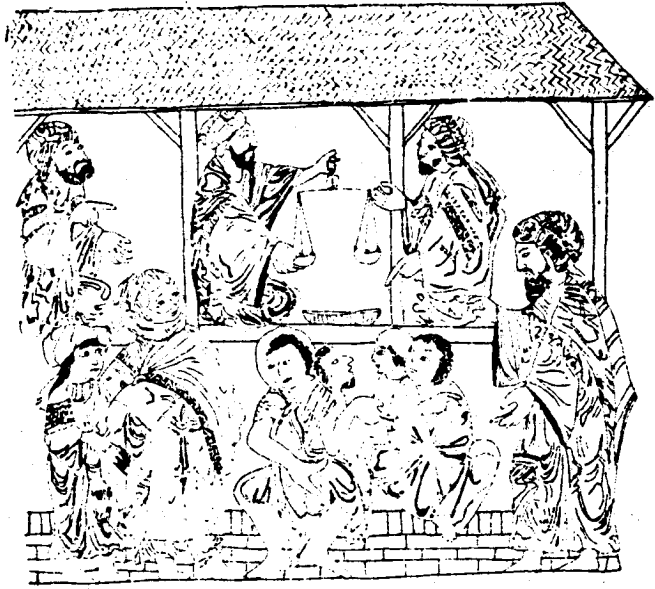
تزيينات ذات بريق معدني ، على كأس من الخزف مصنوعة في  
الاندلس في عهد بني نصر ( القرن الرابع عشر الميلادي ) وكانت  
الاندلس والجزر البحرية التابعة لها ، مركز فن البريق  
المعدني في المصور الوسطى ، انتقل منها الى بلدان اوروبا  
الغربية وخاصة المانيا وايطاليا . وهذه  
الكأس محفوظة بمدينة بايون

هذه أشهر المعادن المعروفة ذكرتها المصادر العربية باعتبار انه كانت يجبي خمسها لبيت المال . وكانت الحكومة تقطع هذه المعادن اقطاعاً او تضمينها تضميناً بمال معين وقد يكون ذلك المبلغ كثيراً . اذ يذكر المقدسي ان ضمان معادن الفيروز في نيسابور (خراسان) بلغ في اواسط القرن الرابع للهجرة ( ٧٦٠٠٠٠ ) درهم تقريباً .

وكانت جباية الدولة تتألف معظم الاحيان من الاموال ومن المنتجات التي تشتهر بها كل منطقة . يذكر ابن خلدون مثلاً انه كان يؤخذ من السودان في عصر المأمون عدا الاموال (٢٠٠) حلة من الثياب و (٢٤٠) رطلاً من طين الحتم . ومن خراسان الفضة والثياب والرقيق .

**اهم الصناعات ومراكزها :** لم يهتم سكان شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بالصناعة فقد اعتمدوا في حياتهم بالدرجة الاولى على التجارة وتربية المواشي ومن بعدهما على الزراعة ومن ثم على الصناعة . ولا تزال صناعتها حتى الآن ضعيفة بسيطة . واسباب ذلك : فقر بيئتهم من المواد الضرورية للصناعات ، وبساطة معيشتهم ، ونظام حياتهم القبلي . وكانوا ينتجون ما يحتاجون اليه من مواد نسيجية ( ثياب وخيام ) واسلحة وغيرها من الصناعات المعدنية البسيطة . وقد اشتهروا ببعض الصناعات كما هو الحال في اليمن التي عرفت بسيفها في الجاهلية والاسلام .

أما في صدر الاسلام فقد شغل العرب بالفتوحات : ولما هدأت حمأة الحروب تملكوا الضياع واعتنوا بشؤون الزراعة واهملوا الصناعة لأن العربي كان يأنف أول عهده من العمل الصناعي ويميل الى الاشتغال بوظائف الدولة أو التجارة أو تملك الضياع والأراضي وترك المهن لأبناء البلاد الأصليين . من الامثال المتداولة « ان الحق في أصحاب المهن والصناعات » .



شكل - ٤٤ -

صورة تزين نسخة من مخطوطة كتاب « مقامات الحريري » محفوظة في المكتبة الوطنية ببائيس ويشاهد فيها بائع وشاري في الأعلى ورجال ونساء في الأسفل ، وتظهر ملابس الرجال والنساء بوضوح

ولكن العرب لما أبعدوا عن الجيش والأعمال الادارية في العهد العباسي اضطروا إلى تعلم مختلف الصناعات والارتزاق منها . وقد نشطت الصناعة وازدهرت وكان من أسباب ذلك ارتفاع مستوى المعيشة، وحياة الترف والبدخ، وكثرة الأموال ، ونشاط التجارة ، واكتمال رقي الدولة العربية بعد أن بلغت دور القوة والنضوج . وبذلك يقول ابن خلدون : « وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع .... ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ... والصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يكون للكماليات . »

وارتقت الصناعة بتوالي الأجيال ، وامتازت كل منطقة اسلامية بصناعات خاصة بها . واهم الصناعات التي اشتهرت بها البلاد الاسلامية .

١ - **الصناعات النسيجية** : على اختلاف أنواعها الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية . وامتازت كل منطقة بنوع خاص . ففارس والعراق والشام اشتهرت بالانسجة الحريرية المشجرة . وكان العرب ينشئون المصانع الجلدية ابنا ذهبوا حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير في العالم خلال القرون الوسطى . وقد نسب بعض المنسوجات الى المدن التي تصنع فيها وعرفت بها كذلك لدى الشرقيين والغربيين فالفستان Fustian للفسطاط والداماسك لدمشق والموصلين للموصل والكوفيات للكوفة . وامتازت بلاد فارس بنوع يدعى السجل ( التفتة ) Taftah . واشتهرت بغداد بنوع من النسيج الحريري يدعى بالعتاي نسبة الى حي العتابة الذي كانت تقطنه سلالة عتاب حفيد أحد الصحابة . وانتقل الى اسبانيا وعرفه الفرنسيون والابيطاليون باسم Tapis .

واشتهرت مصر بالانسجة الكتانية كما اشتهرت به بلاد فارس . وامتازت خراسان والعراق بالاقمشة القطنية . اما النسيج الصوفي فكان يصنع في كل مكان ويعتمد عليه بصورة خاصة في بلاد فارس لصنع السجاد التي اشتهرت بانواع عديدة منه شهرة عالمية . يضاف الى كل ذلك صناعة البسط ( أرمنيا وبخاري ) والستور والاعطية . وجاء في الاغانى : د انهم كانوا يزرکشون البسط والطنافس ويوسمون في اواسطها اشكالا ورسوما بما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب او القصب ابياتا من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة ... وكان لأم المستعين بساط عليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت



وجواهر انفتت في صنعه ( ١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ) درهم .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر ذكر الارانب . والابرسم وهو حرير خالص . والديباج وهو نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها . والبز وهو نسيج قطني مبن . وكانوا يصنعون من هذه المنسوجات الثمينة : الاقيصة والدرابع والطيلة والجيب والعائم والبراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات وغيرها .

٢ - **الصناعات المعدنية** : برع سكان الامبراطورية العربية بالصياغة وتكفيت المعادن ( التطعيم ) كتكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة لخلق رسوم عليها موضوعات زخرفية مختلفة . وعرفت هذه الصناعة الدمشقية ( Damascening ) . كما عرفت دمشق بصناعة الاسلحة من الحديد والصلب . كما اشتهرت به اليمن ايضاً . وامتازت الموصل بصنع الادوات النحاسية التي تختص بالمائدة .

٣ - **الصناعات الغذائية** : اشتهر بصناعة السكر نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس ومصر وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل . وكانت منطقة الاهواز تدفع في عهد المأمون مـع الجباية ( ٣٠٠٠٠ ) رطل سكر . وامتازت الشام بجودتها كما كان يصنع بها ماء الورد الذي اشتهرت به ايضاً بلاد فارس التي كانت تقدم مع جبايتها ( ٣٠٠٠٠٠ ) قارورة من ماء الورد . كما كانت انواع الشراب من الفواكه والخمور تصنع في كل مكان . واشتهرت بصنع العطور مثل الشام وفارس لكثرة انواع الزهور فيها .

٤ - **الصناعات المختلفة** : وهناك صناعات كثيرة كانت موضع

اعجاب الاوربيين قرونا عديدة مثل صناعة الورق الذي اشتهرت به الشام .  
وازدهرت صناعته في عهد المعتصم اذ أسس المصانع وجلب لها العمال من  
مصر . واشتهرت البصرة في عهده بصناعة الزجاج والصابون وقد عرفت  
بها بلاد الشام التي كانت تصدر في مطلع القرن الثاني الهجري الزجاج الملون  
المطلي بالميناء الى كافة انحاء العالم . وكان يضرب بزجاج الشام المثل  
بالرقة والصفاء فيقال ارق من زجاج الشام . ومن الصناعات الراقية في فارس  
ومصر صناعة الفخار والخزف . وقد اقتبس الصناع المسلمون صناعة الخزف  
من الصين ثم تميزوا بأنواع خاصة بهم وهو الخزف ذو اللون  
الازرق الممتاز . وعرفت الشام والعراق ومصر والمغرب خاصة بصناعة  
الجلود وصناعة الاحذية والوسائد والسروج وجلود الكتب المزخرفة وغيرها.  
كما كان لصناعة المجوهرات اهمية كبرى لما تتطلبه حياة الترف والبذخ من  
كثرة استعماله واقتنائه . ومن الصناعات ايضاً صناعة القوارب والمراكب  
التي كانت تستعمل للنقل ولصيد الاسماك . وقد اشتهرت البلاد البحرية  
والنهرية بصيد الاسماك . وكان يجبي من ارمينيا عدا الاموال  
( ١٠٠٠٠٠ ) رطل من السونج وهو نوع من الاسماك البحرية .

## معادن الاندلس وصناعاتها

**المعادن :** كانت الاندلس من أغنى بلاد الدولة العربية في المعادن من  
حيث وفرتها وكثرة انواعها وسهولة استخراجها . وقد استثمرت منذ  
أقدم العصور إلا انها اهملت في فترة الفوضى والاضطرابات في عهد القوط .  
وبعد ان استتب الامر للعرب واستقروا نشطوا في استخراج معادنها المختلفة .

ولا تزال تعتبر اسبانيا في عصرنا الحاضر من البلاد الاوروبية الغنية بمناجمها تستهلك ما تحتاجه وتصدر الباقي وخاصة الحديد .

وأهم المعادن التي كانت معروفة زمن العرب هي :

الحديد والذهب والفضة والرصاص والنحاس والكبريت والياقوت والبلور والامند أو الكحل .

اشهر صناعات الاندلس : يقول المستشرق الاستاذ J . R . Trend  
« لما كانت أوربا تزح تحت نير الجبل والفساد كان المسلمون الاسبان قد أقاموا حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظمة ، » .

كانت صناعة الأندلس لا تقل عن صناعة المناطق الشرقية للإمبراطورية العربية ، في اتقانها وتنوعها وجودتها . فقد أقيم في غرناطة وطليلة **معامل الصب والحديد الكبيرة** . وكان صنع الفولاذ الاندلسي مشهوراً في كافة انحاء العالم . وسيوف غرناطة كانت تفضل على غيرها لحسن صنعها واتقانها . وكان يصنع في مرسية وشيئا مذهباً في غابة الاتقان وفيها أيضاً **معمل للبسط** لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرسعة . وكان **للحرير** الاسباني شهرة عظيمة ولم يكن له مثل في تعقيده ودقة صنعه . ويقال إن العرب هم الذين ادخلوا الى اسبانيا صناعة الحرير والقطن والمصنوعات الصوفية .

وتتجلى صناعة العرب في اسمى مراتبها في **الفخار** الاسباني العربي ذي البريق المعدني الذي يعتبر بعد الخزف الصيني مباشرة في الجمال والقيمة . وهذا البريق المعدني متأق كالذهب يتراوح لونه بين الياقوتي وبين عرق اللؤلؤ والاصفر المخضر ، مع نقوش وزخرفة باللغة العربية وكان يكثر استعمال كلمة ( العافية ) على الأواني وبقيت تعرف بالاسبانية Alafia .

ولا يجب أن ننسى صناعة النجارة وخاصة الدقيقة الفنية وقد لاحظ بعض المستشرقين أنه لا يزال كثير من المصالحات الفنية للتجارة في اسبانيا عربية .

وكان في مالقة معامل للزجاج ونوع من الفسيفساء المفضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة هو عباس بن فرناس حكيم الأندلس . كذلك كانوا مشهورين على الأخص بدباغة الجلود والصباغة وتزيين الجلود بالنقوش البارزة . وقد قضي على هذه الصناعة في اسبانيا منذ خروج العرب ، ونقلت منها إلى فاس ثم إلى انكلترا حيث اطلق عليها الموروكو كما ادخلوا في اسبانيا صناعة البارود والسكر والورق .

ويقول ابن خلدون عن صناعة الأندلس : « ... فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ماتدعو إليها عوائد امصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والحزف وجميع المواعين واقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم اقوم عليها وابصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار ... » .



### ٣ - التجارة وطرق المواصلات

**تجارة العرب قبل الاسلام :** كنا ذكرنا أن سكان الجزيرة العربية كانوا يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على التجارة بالدرجة الأولى لأن العوامل الطبيعية والاجتماعية كانت غير ملائمة للزراعة والصناعة . لذلك ركز السكان جهودهم في استئثار موقع بلادهم التجاري الممتاز . فالجزيرة تحتل مركز القلب من العالم القديم ولا يمكن أن يتم اتصال في البر والبحر إلا عن طريقها وبواسطة سكانها .

والمصادر القديمة كالمصرية والعربية واليونانية والرومانية والتوراة وغيرها تبين أهمية العرب في التجارة في تلك العصور وتعدد المواد الضرورية التي كانوا ينقلونها على قوافلهم وفي سفنهم . وهي تشير إلى أن تجارة اليمن بقيت مزدهرة طيلة قرون عديدة . وكان أكثر اشتغال ملوك اليمن بالتجارة لتوسط بلادهم بين الهند والحبشة والصومال ومصر والشام والعراق فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد بعد دخولها إلى جزيرة العرب في طرق خاصة . ولم يكن عالم التجارة يستغني عنهم فزعت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سيادتهم إلى أطراف الجزيرة شمالاً وشرقاً . وبذلك لم يكن تمدنهم حربياً كتمدن الاشوريين والفرس والمصريين بل كان تجارياً كتمدن الفينيقيين فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . وتوالى أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم كما كان اخوانهم الفينيقيون في

أجيال أخرى . بقيت الحال كذلك إلى أن سيطرت الامبراطورية الرومانية الشرقية على تدمر وبلاد الانباط وذهب تجار الروم وتدمر من الخليج العربي والبحر الأحمر فحملوا بضاعة الهند إلى الحبشة ثم إلى مصر وغيرها .

وكان لعرب الحجاز ، وخاصة بعد سيطرة قريش على مكة ، نصيب وافر من تلك التجارة التي حمل البانيون لواءها . ونظموا رحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام عدا الرحلات إلى الحيرة . وعقدوا اتفاقات تجارية مع الحبشة واليمن والفوس والمناصرة والغساسنة والرومان .

**تطور التجارة بعد الاسلام :** لم تقطع تجارة قريش ولم تتوقف قوافلها إلا بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حيث قوي أمره فيها وأخذ يضعف من شأن أعدائه بتهديد تجارتهم ومورد رزقهم وراثتهم وقوتهم . ثم ضعفت حركة التجارة وتوقف نشاطها في دور التوسع والفتوحات ولكنها لم تتعطل تماماً ولم ينقطع سير القوافل من وقت إلى آخر في فترات متباعدة . استمرت الحال كذلك حتى استتب الأمن للعرب المسلمين في كافة أنحاء الجزيرة ودانت لهم الشام والعراق وفارس ومصر . وبخضوع هذه البلاد جميعها لسلطة واحدة وهي غنية ذات موارد كثيرة متنوعة ، عادت التجارة شيئاً فشيئاً إلى سابق عهدها ثم نمت واتسعت باتساع الفتوحات وازدياد رقعة الامبراطورية حتى بلغت أوجها في العصر العباسي .

وكانت أهم أسباب ازدهار التجارة في العالم الاسلامي هي :

- ١ - اتساع مساحة البلاد الخاضعة لسلطة العرب وكانت تقدر مساحتها بثلاثة ملايين ونصف المليون ميل مربع أي نحو مساحة أوروبا كلها .
- ٢ - وحدة النقد مما سهل التعامل التجاري بين مختلف أنحاء الامبراطورية .

٣ - رقي الصناعة وتقدمها وكثرة انتاجها بما دفع التجار إلى تصريف الفائض .

٤ - ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الرخاء والبذخ والترف .

٥ - كثرة الأموال واتساع الثروات .

٦ - نشوء الدويلات المستقلة وسعي كل منها إلى التشبه بالدولة الأم من حيث البلاط والحاشية والابهة والبذخ والعطاء .

إلى هذه الاسباب الظاهرة وغيرها من العوامل الخفية الثانوية يرجع السبب في ازدهار التجارة العربية واتساع محيطها . وقد اتقن التجار العرب التجارة علماً وعملاً حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . فقد وضع أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة كتاباً عنوانه « الاشارة إلى محاسن التجارة » فيه شرح لبعض الفوائد الاقتصادية لم يسبقه أحد إليها . كما يحوي أبحاثاً في معنى النقود والسلع والعروض وتحقيق أثمان الأشياء ، وهي أبحاث قيمة لا تقل عما بلغ إليه علماء الاقتصاد في هذا العصر .

وقد دفعت كثرة الأرباح التجار العرب إلى أن يطوفوا في الدنيا بشجاعة وبغامروا بقوة فكانوا رواد العالم الأول في البر القديم فقد عرفوا سواحل افريقيا الشرقية ومناطقها الوسطى النائية والهند والملايو والصين وجزر سرنديب وسومطرا وجاوا وبورنيو . وجابت قوافلهم قارة أوروبا ووصلوا إلى البلطيق وروسيا وألمانيا وانكاترا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان . فلم تردم عقبة ولم يمنعهم خطر .

وكانت لرحلاتهم وأسفارهم التجارية الفضل الكبير على تقدم علم الجغرافية

وذلك لاتساع مداها وبعد آفاقها . اذ أن غاية الرحلات الأولى كانت تجارية بجنسة كما كانت من بعد رحلات فاسكو دوغاما وكريستوف كولومبوس . واثرت قصص التجار عن عجائب وغرائب المناطق التي شاهدها في نفوس بعض العلماء فنشطوا للقيام برحلات غايتها علمية ولكنها لم تتم الا بواسطة سفن تجارية .

**التبادل التجاري والمنتجات المتبادلة :** التجارة نوعان داخلية وخارجية . فالداخلية هي التي تكون فيها المبادلات بين مختلف أجزاء الدولة الواحدة . أما الخارجية فهي التي تجري فيها المبادلات بين دولة وأخرى . الا ان اتساع البلاد الخاضعة للنفوذ العربي وامتدادها على ثلاث قارات من الاطلسي حتى مشارف الهند والصين ومن المتوسط وفزوين حتى الهندي ، يجعل امكانيات التجارة الداخلية فيها جد واسعة ويمكن أن تشبه في الوقت الحاضر بتجارة الاتحاد السوفيتي أو تجارة الولايات المتحدة الاميركية .

أما التجارة الخارجية فكانت بين بلاد الدولة الاسلامية من جهة وبين أوروبا والهند والصين وجزر جاوا وما يجاورها وسواحل افريقيا الشرقية وأواسطها والحبشة من جهة ثانية . ونلاحظ من ذلك أن ميدان التجارة الداخلية والخارجية كان واسعاً جداً يكاد يصعب تصديقه بالنسبة لذلك العصر لضعف النقل البري والبحري وبساطة وسائله .

وسنعدد الآن أهم السلع والمنتجات التي كانت يتاجر بها مع ذكر مراكزها :

**من الهند :** الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والافاوية كالبهار والفلفل ونحوهما والقطن .

**من الصين :** المسك والكافور والعود والحجارة الكريمة والخزف .



## الشكل - ٤١

طبق من الخزف من صناعة  
الفسطاط من صنع الخزاف  
المصري علي البيطار محفوظ  
في متحف برلين - دالم . وهو  
نموذج من الفن الفاطمي في  
أوائل القرن الحادي عشر  
الميلادي وتلاحظ فيه صورة  
أرنب في الوسط يحيط به  
أربع جامات متقابلة ، فيها



زخارف نباتية تتألف من وردتين متقابلتين ، ويخرج منهما  
نصف مروحة نخيلية . وللزخارف بريق معدني في لون الذهب



## الشكل - ٤٢

كأس محفوظة في متحف برلين - دالم . يغطيها طلاء معدني  
وهي مزينة بزخارف على صورة انصاف مراوح نخيلية ،  
وزخارف خطية تشبه الكتابة الكوفية . وهنا الزخارف ، قد  
رسمت فوق الطلاء باللون ذات بريق معدني لا تكتسب هذه  
الخاصية الا بعد عملية تحريقها للمرة الثانية حيث يتحول  
او كسيد المعدن الى معدن خالص . وهذا يعطينا فكرة عن ابتداء  
الاسلوب الاسلامي الذي تطور في العراق اثناء القرن التاسع  
الميلادي .

من روسيا : السمر الاسود وجلود الخنزير والثعالب السود والرقطي .  
من بلاد ما وراء النهر : الورق والنوشادر والابواب والسمر والسنباب  
والثعالب والمسك .

من بلاد فارس : الادهان . الزيت العطرية . نسيج الكتان والقطن  
والصوف والحزير . سبائك الفضة . الخفاف . السمر . الامشاط . البسط .  
من الحبشة : العقيق والعاج والجلود المدبوغة .

من سواحل افريقيا الشرقية : العطور . الأطياب . خشب الابنوس .  
ريش النعام . الذهب والعاج والرقطي .

من ارمينيا : أحسن أصناف البسط والوسائد والمقاعد .  
هذا عدا ما تنتجه بلاد الرافدين والشام ومصر والمغرب العربي والاندلس .  
وكانت تجارة الرقيق تجد راحة في البلاد الاسلامية . وله في كل  
مدينة كبنزة سوق خاصة تعرض فيها مختلف أنواعه . فالرقيق الأسود  
كان يجلب من السودان ، والابيض كان يحمل من بلاد ما وراء النهر وأصله  
من الصقالبة أو من الخزر الاتراك ، كما يجلب أيضاً من الأندلس . ومنهم  
صنف كان يرد من خراسان غال جداً ربما يبيع الغلام منه بمخمة آلاف دينار .  
وأفضل الأنواع وأكثرها رواجاً هم الصقالبة يحملهم النحاسون الافرنج  
من شمالي اوروبا باعداد كبيرة . وسبب ذلك ان قبائل السلاف ( روس  
صرب بوهيم دلمات وغيرهم ) نزحوا من المناطق الشرقية في اوروبا نحو  
أواسطها فاضطروا وهم نازحون أن يجاربوا الشعوب التي في طريقهم  
كالسكسون والهون وغيرهم فتكاثر الاسرى على الجانبين . وكانت العادة  
أن يباع الاسرى يبيع الرقيق فأخذ التجار الافرنج يتنازعون الاسرى من  
السلاف والجرمان ويحملونهم إلى الأندلس حيث يشتريهم التجار العرب

ويبيعونهم في مختلف أنحاء البلاد العربية . وبما أن معظم أولئك الارقاء هم من السلاف وكانت تلفظ عندهم سكلاف صار العرب يطلقون هذه الكلمة على الرقيق الأبيض اجمالاً . ولكنهم عربوها إلى صقلب ومنها صقلي وصقالبة . وقد انتقل المعنى إلى اللغات الأجنبية فصار يعرف الرقيق عندهم باسم Slave او Esclave .

**الموازين والمكاييل :** تعددت الوحدات القياسية للوزن والمكيال في الدولة الاسلامية ، واختلفت اعيرتها ، رغم وحدتها بالاسم ، بين مختلف مناطق الدولة ، والعهود المتعاقبة .. واشهر الموازين التي استعملت في العصور الاسلامية هي :

الاوزان :

١ - الحبة : تساوي وزن حبتين من الشعير

٢ - القيراط : يساوي اربع حبات . ( اي ثماناني حبات شعير )  
والكلمة من اصل يوناني .

٣ - الدائق : يزن قيراطين ونصف . والكلمة من اصل فارسي

٤ - المئقال : يعادل ٨٦ حبة ( ١٧٢ حبة شعير ) . وهو وزن الدينار

الذهبي . والدينار يزن  $1 \frac{7}{3}$  درهماً . وكل درهم يزن ستة دوانيق

( وكل مثقالين يعادلان وزن الليرة (الجنه) الانكليزية الذهب المستعملة اليوم )

٥ - الاوقية : كلمة يونانية الاصل . واختلفت زنتها باختلاف الاقطار

٦ - الرطل : ويعادل عدة اوقيات تختلف باختلاف الاقطار

٧ - المن ، يساوي رطلين

٨ - النواة : تزن ٢٠ اوقية ، ( تستخدم في وزن عروض الذهب والفضة والمعادن الثمينة )

٩ - القنطار : اصل الكلمة يونانية وتدل على المائة . ويزن ١٠٠ رطل

١٠ - البهار : فارسية معربة . تزن ٣٠٠ رطل أي ثلاثة قناطير ( في النحوص لابن سيده ذكر للبهار بأنه ٤٠٠ أو ٦٠٠ رطل ) .

ب - المكايل :

١ - المد : يونانية الاصل ، واختلفت كميته .

٢ - الصاع : أربعة امداد

٣ - القفيز : ١٢ صاعاً

٤ - الوسق : خمسة اقفزة ( جمع قفيز ) ويعادل ٦٠ صاعاً وهو في الاصل ما يعادل حمل حمار .

٥ - البكور : ستة اوساق

٦ - الجريب ٤٠ قفيزاً

ح - المقاييس

١ - الاصبع : تعادل البوصة الانكليزية وتساوي ٦ حبات شعير مرصوفة الواحدة وراء الأخرى بعرضها .

٢ - الشبر : يعادل الفرجة بين طرفي الابهام والخنصر ممتدين ليد رجل متوسط .

٣ - الذراع : ٢٤ اصبعاً

٤ - الباع : قامة رجل متوسط

٥ - الميل : ٤٠٠ ذراع

٦ - الفرسخ نفس طول الفرسخ الفارسي ( حوالي ٣ أميال )

٧ - الجريب : وحدة لقياس المساحات

**أشهر المراكز التجارية :** أدى ازدهار التجارة الى نمو بعض المدن نمواً كبيراً وخاصة تلك التي كانت ذات موقع هام وعلى مفترق طرق رئيسية تضطر القوافل ان تمر بها وتستريح فيها . وقد اشتهرت قبل الاسلام بعض المراكز في شبه الجزيرة وهي أسواق حولية لم تكن للتجارة فحسب بل كان يقضى فيها كثير من الشؤون الاجتماعية والسياسية كما كان يعرض فيها نتائج القرائح من شعر وخطب . أشهرها :

دومة الجندل وعمان وعدن وخضرموت وعكاظ وخيبر وبصرى ودرعا وغيرها ، هذا اذا استثنينا كبريات المدن كصنعاء والطائف ومكة والمدينة والبصرة وتدمر التي كانت ذات أهمية تجارية كبرى .

اما بعد الاسلام وخاصة بعد انتهاء الفتوحات فقد ازدهرت مدن اعتبرت مراكز عظيمة للتجار العرب الذين حملوا لواء التجارة العالمية في القرون الوسطى . منها دمشق عاصمة الامويين ومركز التقاء القوافل بين آسيا الصغرى وما بين النهرين ومصر وبلاد العرب . وكانت سوقاً تجارية هامة وخاصة زمن الامويين تتجمع فيها مختلف انواع السلع والبضائع وتوزع على مدن الساحل لتصدر عبر البحار او تنقل الى سائر انحاء البلاد العربية . وكانت حلب مركزاً هاماً بين خليج البصرة والبحر المتوسط ، وبين سوريا والعراق وآسيا الصغرى . وبقيت محافظة على مركزها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى لما جزأ الاجنبي البلاد العربية وفصلها عن بعضها بجواجز اقتصادية وسياسية منيعة لا يزال اثرها باقياً حتى الآن . اما بغداد فكانت اشهر مدينة عالمية وقلب الامبراطورية الاسلامية والسوق

التجارية فيها ونقطة موصلات رئيسية للقوافل بين الاقسام الشرقية والغربية للعالم الاسلامي . اما البصرة فكانت اكبر ميناء عربي تتفرع منها طرق بحرية ونهرية وبرية الى مختلف انحاء العالم وخاصة الى الهند والصين وسواحل افريقيا الشرقية .

وفي مصر والاندلس والمغرب العربي وفارس مدن كثيرة كانت اسواقاً كبرى للتجارة مثل : القاهرة والاسكندرية وطرابلس والقيروان وسليجاسة وطيطة وقرطبة وغرناطة وسيراف وبخارى وسمرقند .

**اساليب التعامل التجاري :** كانت العادة في تلك العصور ان يتجمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد في حي أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقاً ولا تزال بقايا هذه العادة موجودة حتى الآن في كثير من المدن الشرقية والغربية .

وكانت تقام للتجار الاغراب خانات او فنادق . وهي ابنية واسعة لها صحن واسع اقيمت حوله اصطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوي غرفاً تفتتح على الفناء فقط وتتصل ببعضها عن طريق ممر دائري . وقد انشأ التجار في كل مركز تجاري هام نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الاعضاء الممتازين ويسمى برئيس التجار كما كان يسمى اعضاء النقابة بالامناء .

اهتم الدين بالشروط التي تتحكم بالمبيعات معتبراً عقد البيع هو النموذج . ويجب أن يتوفر شرطان حتى يتم عقد البيع بصورة قانونية . اولها موافقة الطرفين والجهر بذلك ( اما تدوينه كتابة فهو اختياري ) . وتنتهي عملية البيع حين يتصافح المشتري والبائع بالبدل المعنى متبادلين الايجاب والقبول ( هل تشتري هذا مني ؟ اجل اشتريه ) . اما الشرط الثاني

للعقد فهو ان يكون موضوعه شيئاً نافعاً . فالقانون يحرم بيع شي لا يستطيع الشخص تسليمه كطير طائر أو اشيء غير نافعة أو غير طاهرة كالخنزير أو النبذ . ويتم البيع بتسليم البضاعة ودفع السعر والمشتري حق الخيار .

وقد عرف نظام الرهون والودائع . وهما ضروريان في مجتمع يتغيب فيه التجار طويلاً عن وطنهم . فالرهن يكفل للدائن دينه على تاجر سافر ليعرف عن اخباره شيئاً . اما نظام الودائع فهو تأمين للبضائع التي التي لا يستطيع التاجر أن يحملها معه أو لا يكون اميناً عليها في مخزنه الخاص . والشخص الذي يحافظ عليها يقوم بعمل من اعمال التقوى سيناب عليه في الحياة الاخرى . ويفضل ان يوجد شهود في كلتا الحالتين .

سادت بين قريش قبل الاسلام عادة التسليف بفائدة وقد اعتادوا في حالة عدم دفع الدين وفائدته منح المدين مهلة ومضاعفة المبلغ وهو شرط قاس من شأنه ان يقضي على المدين من صغار التجار وعلى ذوي الاموال المحدودة . فلما جاء الاسلام حرم الربا ومنع الدائن ان يجني اي ربح من دينه . ويكون عمله عمل خير سيناب عليه في الحياة المقبلة .

وكان استعمال الكميالة والسند ( اي الحوالات او السفاتج ) منتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه . ونستنتج من كثرة استعمال السفاتج ( جمع سفتجة . وهي ان تعطي مالاً لرجل فيعطيك خطأ يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر ) على اتساع اعمال التجار .

**اغتناء التجار :** كانت التجارة مورد رزق واسع منذ القرن الثاني للهجرة وخاصة لاصحاب المواهب التجارية . ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من اهل البلاط . وتجاوزت ثروة بعض التجار الملايين من الدنانير . فحضر مثلاً

على ذلك اثرء الحسن بن عبد الله الجصاص . وسببه أن قهرمانة مغفلة في قصر أحمد بن طولون اعطته عقد جوهر فيه مائة حبة كل حبة تساوي مائة الف دينار وطلبت منه أن يخرطها حتى تصغر لتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فاستبدلها بأخرى صغيرة واحتفظ بالعقد الذي كان سبب اغتناء آل الجصاص . وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات صودر في عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة لأنه أخفى عنده عبد الله بن المعتز الذي كان يطلبه الخليفة . وقد صودر منه ( ١٦ ) مليون دينار وبقي له رغم ذلك شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع .

واستفاد تجار البصرة من موقع مدينتهم التجاري العظيم التي يقول فيها الجاحظ : « هي باب بغداد ومدخل دجلتها المتدفق بضروب والتمتع أنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . اذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى ... » وتضخم ثروة تجارها . ويذكر ابن الاثير أن شخصاً اسمه الشريف عمر كان دخله ( ٢٥٠٠ . ٠٠٠ ) درهم في السنة . كما بلغت ثروة أحد أصحاب السفن ( ٢٠ ) مليون دينار . وكان آخر يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار فإذا اعتبرناها ربع عشر ماله كان دخله اربعة آلاف دينار في اليوم . وقد ذكر ابن حوقل خبر تاجر من البصرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهند والصين بلغ مايتحصل من ضرائبها ( ١٠٠٠٠٠ ) دينار في العام .

### العلاقات مع الصين والهند :

جاء في كتب الرحالة والجغرافيين أمثال البليخي والاصطخري والمسعودي



وابن حوقل والمقدسي وابن بطوطة قصص وحوادث كثيرة عن مغامرات التجار وتكبدهم المشاق والاختطار . وقد ظن الناس طويلاً أن أخبارهم هي وليدة الخيال الى ان جاءتنا مصادر صينية تشير الى كثير من الحوادث التي ذكرها الرحالة العرب . وما جاء فيها خبر وفد أرسله المنتصور الى امبراطور الصين سنة ( ٢٧٥٦ م ) كما جاء ذكر سفن تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغير ذلك . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يقدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم .

كما أن العلاقات التجارية كانت متينة مع الهند . وكانت المهاداة بين العباسيين وملوك الهند متواصلة . وكانت الوفود تؤم بغداد وتقوي أواصر الصداقة بين الطرفين .

## تجارة الاندلس وطرق مواصلاتها

كانت تجارة الاندلس أكثر ما تكون وثوقاً مع أوروبا والمغرب العربي بسبب موقعها . وكونها صلة الوصل بين أوروبا وأفريقيا العربية . كما أن الصلاة كانت قوية مع بلاد الامبراطورية الرومانية الشرقية لمتانة العلاقات بين قياصرة القسطنطينية والخلفاء الامويين في الاندلس للعداية المشتركة بينهما ضد العباسيين .

وما ساعد أيضاً على تقوية المبادلات التجارية ضعف الصناعة في أوروبا ورقيا في الاندلس .. وخاصة في النسيج والوشى والخزف وتكفيت المعادن والجلود . وكانت دول أوروبا تستورد ما بكثرة من الاندلس . وقد سيطرت هذه اقتصادياً على كل شبه جزيرة اسبانيا . وظلت الممالك المسيحية الاسبانية

تستعمل النقود العربية طوال أربعة قرون تقريباً . وابت ملك قشتالة قرنين آخرين دون أن يسكوا عملة ذهبية باسمهم .

ظلت كثير من الاصطلاحات العربية التجارية في لغة الاسبان وبعض اللغات الاوربية . منها : فندق Fonda . تعريف Tariffa . الديوان ( الجمرك ) Aduana البرهان ( مذكرة أو اشعار ) Alboran . مخزن Almacén . عوار ( خسارة ) Averia . طاقة ( محل صرف التذاكر ) Toquilla . الرطل Arratel .

ولتنظيم شئون التجارة كان يتألف في كل مدينة كما هو الحال في سائر البلاد الاسلامية نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية كما كانت الدولة تعين مراقباً للإشراف على التجار والصناع .

وكان مثلها مثل المناطق الشرقية أيضاً فيما يتعلق بالفنادق أو الخانات وتجمع كل فئة من التجار بسوق خاصة بها .

ومن أهم صادرات الاندلس إلى البلاد المجاورة المنتجات التالية : الذهب والفضة والنحاس والحديد والبرونز والمصنوعات الصوفية والعنبر وحجر المغناطيس والامد والبلور والزيت والسكر والكبريت والزعفران والجلود والياقوت والجمشت ( حجر كريم أزرق ) المستخرج من مناجم مالقة وبيجا . وغير ذلك من الصناعات الفرعية الدقيقة التي تكلمنا عنها في الفصل السابق .

وكانت أهم وارداتها الرقيق الذي كان يأتي به تجار من الافرنج وقد فصلنا ذلك في بحث تجارة الصقالبة . وبقيت سجلات سوق الرقيق محفوظة في قرطبة وقد درسها احد العلماء فاستبان منها ان شراء العبد أو الجارية

لم يكن بالعملية البسيطة التي تتصورها بل كان من الواجبات أن تتم بحضور كاتب عقود . وكانت الأسباب التي يطلب من أجلها الرقيق تبين ونسجل في العقد .

. وأعظم المراكز التجارية في الاندلس كانت قرطبة التي كانت في القرن العاشر الميلادي أكثر المدن الأوروبية حضارة وثمار اعجاب العالم . وكان الرحالة القادمون من الشمال يتسامعون بين الخشوع والرهبة بأخبار المدينة التي كان فيها سبعون داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . ثم يأتي بعدها اشبيلية كمركز هام وخاصة بعد أن أفل نجم قرطبة في عهد ملوك الطوائف . ومن المرافق الهامة المرية ودانية وطريفة .

**طرق المواصلات في الاندلس :** كانت قرطبة عقدة مواصلات برية هامة تتجة منها شبكة طرق واسعة بلغ عددها أربعة عشر طريقاً نحو مختلف أنحاء الأندلس : إلى سواحل المتوسط والاطلسي وجبال البرانس ومنها إلى فرنسا .

أما المواصلات البحرية فكانت تؤمن من مرافئ عديدة أهمها : ملقة وطريفة مع شمالي مراكش . ودانية والمرية مع السواحل الشرقية والشمالية وكانت المرية مركزاً رئيسياً لبناء السفن في الأندلس .

وكانت المواصلات النهرية ضعيفة لقلة الأنهار الصالحة للملاحة بسبب انحدارها وقلة مياهها صيفاً . هذا عدانهر الوادي الكبير الذي كانت الملاحة فيه دائمة . وكانت اشبيلية أكبر ثغر عليه تؤمن المواصلات بين المناطق الداخلية والمحيط الاطلسي .

## طرق المواصلات البرية والمائية

### اشهر طرق الجزيرة قبل الاسلام :

١ - البرية : لا بد لتلك التجارة الراقية المزدهرة التي تكلمنا عنها من شبكة كاملة للمواصلات البرية والمائية . إذ لا تجارة بدون مواصلات فهذه شرط ضروري أسامي لتلك . وكانت أشهر الطرق البرية المعروفة قبل الاسلام في شبه الجزيرة والهلل الحبيب هي : الطريق بين عدن وساحل الشام وكانت قوافل قريش تؤمن غالباً نقل البضائع ذهاباً وإياباً برحلتها في الصيف والشتاء . ويتفرع من هذا الطريق طريق آخر إلى مصر عبر سيناء . ثم ضعف شأن هذا الخط لما تحوالت التجارة إلى الخليج العربي حيث كانت القوافل تمر بتدمير إلى ساحل الشام ثم حولها الفرس بعد ذلك إلى شمالي الجزيرة متجنبين البادية ومماشية الرافدين إلى سورية الشمالية ومنها إلى الساحل .

وتم طريق بري آخر هو الذي يتجه من حضرموت أو عمان شمالاً إلى الدعنة فيقطعها ثم يعطف غرباً إلى نجد ومنها إلى الحجاز فيسير شمالاً ماراً بمكة والمدينة ومدائن صالح إلى بطرا . ومنها يسير إلى الشام أو إلى مصر .

٢ - المائية : أما الطرق المائية فكانت عبر الخليج العربي والبحر ومنها إلى سواحل أفريقيا الشرقية والهند وبالعكس . وقد ازدهرت المواصلات المائية بسبب الاخطار التي تتعرض لها القوافل عبر بوادي جزيرة العرب . وقد شعر المصريون القدماء بأهمية الطرق المائية ورخص تكاليفها

منذ عهد رمسيس الثالث فصارت السفن ترسو في القصير على البحر الأحمر وتنقل البضائع منها براً إلى قفط على النيل . ثم لما تولى سيتي الأول العرش احتقر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر أي بين قفط والقصير . إلا أن القناة اهتمت بعده وبطلت الملاحة المصرية وصارت سفن سليمان وحيرام ملك صور ترسو في ايلة ( العقبة ) ومنها تسير القوافل إلى الشام ومصر .

### طرق المواصلات بعد الاسلام :

١ - البرية : إلى جانب تلك الطرق البرية التي ذكرناها آنفاً والتي كانت مطروقة أيضاً بعد الاسلام ، احدثت طرق أخرى أوجها اتساع رقعة الدولة العربية وازدياد المبادلات التجارية زيادة كبرى . وكانت أهم الطرق تلك التي تتجه من دمشق زمن الامويين ومن بغداد أيام العباسيين ، وهما عقدتا مواصلات هامة في تلك العصور .

كانت بغداد مرتبطة بالشام عن طريقين أحدهما يتجه نحو الفرات فعلمب إلى انطاكية أو إلى الجنوب ماراً بدمشق وفلسطين فمصر . والثاني يصل بغداد بدمشق رأساً ثم يسير جنوباً إلى مصر . ومنها يتجه إلى طرابلس فاقيروان مماشيا الساحل ثم إلى بقية أنحاء المغرب العربي . وكان يتفرع من هذا الطريق طرق أخرى عديدة تسير نحو الداخل وبعضها يستمر حتى أفريقيا الاستوائية .

هذا نحو الغرب ، أما نحو الشرق فكان يمتد طريق يصل بغداد بالهند والصين عبر خراسان ماراً بكرمنشاه والري ونيسابور وطوس ومرو . ومن مرو يتفرع الطريق إلى فرعين رئيسيين أحدهما إلى بخارى وسمرقند فالصين وثانيهما إلى بلخ وكابل فالهند .

واقامت على طول الطرق في العالم الاسلامي خانات للمسافرين ودوابهم

وبضائعهم . يرتاح فيها التجار ، ويتبادلون البضائع ، ويعقدون الصفقات ، فقد كان في كل خان رئيسي ، عند ملتقى الطرق ، مكان يسكن فيه « السكاتب بالعدل » لتحرير عقود البيع والايجار والقيام بتسجيل ما يحتاجه التجار لضمان حقوقهم وواجباتهم ، كما فيه سماسرة يقومون بالوساطات بين البائع والشاري ، ومنادون يعلنون عن البضائع بأصوات مرتفعة لجلب نظر زوار الخان ، كما هو الحال في الاسواق التجارية تماماً ، يضاف إلى ذلك وجود مختصين بتسعير وتقييم البضائع المعروضة ، والتأكد من سلامتها منعاً للغش . وفي الخانات الواقعة على الثغور وأطراف البلاد ، أو الموانئ البحرية وجد مترجمون يسهلوا عملية التبادل التجاري بين العرب والوافدين من التجار الاجانب برأ أو بحراً أو عن طريق الانهار الكبرى .

هذا إلى جانب وجود محلات لتأمين حاجات المسافرين ، وتأمين عربات النقل وخيول ودواب النقل ( كالبرادعي والبيطار ) ومطاعم وغرف المنامة لجميع هؤلاء .

٢ - المائة : وهي تنقسم الى قسمين بحرية ونهرية وكل منها متمم للآخر . وكانت البحار التي تمر فيها مراكب العرب هي الاطلسي والمتوسط والاحمر وخليج البصرة والهندي وبحر العرب . أما الانهار فكان النيل ودجلة والفرات وهي قليلة كما يلاحظ بالنسبة الى اتساع الامبراطورية العربية وطول المواصلات البرية والبحرية .

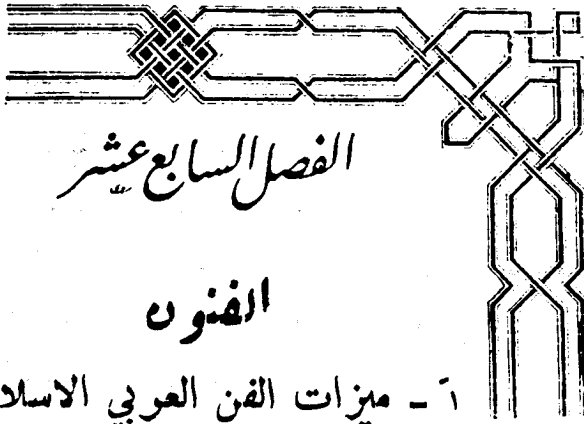
فالواصلات البحرية في الاطلسي كانت أهمها بين سواحل مراكش والبرتغال والاندلس وجزر الخالدات (قناريا) . أما البحر المتوسط فكانت أغلب المواصلات فيه هي بين شرقه وغربه وبالعكس . وكانت تقطعه السفن بمدة ( ٣٦ ) يوماً بين المرية وسواحل الشام . وقيل إن الرشيد فكر

في قناة تصل بين المتوسط والاحمر ( قناة السويس ) إلا أنه عدل عن ذلك خوفاً أن يستفيد منها أعداؤه البيزنطيون فيهددوا الاراضي المقدسة .

أما في البحار الجنوبية والشرقية فكانت السفن تقطع البحر الاحمر من العقبة أو من سواحل مصر الى اليمن ثم تجتاز مضيق باب المندب الى المحيط الهندي . كما تتجه المراكب موازية لها في الخليج العربي منطلقاً من البصرة وسيراف وعمان وهرمز الى المحيط الهندي . ومن ثم تتابع السفن مسيرها من هذين الطريقين اما الى سواحل افريقيا الشرقية أو الى الهند فشب جزيرة ملقا ( الملايو ) مارة من سرنديب ومنها الى الصين .

أما الملاحة النهرية فقد كان للنيل أهمية كبرى إذ انه يصل المتوسط بالاحمر وقد مر معنا كيف أن سبقي الاول احتفر قناة بين قفط والقصر إلا أنها أهملت من بعده . ولكن المواصلات بقيت مستمرة في العهد الاسلامي وكانت القوافل تؤمن نقل البضائع بين النيل والبحر . أما دجلة والفرات فالمواصلات فيها كانت قوية والمراكب لا ينقطع سيرها فيها وخاصة بين بغداد والبحر . وقد حفر العباسيون قناة وصلت دجلة بالفرات عند بغداد . وكما كان النيل يؤمن المواصلات المائية بين البحرين الاحمر والمتوسط كذلك كان الفرات يؤمن المواصلات بين خليج البصرة والمتوسط . وذلك أن السفن الآتية الى البصرة تنقل بضائعها عبر الفرات شمالاً حتى الرقة أو قرب بلدة مسكنة الحالية ومنها تنقل البضائع براً الى ساحل البحر المتوسط .

وفي كتب الرحالة والجغرافيين العرب يوجد أمتع القصص وأغرب الامحاج وأدقها عن الرحلات البحرية مع وصف مسهب للمناطق التي زاروها والاطار التي تعرضوا لها وأنواع السلع التي كانت تنقل من منطقة الى أخرى .



# الفصل السابع عشر

## الفنون

### ١ - ميزات الفن العربي الاسلامي

الفن الاسلامي : هل للاسلام فن ؟ اوليس الاسلام ديناً ؟ والفن فناً ؟ فما علاقة هذا بذلك ؟ ...

ان الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن . فكلامها انطلاق من عالم الضرورة ، وكلامها شوق بمنح لعالم الكمال ... وكلامها ثورة على آلية الحياة . والفن الاسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الاسلام . فليس هو الوعظ والارشاد ، وانما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود ... هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والانسان من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان . هو الفن الذي يهيء اللقاء الكامل بين « الجمال » و « الحق » ، فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال ، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود <sup>(١)</sup> اذن ماذا نعني بالفن الاسلامي ؟ هل هو فن عربي ؟ ام فن اسلامي ؟ لم يكن في الوطن العربي في عصوره القدية فنون مميزة ؟ اليست فنون ما بين النهرين ووادي النيل وبلاد الشام

---

(١) من مقدمة كتاب منهج الفن الاسلامي لمحمد قطب .



واليمن من ارقى انواع الفنون القديمة وأكثرها ديمومة وحيوية ؟ وعدلها الاسلام وادخل عليها تطورات جديدة ؟ اليس من المنطق ان تكون فنوناً عربية اسلامية ، فيها اصالة الفن العربي وذوق وروح الاسلام ؟ ولكن ، هل اكتفى الاسلام في الانتشار فوق ربوع الوطن العربي الكبير ؟ أم رفرف بجناحيه بعيداً ، في شرق وغرب ، وشمال وجنوب ، فدخل في حوزته فارس وهند وصينيون وترك وصغد ، ومغاربة وزنوج ، وقوط وفاندال وغيرهم ؟ او لم ينضو تحت لواء « حكومة الاسلام » مسلمون وغير مسلمين ، عاشوا في ظل دولة واحدة ؟ ألم يكن لهؤلاء جميعاً في امصارهم المتباعدة تقاليد فنية وتأثرت بالعرب والمسلمين واستمرت هذه التقاليد خلال العهود الاسلامية المختلفة ؟

الواقع ، ان الفن الاسلامي يعني جميع الجهود التي بذلها العالم الاسلامي خلال عشرة قرون على الاقل في التعبير عن الجمال وصنع الاشياء الفنية . والفن الاسلامي أوسع الفنون العالمية انتشاراً على الاطلاق إذ تمتد آثاره من خليج البنغال في الهند حتى ايبيريا . كما أنه أطول فنون العالم عمراً باستثناء الفن الصيني فقد ولد في القرن السابع الميلادي ( الاول الهجري ) وبلغ عنفوانه الفني في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ( ٧ - ٨ هجري ) ثم هزم منذ القرن الثامن عشر ( ١٢ هـ ) وهو الى جانب هذا وذاك ، آخر فنون العالم ظهوراً قبل ظهور الفنون الغربية الحديثة منذ عصر النهضة الاوربية ؛ وأخيراً فالفن الاسلامي ذو شخصية قائمة بذاتها ، ذات تاريخ خاص وميزات معينة واضحة . وقد اعطاه الاسلام طابعه الخاص ، اعطاه - كما يقول جورج مارسه - :

« وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على اصولها . وقد كفى هذا الفن أن يمر عليه مائة عام من الزمان لكي يتوسخ في أعمال لم يعد بالامكان نسبتها

للفنون القديمة التي أغنته . وعبر القرون كان يتعدد أكثر فأكثر عن  
المؤثرات التي أحاطت بمقدمه إلى العالم . ففي القرن التاسع الميلادي كان  
يمكن بسهولة اعتبار تاج عمود في مسجد دمشق أو القاهرة بلطف سله  
وأوراق الاكانتوس التي تغلفه مستوحى من الطراز الكلاسيكي الكورنثي .  
وفي القرن الحادي عشر الميلادي يصبح تحديد هوية الأصل نوعاً ما أكثر  
صعوبة .

كما يمتاز هذا الفن الاسلامي بتنوعه العظيم ، تنوع أصاب نواحيه  
وأشكاله وجماعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله . تنوع بلغ من الشدة حداً  
يصعب فيه كثيراً أن نجد فيه تحفتين متماثلتين . ومع ذلك فإنه يمتاز  
بوحده . فلو أنك عرضت على أي شخص - كما يقول ديماندر - تقتصر  
معرفته بالفنون على المبادئ العامة والبسيطة ، صوراً متنوعة ، لتحف  
مصنوعة في العصور الاسلامية ، منها مثلاً صورة لقطعة من العاج الاندلسي  
واخرى لقطعة من النسيج المصري وثالثة من الزجاج الدمشقي ، فلا شك  
أنه يشعر بوحدة أساليبها ، ولا يتردد في الحكم بانتمائها جميعاً الى الفن  
الاسلامي .

**تطور الفن العربي - الاسلامي :** بدأ الفن الاسلامي ، مع بدء  
الدعوة ، فقد لفت القرآن الكريم الانظار إلى ناحيتي الجمال والزينة في  
المخلوقات إلى جانب ما لها من النفع فقال تعالى : « والانعام خلقها لكم  
فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ... والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة  
ويخلق ما لا تعلمون ... » ( سورة النحل ) وأشار القرآن الكريم إلى  
الوسيلة التي توصل الانسان المؤمن إلى نهذب الخلق حتى يصل إلى حب  
الخير ، ونهذب الذوق حتى يصل إلى حب الجمال ، فاقسم ببعض المظاهر

الطبيعية لندرك ما فيها من أسرار الجمال الفني ، من تكوين محكم وتنسيق بديع وألوان رائعة ، وتناسب ، وتقابل ، وتكرار ، وظلال وأضواء - كما يقول د . محمد عبد العزيز رزوق - دون أن يحرم القرآن على اتباعه متع الحياة المشروعة : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . واكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، ( سورة الاعراف ) .

وبنى النبي عليه السلام مسجد المدينة ، واتخذ المسلمون المساجد في كل بلد انتشر فيه الاسلام . ولئن نشأ فن عمارة المساجد تلبية لحاجة دينية فارتبط المسجد بالدين ، كما ارتبطت المعابد في دنيا العالم بالعقائد الدينية ، فان الفن الاسلامي مالمثل أن ارتبط كثيراً أو قليلاً بالحاكم أو حاشيته المباشرة وبالطبقة الغنية . فالعمارة شيدت المساجد والقصور ، من أجل الخليفة أو الأمير ، وكذلك فعل عند بناء المدارس والأضرحة ، ونقش النقاشون الرخام وصور الرسامون المخطوطات المستمدة من النباتات أو الأشكال الهندسية ، وحاك العمال البسط والسجاد ، وصنع الفنانون مختلف الأثاث وأدوات الاستعمال الفنية ، فكانت المنشآت المعمارية وصناعة الرياش والحلي وأدوات الزينة تزدهر تبعاً لحالة السلم الذي تتمتع به البلاد وتبعاً لغزارة الموارد التي تغذي بيت المال يتداولها التجار والحكام وذوي الثروة والجاه . وقد امتد مجال الفن الاسلامي حيث انتشر الاسلام ، على شريط عريض يمتد من شرق الارض الى مغربها ، من خليج البنغال وتخوم الصين الى اقصى المغرب وعبر اوربا الى الاندلس وجنوب غرب فرنسا ، وتوغل في القارة الافريقية وماوراء النهر وبخارى وتركستان ، فجمع العالم المتمكن في العصور

الوسطى ، ومزج بين تقاليد شعوب العالم القديم والوسط - عدا اوربا - ..  
ولكي نفهم تطور الفن الاسلامي لابد أن نربطه بالخطوط العريضة لتاريخ  
العرب المسلمين .

ففي زمن بني أمية بدأ ظهور الفن الذي يمكن ان نسميه الفن العربي  
الاسلامي . ولم يكن في مطلع أمره بسيطاً ، كما قد يخل إلينا . لأن  
العرب بدأوا باقتباس الفنون التي سبقتهم لانعدام التقاليد الفنية لديهم ،  
كما هو الحال لدى جميع الأمم . فاقتبس الأمويون الفنون البيزنطية التي  
وجدوها في سورية والشرق الأدنى وأوجدوا منها طرازاً فنياً خاصاً ، هو  
مرحلة انتقال بين الفنون البيزنطية والطراز العباسي . وقد نقل ولاتهم  
وقوادهم أساليب ذلك الطراز إلى سائر الأقاليم الاسلامية على يد الصناع  
الذين كانوا يستقدمونهم من الشام ومصر ، وقد حدث أن بقي ملك بني أمية  
في المغرب بعد زواله في المشرق ، فبقي الطراز الأموي قائماً وتطور  
ليظهر منه طراز أموي غربي يشمل أجمل آثار الأندلس .

ولما آل الحكم للعباسيين ( منذ سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م ) وانتقل مركز  
الخلافة الى العراق تأثرت جميع نواحي الحياة والدولة بالتقاليد الساسانية  
ومن ذلك الفن أيضاً الذي اتخذ اتجاهاً جديداً واضح التأثير بالأساليب  
الفنية الفارسية ، فلم يعد فناً عربياً اسلامياً بل غلبت عليه صفة الفن الاسلامي  
وبلغ هذا الفن أوج عظمته في سامراء ( القرن الثالث هـ ) . ونجح  
العباسيون كالأُمويين في فرض اساليبه على الامبراطورية الاسلامية كلها  
وأصابوا في ذلك توفيقاً لا يعدله إلا توفيق الاسكندر وخلفائه في نشر  
الأساليب الهيلينية في الشرق الأدنى والوسط .

وما انحطت السلطة المركزية العباسية ( أول القرن الثالث هـ ) حتى

انحط معها الفن الاسلامي الموحد . ومع نشوء السلطات المحلية المستقلة في الأقاليم الاسلامية ، بدأ نشوء أساليب محلية مستقلة في الفن : وهكذا حاول الطولونيون بعث طراز إسلامي خاص بهم في مصر ، فنقلوا من العراق كثيراً من التحف الفنية التي مهدت لانتاج محلي مقتبس بما وجد في بغداد مع تعديل مازال ينمو ويظهر حتى جاء الفاطميون ، فبعث خلفاؤهم وامراؤهم واغنياء الشعب في مصر روح فن جديد فيه ترف عظيم ، ووصل الفنانون المصريون الى طراز فني مستقل ، غني بالروتق والجمال ، وفق رجاله في صدق التعبير عن الحالة النفسية ، وفي دقة تصوير الحركة بدرجة لم يبلغها الفنانون في مصر قبلهم ، فكان عصر ثورة ملهوسة في الفن ، تمثل فيما خلفه هذا العصر من تحف خزفية مزينة بزخارف مرسومة بالبريق المعدني او محفورة تحت الطلاء الزجاجي ، او تحف زجاجية ومعدنية جميلة الصنع دقيقة الزخرفة ، وما خلفه هذا العصر ايضاً من اخشاب مزخرفة محفورة زينت القصور والمساجد ، واقمشة من الكتان والحبر والصوف موشاة بكتابات تاريخية هامة وزخارف عربية نباتية وهندسية .

فلما كان عصر الايوبيين والمماليك الذي ظهر في مصر والشام ، وازدادت ثروة البلاد ، ومال امراء المماليك الى حياة الترف ، وملء القصور بالاثاث النفيس واسباب الراحة والتنعيم والتسابق بيناء القصور والمساجد والمدارس والاضرحة ، واقتناء كل ما هو جميل ونادر فتحسنت صناعة التحف النحاسية المكففة بالذهب والفضة ، والمشاكوات من الزجاج المموه بالميناء ، وانواع الخزف والفخار المطلي بالميناء ايضاً والاشباب المطعمة بالعاج والابنوس ، والمشريات وغيرها من الصناعات الفنية التي تشهد بطابع فني محلي يمثل هذا العصر ، ويدل على ذوق رفيع ، ومهارة يد ظاهرة .

أما في العراق والشرق الايراني فقد قام على انقاض الطراز العباسي طراز جديد هو الطراز السلجوقي الذي اتيح له السيطرة في عهد السلاجقة بالقرن الخامس على القسم الشرقي من العالم الاسلامي . ثم قامت في ايران ، من بعده ، وبعد غزق الامبراطورية السلجوقية الى دويلات ، اساليب قومية ايرانية اولها الطراز المغولي الذي ازدهر منذ وطد المغول حكمهم هناك في القرن السابع الهجري حتى سقط خلفاء تيمور وقامت الدولة الصفوية ( في مطلع القرن التاسع ) فازدهر الطراز الصفوي وسيطر حتى بداية القرن الثاني عشر الهجري . ثم فقد تألقه مع سيطرة الفنون الاوروبية .

ويمكن اخيراً ان نضيف ان الفن الاسلامي عرّا الهند منذ القرن العاشر الهجري ؛ ولكنه كان متأثراً بالطراز الايراني . كما ان العثمانيين اوجدوا منذ القرنين التاسع والعاشر طرازاً تركياً تأثر بالاسلوب البيزنطي أولاً وبالاساليب العربية كما تأثر في القرون الاخيرة بالطرز الفنية الاوروبية .

### عصور الفن الاسلامي :

قلنا إن لازدهار الفن العربي الاسلامي علاقة واضحة بالاستقرار السياسي وبمبول الحكام الشخصية ، وإن بإمكاننا أن ننسب الطرز الفنية إلى الدول الحاكمة ، ولهذا رأينا أن نعتمد لحد كبير على التقسيمات السياسية في التاريخ الاسلامي ، في تحديد عصور الحياة الفنية . على أن نتذكر أنه إذا كان من الممكن معرفة التاريخ الذي بدأ فيه حكم الأسرة الحاكمة أو زوالها فالتنا لا نستطيع أن نعرف بالدقة أو بالتحديد نفسه تاريخ قيام أي طراز فني أو زواله . لأن الطرز تتطور تدريجياً وبأخذ بعضها من بعض وتستمر بعد زوال أصحابها . وعلى هذا الاساس يمكن تقسيم الحياة الفنية في الاسلام إلى العصور التالية :

١ - عصر العالم الاسلامي الموحد : ويمتد من اواسط القرن السابع الميلادي حتى نهاية القرن التاسع الميلادي ، أي فترة الفتح وانتشار الاسلام في العالم القديم . ومن العاصمتين دمشق ثم بغداد وأخيراً سامراء تألق الفن العربي الاسلامي الوليد ، ولم يكن هذا الفن جديداً جدة واضحة لأنه لم يكن قد تكشف بعد عن شخصيته المستقلة ، حتى لقد يعده بعض الكتاب ازدهاراً متأخراً لعبقريه شعوب الشرق العربي القديمة وأطراف الجزيرة وشعوب البلاد التي ضمت إلى الدولة العربية .

في هذا العصر ، استطاع الاسلام وهو خلو من أي تقليد فني ، أن يتوضع في بقعة من اقدم البقاع المتحضرة ويستفيد في وقت واحد من عالم البحر المتوسط والعالم الآسيوي ، فمنحه عالم البحر الأبيض المتوسط الفن الهلنستي ، والعالم الآسيوي الفن الايراني ، فتأثر بهذين الطرازين اللذين تعاقبا أو تزامنا أو اشتراكا في طابعهما على آثار العصر الأموي والعصر العباسي الأول . ولكن التأثير الايراني لا يظهر إلا حين ينتقل مركز الحكم إلى العراق ويحل خلفاء بني العباس في بغداد وسامراء محل ملوك الساسانيين في المدائن ، إذا ذاك يظهر استعمال الآجر في تركيب الجدران والكوى ، ويظهر استعمال الجص وغيره في نقشها وزخرفتها ويظهر « الايوان » هذا في نفس الوقت الذي تحتفظ فيه سامراء مثلاً بزخارف هيلينية !

ومعظم الذين قاموا بهذه الأعمال الفنية الأولى في الاسلام كانوا بالطبع من سكان البلاد الأصليين : من السوريين والعراقيين والقبط والبربر ، وهم من العرب وغير العرب وقد وضعوا الأسس الأولى للفن العربي - الإسلامي وحددوا أهم ميزاته الباقية .

٢ - عصر الخلافت الثلاث : وتمتد بين القرن العاشر حتى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي : وفي هذه الفترة التي امتدت كالسابقة ، قرنين ونصف

القرن تفككت الامبراطورية العربية بوضوح وظهر فيها ثلاثة مراكز كبرى : الخلافة العباسية في بغداد والشرق . والخلافة الفاطمية في الوسط ، ونحكم من القاهرة ما بين ليبيا إلى الشام . والخلافة الأموية في الغرب ( الأندلس ) . وقد خرج الفن الاسلامي برعاية هذه الخلافات الثلاث من عصر التقليد والتأثر وبدأ يتميز بشخصية متشابهة للملامح في مراكزه المختلفة ؛ بغداد والقاهرة وقرطبة ، في الوقت الذي كانت فيه التأثيرات المحلية تظهر أيضاً وتفرض نفسها وتتميز بين الأساليب في الشرق والغرب . وهكذا استطاعت وحدة العقيدة ، والحاجات الدينية والأسس الفكرية والمصالح الاقتصادية الواسعة وحرية الانتقال والتبادل التي وجدت العالم الاسلامي أن تؤثر بدورها على الحياة الفنية وتحفظ لها الطابع الاسلامي الخاص ، سواء كان الاثر العربي هو الغالب ، أم الاثر الأعجمي الاسلامي . ولكنها سمحت مع ذلك للمراكز المختلفة من الشرق والوسط والغرب أن تحتفظ بإبداعها الخاص . ومقارنة مربعة بين المسجد الأكبر السلجوقي في أصفهان ، ومسجد الحاكم الفاطمي في القاهرة ومسجد قرطبة في الأندلس ، نرى بوضوح الطوابع المحلية الخاصة . وهكذا ظهر الفن السلجوقي في الشرق ، والفن الفاطمي في مصر والشام ، والفن الأندلسي - المغربي في أقصى المغرب .

وفي هذه الفترة ظهرت بعض العناصر الزخرفية في الفن الاسلامي كالمقرنصات ، والنقش البارز بالعناصر النباتية المحورة وغيرها . ومن المدهش أنها انتشرت بسرعة وظهرت في أوقات متقاربة في مراكز جد متباعدة من العالم الاسلامي ، بل إننا نرى فوق هذا أن فنون المسلمين في هذه الفترة قد تجاوزت المملكة الاسلامية إلى الغرب على أبدي الصليبيين ونجد آثارها في ما بقي من فنون العصور الوسطى الغربية ، كما أن الاماكن



التي جلا عنها الاسلام إذ ذاك ظلت في عهد حكامها الجدد تشع بالفن الاسلامي ، كصقلية مثلاً في عهد النورماندين .

٣ - عصر ما بعد الخلافات : ويمتد ثلاثة قرون أيضاً ( منذ نهاية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر - م ) انهارت منذ مطلعها الخلافات الثلاث وحل محلها حكومات الأتابكة والمماليك المغتصبين الذي تعرض العالم الاسلامي في عهدهم إلى أخطار خارجية عاثلة : ففي الشرق غزوات المغول ( جنكيز خان ) ثم التتر ( تيمور ) عدا الخطر الصليبي الفرنجي ، وفي الغرب كان الحكم العربي يخسر الاندلس قطعة قطعة . ومع هذا فإن تقسيم العالم الاسلامي إلى دول صغرى وتعدد مراكز الحكم فيه شجع الفنون على نطاق ضيق . والاضطراب الخارجية زادت في الحساس الديني وخلقت فيه التصوف وانعكس ذلك بشكل مساجد ومدارس وأربطة وأوقاف كثيرة ملأت البلاد الاسلامية ، ولكن مجال الابداع في ذلك كله كان محدوداً . بمعنى أن العصر الذهبي قد انتهى وانطوى العالم الاسلامي على نفسه يتغذى من ذاته فلم يتصل بفنون الغرب التي كانت بدأت عصر النهضة إذ ذاك ، ودفع ذلك الخطأ وجوداً متصلاً في كل تقاليد الفنية .

في هذه الفترة ازدادت المدارس الفنية الاسلامية تميزاً رغم تشابهها ، وبدأ بكل قطر يخلق أشكاله الفنية الخاصة ، ومعظمها من الأبنية ، واضعاً في مخططها ألوانها وهندستها وزخرفتها شخصيته المحلية المستقلة ، فبنى الفرس الجوامع ذات الباحات الواسعة والأواوين المزينة بالقرنصات ، والمآذن المتعددة . والقباب البصلية الشكل المزينة الظاهر . وأما في الشام ومصر فكانت أحجام الأبنية أقل ضخامة ، والألوان أقل وضوحاً والقباب أكثر

استدارة والمآذن ذات شرفات . وأما في الاندلس والمغرب فكانت  
مخططات الأبنية بسيطة والأبراج مربعة والسقوف محدبة والزخرفة واضحة  
تغشى كل شيء .

على أنا مع هذا نجد كثيراً من الملامح المتشابهة في فنون البلاد المختلفة  
بسبب هجرة الفنانين وتنقل الناس ونقل فكرة المؤسسات المختلفة من قطر  
إلى قطر : كالمدارس مثلاً التي انتشر بناؤها من بغداد وسمرقند إلى  
غرناطة وفاس على نمط واحد من الهندسة .

٤ - الفن المغربي - الاندلسي : ولعل من المفيد ان نفرد لهاتين  
المنطقتين الاسلاميتين فقرة تشرح اساليهما الفنية المتشابهة والتي يتم بعضها  
بعضاً ... واذا كان الفن الاسلامي بمجموعه يتميز بأنه فن يجمع بين  
الفن العربي الاصيل وبين فن كل قطر انتشر فيه الاسلام او ضمنه الحكم  
العربي ، فإن هذه الميزة ايضاً تظهر في المغرب والاندلس بتمازج الفنون  
الشرقية والبربرية .

والبربر قبل الإسلام اتبعوا اساليب معمارية تتلاءم مع طبيعة بلادهم  
الجبليّة ، فاتخذوا « التغرمت » اي الدار المحصنة وتتألف من بناء مربع  
تقوم في أركانه الأربعة أبراج ولسورها مدخل واحد . كما اتخذوا « الايغرم »  
أي المخازن المحصنة وهي عبارة عن أجنحة منفصلة تفتح على ساحة داخلية ،  
وتقع في أعالي الجبال ، في نقط استراتيجية ، تتخذ مستودعاً للخزن وقلعة  
يلجأ إليها سكان المناطق المجاورة عند الخطر . واتخذوا ايضاً « الاجدير »  
وهي دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي إلى ساحة مركزية فيها  
عدة طبقات من الغرف ، وصاروا بعد الاسلام يضيفون إليها مسجداً ،  
وتتخذ لحفظ المؤن كما تحوي صهاريج خاصة لحفظ المياه ..

والأبواب البربرية تصنع عادة من أخشاب مسمرة في إطار فوق عوارض عمودية ، تنقش عليها رسوم بدائية وتتوسطها مطرقة من حديد على أنماط شتى .

وأول من ادخل الفن الاسلامي إلى أفريقيا هم الأغالبة ، ووضعوا اسس الفن الجديد في القيروان حين جددوا مسجد عقبة بن نافع على نط مساجد دمشق والقاهرة ثم بدأ الاقتباس في مدينة فاس ... ولما جاء المرابطون والموحدون ، ومن بعدهم بنو مرين وبنو زيان ( في تلمسان ) والحفصيون ( في تونس ) زادوا في اغناء الفن المغربي الاندلسي ، وتميزه بالنقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشهاسيات الملونة والنحاس المموه والمرمر المفصص وترصيع المنارات بالزليج<sup>(١)</sup> .

**هـ - العصر العثماني الايراني :** ويبدأ منذ القرن السادس عشر وتستطيع أن نسجل انتهاء مع نهاية القرن الثامن عشر وقد عاد إلى العالم الاسلامي الشرقي والأوسط خلال هذه القرون نوع من الوحدة بظهور الامبراطورية العثمانية على البحر الأبيض المتوسط وساهات الصفويين في إيران . وقد نشر العثمانيون في البلاد التي حكموها نوعاً خاصاً من الأبنية الدينية ذات قباب كبيرة مفلطحة ومآذن رشيقة نرى أجمل آثارها في عاصمتهم ( اسلام بول ) ونرى منها في البلقان والشام أيضاً .

---

(١) الزليج نوع من الترصيع الخزفي ، اصله من الاندلس ، يشبه الفسيفساء ويعرف بالمفضض . والترصيع هو التكتفيت وتعريف في بعض البلدان باسم التلبيس والترسيب والتنزيل واطلق عليها في مشرق العالم الاسلامي في العصر العباسي : التطبيق . وقد دخل الترصيع بلاد المغرب عن طريق سورية ، ولا يزال يسمى هذا الفن في اسبانيا واوروبا باسم الفن الدمشقي ولا يزال يقلد في صنع الاواني والحلي .

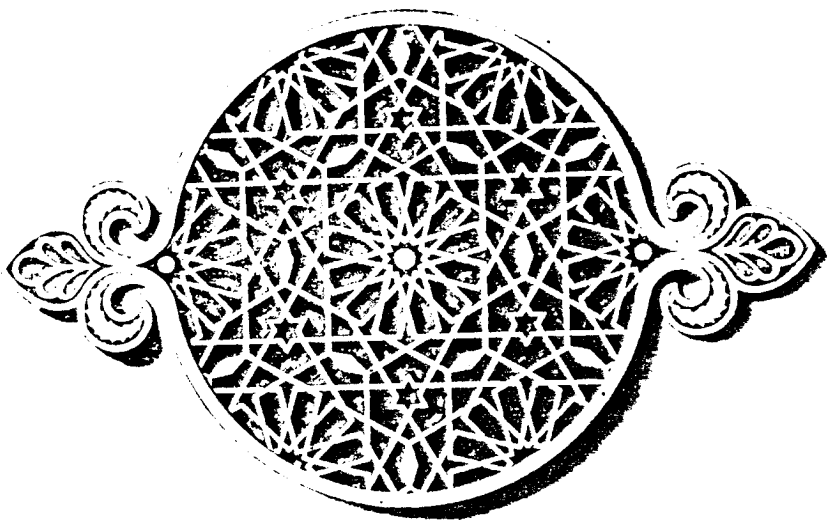
أما إيران فقد حافظت على كثير من تقاليد الفنية : وترينا أصفهان في عهد الشاه عباس الكبير في مخططها العام وابنيها الدينية نموذجاً فريداً من مدن الاسلام . وقد استطاع الطراز الايراني أن يغزو الهند ومخرج فيها التحفة الفنية المشهورة : تاج محل في آكرا . ويضاف إلى هذا أن إيران عرفت رسم الكائنات الحية وسجات فيها وفي الزخرفة تقدماً هو الوحيد من نوعه في الاسلام .

### مميزات الفن العربي الاسلامي :

تختلف مميزات الفن العربي الاسلامي باختلاف نوع الفن والعصر والمكان . ومع ذلك فيمكن أن نرى فيها صفات مشتركة عامة :

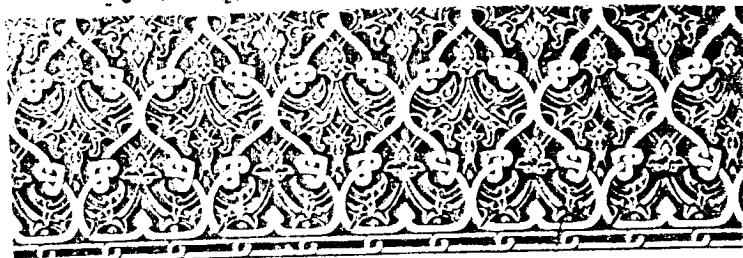
١ - إنه ذو شخصية واحدة رغم تعدد مراكزه وتباعد أقطاره وظهور التأثيرات المحلية فيه . وقد حاول الباحثون تحليل هذه الوحدة في الفن العربي الاسلامي بأنها ترجع أولاً لتأثير العامل الجغرافي المتشابهة في مختلف الاقطار الاسلامية منذ إيران إلى مراکش ، فهناك دوماً مناطق جبلية من حولها سهول وصحارى ، ومناخها جميعاً معتدل وأكثر ميلاً للجفاف ، كما أن نوع الحياة الحضرية والزراعية واحد . وترجع الوحدة ثانياً لتأثير العامل التاريخي فمجموع العناصر التي كانت تشكل القاعدة البشرية في الشام ومصر والعراق هي من بقايا العرب القدماء وكانت على صلة بشعوب آسيا وأفريقيا التي انطوت تحت لواء الدولة الجديدة التي جاءها الاسلام ، فوحد الناس فيها في لغة واحدة ودين واحد وحكم متشابه الأسس . ومن هذا وذلك مشتت الأساليب الفنية متشابهة في كل مكان .

٢ - إنه فن ديني بمعنى أنه تأثر بروح الاسلام وانصبت أنواعه المختلفة على المواضيع الدينية في الدرجة الأولى : من بناء للمساجد والمدارس



شكل - ٤٣ -

زخرفة موجودة في واجهة مسجد شمس الدين صنقر في القاهرة  
صنعت عام ٧١٥ هـ . وتعد نموذجا من الزخرفة الاسلامية  
في مصر في اوائل القرن الثاني الهجري



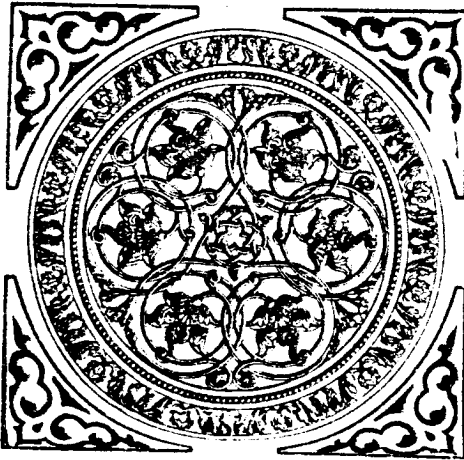
شكل - ٤٤ -

زخرفة موجودة الان في المسجد الذي بناه خير بك احد امراء  
المماليك في عهد السلطان الغوري اول حاكم من المماليك عينه  
العثمانيون بعد فتح مصر، والمسجد في القاهرة، بني عام ٩٠٨ هـ  
وفي الزخرفة اسلوب التوشيح العربي . ويعني التوشيح تكرار  
عنصرين زخرفيين او اكثر متشابهين تشابها هندسيا ، متماثلا  
او منتظما ، تتباين فيهما الحركة تبائنا توقيعا ( انظر دائرة  
المعارف الاسلامية . مقال آراسك )



شكل - ٤٥ -

جزء من كتابة كوفية مزخرفة معقودة على هيئة قنديل ، من الطراز  
الايوبي . موجودة على ضريح في القاهرة اقيم في القرن السابع  
الهجري وينص هذا الجزء على كلمة : خالدين



شكل - ٤٦ -

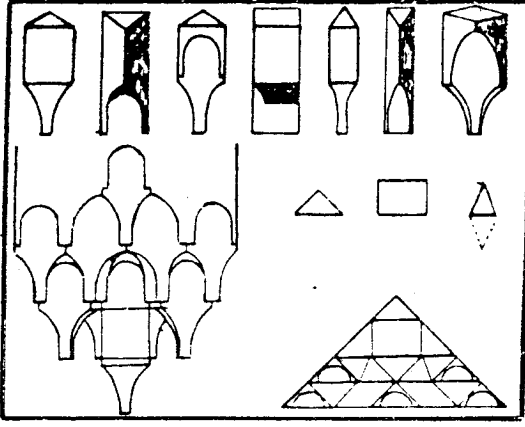
نموذج لزخارف اسلامية نباتية موجودة في مسجد الامير سيف الدين  
صفرتمش المملوكي في القاهرة صنعت عام ٧٥٧ هـ

والتكاي ومن زخرفة بالآيات القرآنية ، وكثيراً ما كان الباعث على الأعمال الفنية باعثاً دينياً . ويكفي أن نستعرض الآثار الإسلامية من الكؤوس والمصابيح والأباريق في المتاحف إلى الأبنية الضخمة التي الدور الكبير الذي قام به الدين في الانتاج الفني .

٣ - إنه فن كثير الزخرفة : ومثل القطعة الفنية بالزخارف عنصر رئيسي في الفن الإسلامي . نجد ذلك على الجدران والمنابر والسقوف كما نجده في المنسوجات والبسط والزجاجيات ، وفي التوابيت والشواهد وجلود الكتب . وقد اعتمد العرب على عنصرين اثنين في الزخرفة : الأشكال الهندسية التي برعوا فيها براءة مدهشة اقتبسها عنهم الغربيون من مضاعفات مختلفة وأشكال نجمية متداخلة ودوائر مزجت خطوطها بالكتابة .. السخ . والأشكال النباتية التي تفتنوا في تصويرها ولكن على طريقة التكرار كما في القاشاني والسجاد . ولم ترسم الأزهار مع ذلك بشكلها الطبيعي إلا في فارس وسورية . أما في غيرها ، ولا سيما في العصر الفاطمي فقد كان النبات والحيوان معه يحور إلى شكل زخرفي خالص . واستخدم العرب الخط العربي ، بأنواعه المختلفة في التزيين ، وتفننوا في اختيار الآيات والحكم والأشعار للزخرفة بها ، ومن العبارات التي اشتهرت بها الزخرفة الاندلسية : « ولا غالب إلا الله » .

وبلغ الشغف بالتزيين في البلاد العربية والإسلامية أن غشيت أعالي المداخل والابواب والأواوين في الأبنية بأشكال هندسية صغيرة متداخلة عرفت بالمقونصات .

٤ - إن الفن الإسلامي أهل رسم الأشكال الانسانية والحيوانية وخاصة في أماكن العبادة . وليس معنى ذلك أن المسلمين لم يعرفوها



شكل - ٤٧ -

يرى الفنيون المعماريون ان المقرنصات الاسلامية تتألف من سبعة عناصر تشاهد في اعلى الشكل ومن اضافات تشاهد في الوسط ومن تنسيقها مع بعضها يحصل المعماري الفنان على المقرنصات البديعة الصنع التي تأثرت بها العماائر الاسلامية

إطلاقاً فقد أثبتت رسوم « قصر الحير » وبقايله ( وهي في متحف دمشق ) وأشعار بعض الشعراء أن رسم الانسان والحيوان كان معروفاً ، ولكن أتقياء المسلمين كرهوا ما حاربه الرسول وكرهه أيام حارب الأصنام والشرك ، فبقي هذا العنصر الفني ضعيفاً مهملأ . واحتال بعض الفنانين على الأشكال الحيوانية فجوّرها حتى صارت أشبه بالزخرفة كما في صحن وجد في سامراء وعليه رسم نسر يظهر وكأنه ورقة مسننة مغطاة بالزخارف حتى ما يكاد يبين . وأهم مظاهر الفن العربي الاسلامي يتمثل في المدن والعمران والفنون الجميلة .



# الفهرس

علامات الخليفة	٤٧	بين يدي الكتاب ( المقدمة )	٨-٣
تعدد الخلافة - ضعفها وزوالها	٤٩	<b>الفصل الاول</b>	٢٥-٩
<b>الفصل الثالث</b>	٦٥-٥١	انظمة الحكم في الاسلام	٩
الوزارة	٥١	الجاهلية والاسلام	٩
تعريف الوزارة	٥١	تعاليم الاسلام	١١
الوزارة قبل العصر العباسي	٥٢	اثر الاسلام في حياة العرب	١٧
نوعا الوزارة	٥٤	تطور نظام الحكم في الاسلام	٢٠
عدد الوزراء	٥٦	نظام الحكم في عهد الرسول	٢٠
سلطة الوزير	٥٧	نظام الحكم بعد الرسول	٢٢
ضعف شأن الوزارة	٥٩	الشورى والبيعة	٢٢
القاب الوزراء	٥٩	<b>الفصل الثاني</b>	٥٠-٢٣
رواتب الوزراء	٦٠	الخلافة الاسلامية	٢٦
تعيين الوزراء وعزلهم	٦١	معنى كلمة خلافة	٢١
الوزراء في الاندلس	٦٢	آراء الفرق الاسلامية والمؤرخين	٢٩
الوزارة لدى الفاطميين	٦٣	حول اختيار الخليفة	٣١
الوزارة في عهد المماليك	٦٤	نشأة الخلافة وتطورها	٣١
<b>الفصل الرابع</b>	٦٨-٦٦	الخلافة زمن الراشدين	٣١
إمرة الامراء والسلاطين والملوك	٦٦	الخلافة زمن الامويين	٣٤
أمير الامراء	٦٦	الخلافة زمن العباسيين	٣٦
السلطان	٦٧	سلطة الخليفة ومقارنتها بنظم	٣٧
الملك	٦٨	الحكم الاخرى	٤١
<b>الفصل الخامس</b>	٧١-٦٩	القاب الخليفة	٤١
الحجاجة	٦٩	الشورى	٤١
الحجاجة زمن الراشدين والامويين	٦٩	شروط الخلافة وصفات الخليفة	٤١
الحجاجة زمن العباسيين	٧٠	ولاية العهد	٤١
الحجاجة في مصر	٧١	البيعة	٤١

تعريفه	١٠٥	البيجانية في الاندلس	٧١
مصادر التشريع الاسلامي	١٠٥	البيجانية في المغرب	٧١
التشريع الاسلامي والقانون الروماني	١٠٨	<b>الفصل السادس</b>	٧٢-٨٠
تطور القضاء	١٠٩	الولاة وادارة الولايات	٧٢
تطور القضاء زمن النبي	١٠٩	الولايات زمن النبي	٧٢
تطور القضاء زمن الراشدين	١١٠	الولايات زمن الراشدين	٧٣
تطور القضاء زمن الامويين	١١٢	الولايات زمن الامويين	٧٤
والعباسيين		الولايات زمن العباسيين	٧٥
ديوان المظالم	١١٣	انواع الولايات	٧٦
دار العدل ومجلس القاضي	١١٥	تعيين الولاة وعزلهم	٧٨
مساعدو القاضي	١١٥	راتب الولاة	٧٩
القضاء وأهل الذمة	١١٦	<b>الفصل السابع</b>	٨١-٩٠
شروط القاضي وتعيين القضاء	١١٧	الدواوين	٨١
رواتب القضاء وملابسهم	١٢٠	نشأة الدواوين واتساعها	٨٢
<b>الفصل الحادي عشر</b>	١٢٨-١٢٢	تعريب الدواوين	٨٧
الحسبة	١٢٢	الدواوين في العهد العباسي	٨٨
نشأة الحسبة	١٢٣	<b>الفصل الثامن</b>	٩١-٩٧
الحسبة والقضاء	١٢٣	البريد	٩١
اعمال المحتسب	١٢٤	مصلحة البريد	٩١
مجلس المحتسب وراتبه	١٢٧	البريد زمن العباسيين	٩٣
المقبوبات	١٢٨	مهمة صاحب البريد	٩٣
<b>الفصل الثاني عشر</b>	١٢٩-١٥٤	وسائل نقل البريد	٩٤
النظام العسكري - الجيش	١٢٩	ماذا ينقل البريد	٩٦
المقاتلون في صدر الاسلام	١٢٩	محطات البريد	٩٦
الجهاد في الاسلام	١٣٠	<b>الفصل التاسع</b>	٩٨-١٠٤
وصايا امراء الجيوش	١٣١	الشرطة	٩٨
الجنديّة الاجبارية	١٣٣	نشأة الشرطة	٩٨
ادخال العناصر غير العربية	١٣٤	تطور الشرطة وسلطة صاحبها	١٠٠
الجيش		أعمال الشرطة	١٠١
المسكرات	١٣٥	تعيين صاحب الشرطة	١٠٣
التدريب العسكري	١٣٧	<b>الفصل العاشر</b>	١٠٥-١٢١
		القضاء	١٠٥

١٩٠-٢٢٤	الفصل الخامس عشر	١٣٧	فرق الجيش
١٩٠	النظام الاجتماعي	١٤١	عدد الجند - إمرة الجيش
١٩٠	المجتمع الجاهلي	١٤٤	أسلحة الجند
١٩٢	القضاء في الجاهلية	١٥٠	أساليب القتال
١٩٣	حلف الفضول	١٥٥-١٦٨	الفصل الثالث عشر
١٩٤	تشكل المجتمع الاسلامي	١٥٥	النظام البحري - الاسطول
١٩٧	طبقات المجتمع الاسلامي وتطورها	١٥٥	العرب والملاحه
١٩٨	المجتمع الاسلامي في عهد الرسول والراشدين والامويين	١٥٥	نشأة الاسطول
٢٠٢	المجتمع في العصر العباسي	١٥٨	دور الصناعة
٢٠٣	المجتمع في الاندلس	١٦١	السفن الحربية وأشهر انواعها
٢٠٤	الموالي	١٦٢	أسلحة الاسطول
٢١٠	اهل الذمة	١٦٥	إمرة الاسطول
٢١٨	الزقيق	١٦٦	أشهر المعارك العربية البحرية
٢٢٧	المرأة في الاسلام	١٦٨	تراث العرب في الملاحه
٢٢٧-٢٧٩	الفصل السادس عشر	١٦٩-١٨٩	الفصل الرابع عشر
٢٣٥	النظام الاقتصادي	١٦٩	النظام المالي
٢٣٥	الزراعة	١٦٩	بيت المال
٢٥٠	المعادن والصناعة	١٧٠	موارد بيت المال
٢٦١	التجارة وطرق المواصلات	١٨٢	الواردات غير المشروعة
٢٨٠	الفصل السابع عشر	١٨٢	طرق الجباية
٢٨٠	الفن في العصور الاسلامية	١٨٤	نفقات الدولة
		١٨٦	التقدي
		١٨٩	دار الضرب

